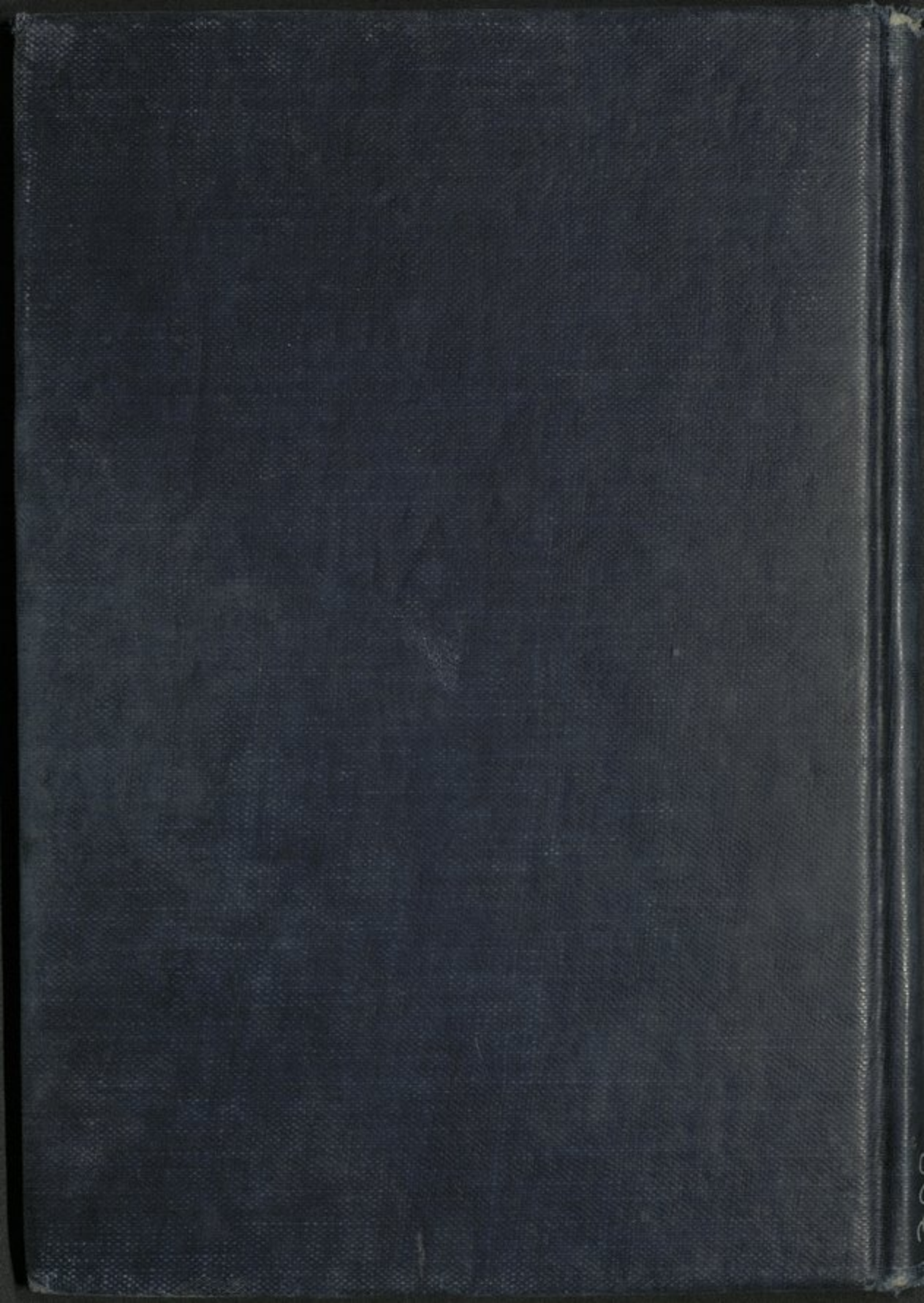
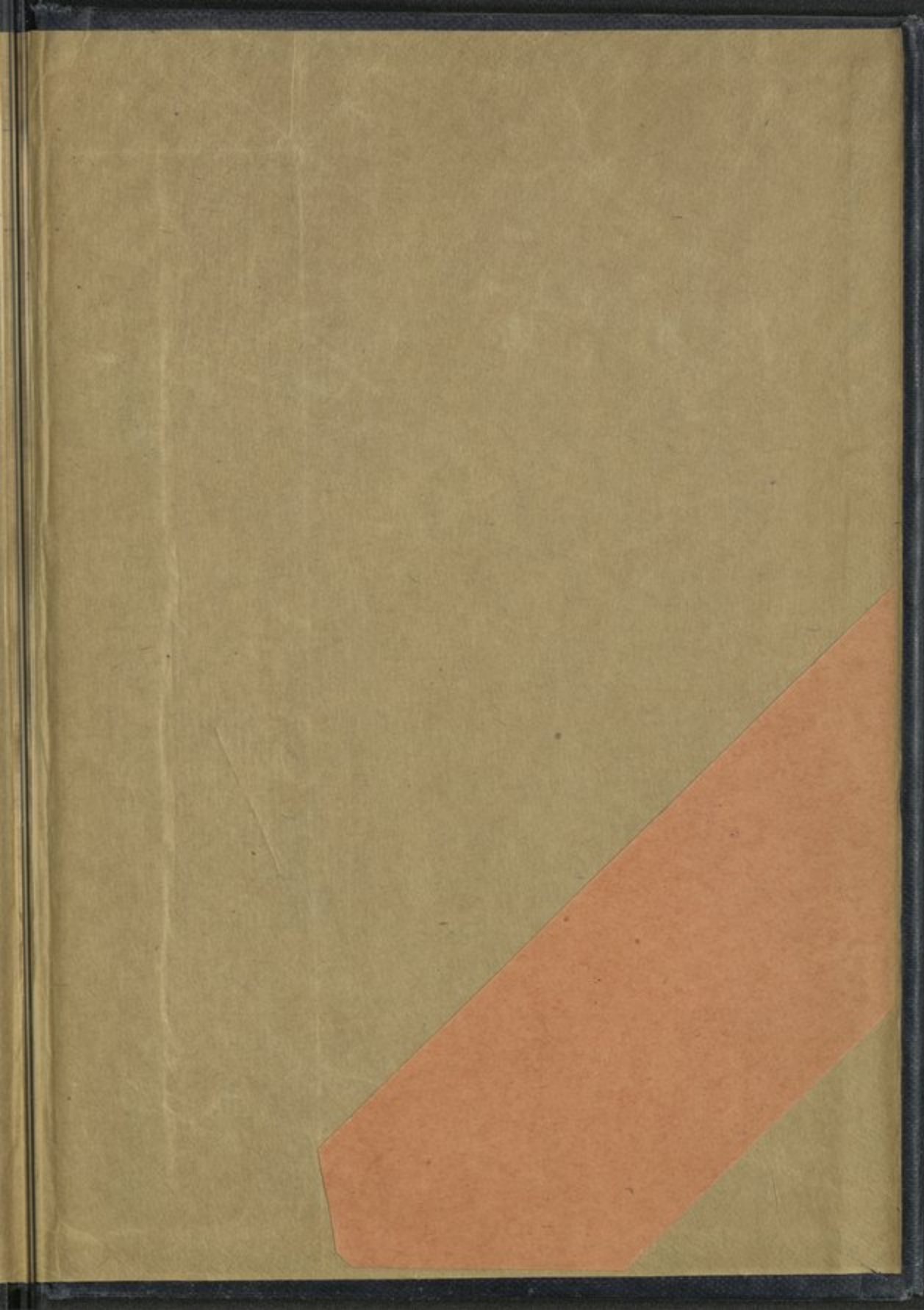






[REDACTED]

ولز - ه. ج.
الأغنياء والفقراء

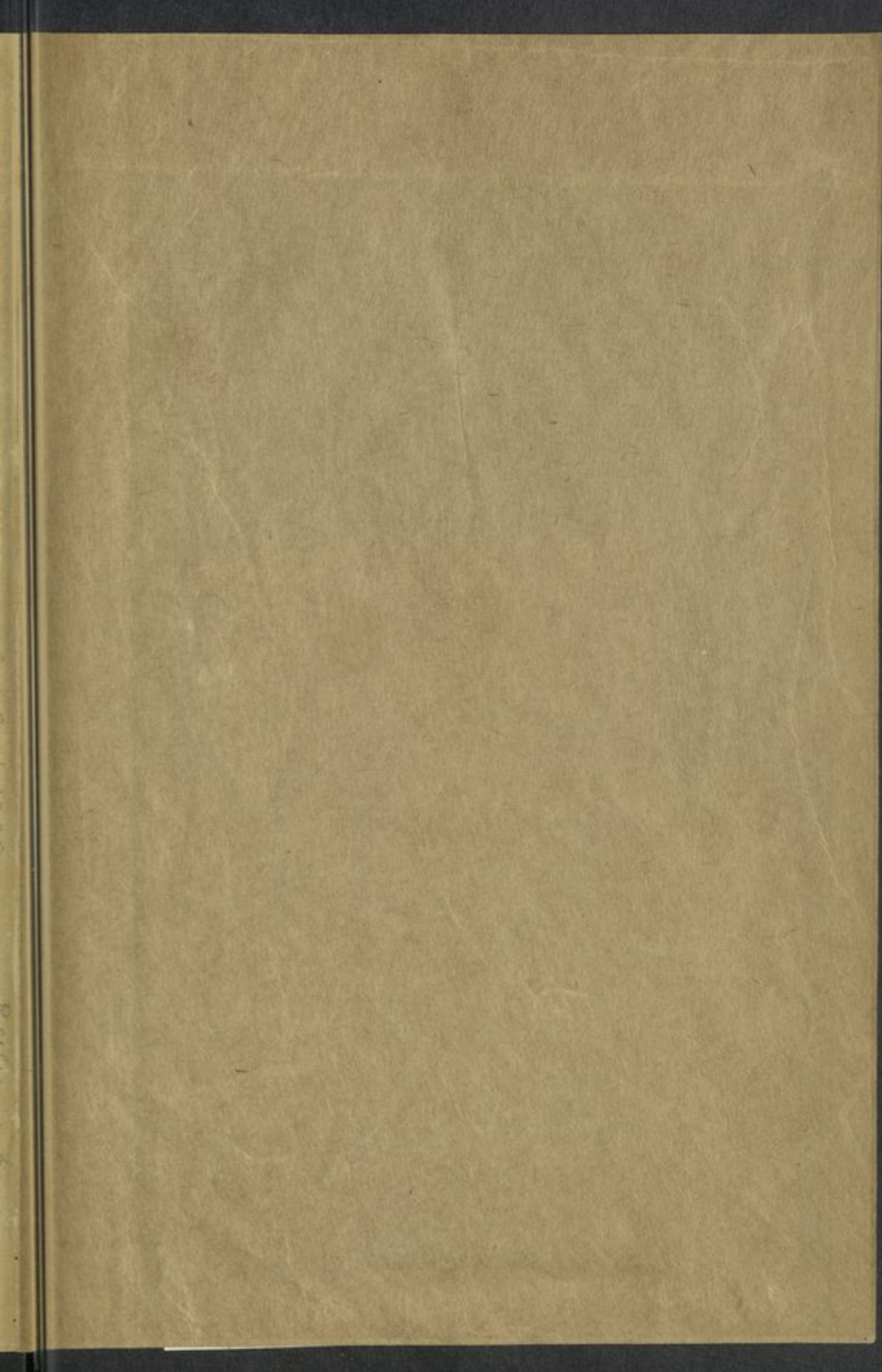
JAN 8

3349

[REDACTED]

FF 23

JAFET LIB.
JAFET LIB.
15 APR 1990



بجته التأليف والترجمة والنشر

302
w45wA

الْأَغْنِيَاءُ وَالْفُقَرَاءُ

ه.ج. ولز

ترجمة

زكي نجيب محمود

59478

العدد الثالث

عيون الأدب العربي

East. Sept. 1945

Replaces



الطبعة الثانية

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٤٣

مقدمة

حياة ه. ج. ولز وأدبه

ولد هيربرت جورج ولز في « بروملي » بمقاطعة « كنت » في إنجلترا ، عام ١٨٦٦ ، من أسرة تقع من طبقات المجتمع في الدرجة الدنيا من الطبقة الوسطى . وقد استُخدم في صدر شبابه عند تاجر أقمشة ، ثم اشتغل مدرساً مساعداً في إحدى المدارس ، وبعدئذ التحق طالباً للعلوم في جامعة لندن يستمع إلى محاضرات « هكسلي » ، وظل بها حتى حاز درجة العلوم من تلك الجامعة . ومنذ ذلك الحين أخذ يلقى دروساً بها ، ويخرج الكتب ؛ فكان أن أصدر كتابه في علم الحياة ، وطلق يكتب كتابه متصلة في المجلات ، حتى ذاع اسمه بين الناس . وأول ما استوقف انتباه القراء إليه قصصه القصيرة التي أنشأها على موضوعات علمية ، وهذا الضرب من القصص هو الذي جعله من أوسع الكتاب شهرة في أرجاء العالم في عصرنا هذا ؛ وأصدق مثال لهذا النمط من مؤلفاته قصته « آلة الزمان » .

ويدين ولز بالمذهب الاشتراكي ، فقد كان عضواً في « الجمعية الاشتراكية المعتدلة » التي مبدؤها أن تنشر الاشتراكية بالتشريع التدريجي ، لا بالثورة والانقلاب ؛ ولكنه انفصل عنها فيما بعد ، وشق لنفسه طريقاً خاصة به في تعميم آرائه الاشتراكية ، فأخذ ينشر فيها الكتب تباعاً في صور مختلفة ، من ذلك كتابه « الاشتراكية والزواج » ، وكتاب « عالم جديد مكان عالم قديم » ،

ومجموعة فصول سماها « آمال مرقوبة » ، وكتاب « الإنسانية في دور التكوين » وكتاب « يتوپيا حديثة » ولم يلبث ولز أن انصرف بكل عنايته إلى الدراسة الاجتماعية حتى جعلها محوراً يدور حوله ما يكتب من قصص مثل كتاب « عجالات القدر » . حتى إذا ما وضعت الحرب أوزارها ، أخذ يفكر وينشر في إعادة تنظيم العالم من جديد على أساس دولي ينظر إلى الأمم كلها حقيقة واحدة متصلة لا تفرقة بين أجزائها . ومن أهم ما أخرجه لتحقيق هذه الوحدة العالمية كتابه « خلاصة التاريخ » ، وكتاب « عمل الإنسان وثروته وسعادته » وهو الذي اقتبسنا منه هذين الفصلين اللذين يكونان هذا الكتاب : « الأغنياء والفقراء ، والمرأة » .

وقد بلغ إنتاج ولز من الخصوبة والغزارة والاتساع حداً تمعذر دراسته بغير تقسيم وتبويب ، فقد كتب قصصاً قصيرة يعرض فيها ما يمكن أن يتمخض عنه العلم من أعاجيب ، ثم انتقل من كتابته في علم الحياة وفي تطبيق مبادئ الميكانيكا إلى مستقبل الإنسانية وما يثيره من مشكلات ، ولبت في هذه الدراسة خمسة وعشرين عاماً يفكر كل يوم في كيف تحيا الإنسانية حياة سعيدة تشمل الأفراد جميعاً ؛ وهذا التفكير الاجتماعي القائم على أساس اشتراك هو روح قصصه كلها ، التي مزج فيها تحليلاً نقدياً لما هو كائن بدراسة دقيقة لما يمكن أو ما ينبغي أن يكون . وإن خياله في قصصه تلك ليلتمب بعواطفه ومشاعره الثائرة الساخطة من هذه المأساة البشرية التي يمثلها الإنسان على هذه الأرض . . فأنت تسمع الكتاب في كل قصة يعترف لك بالشر الجاثم في النفوس على اختلاف ألوانه ، ثم يأخذ في بحث مستفيض لما يصلح له من ضروب العلاج . . ثم هو ينزع بقصصه فوق ذلك نحو السياسة الدولية ، ويستبشر حين يرى اتصال الشعوب وسيادة

الرأى العام قد أخذنا بالفعل ينجوان هذا النحوي ، ثم يضيف فى قصصه إلى هذا وذلك فلسفة دينية يوضح فيها مذهبه وعقيدته ، فيعالج للمعضلات الفكرية كلها معالجة حرة من كل قيد . وقد اشتدت هذه النزعة الروحية فى الكتاب خلال الحرب وبعدها ، حتى ليعد اليوم بشيراً روحياً للإنسانية المعذبة ، وراشداً لمخاض الأمم التى طمست العداوة قلوبها وغشت عيونها ، وهادياً أميناً للأفراد الذين رانت الأنانية على أفئدتهم فأفقدتهم الوعى والبصيرة . فأعجب ما يستثير الإعجاب فى ولز هو استمساكه بحقائق العلم وطرائقه ، وأداؤه فى الوقت نفسه رسالة روحية تمازجها النزعة الصوفية .

وإذن فهو نمط جديد فى الأدب ، أضاف التقليد الروحى القديم إلى الأساس العلمى الجديد . . وهو ديمقراطى جرت منه الديمقراطية مجرى الدم ، يثبت بها آسبث المستعينة رغم كل ما يحيط به من عوامل المعارضة . وقد استمد من دراسته العلمية أسلوبه فى البحث ومنحاه فى التفكير ، أضاف إلى ذلك أنه لم يدرس دراسة كلاسيكية فتحرر من تقاليدها وقيودها ، ولذا تراه فى ثورته عنيفاً جباراً يكتسح الحدود والحدود ولا يرضى بأن يكون الماضى العتيق ساعان على الحاضر . . . لقد رضى مَنْ جاء قبـله من الكتاب الذين هبطوا من الطبقة الوسطى — مثل « ديكنز » — بالنظام الاجتماعى كما هو ، وكل همهم أن يحملوا الأغنياء على الإحسان ليخفف عبء الفقراء ، أما ولز فلا يتردد لحظة فى تخطيطه ودك قوائمه ، فهو يُغزبُ الآراء التقليدية غربلة لا تُبقى إلا الصالح وحده ليشيد العالم على أساس جديد ؛ وهل المجتمع عند هذا العالم فى علم الحياة « البيولوجيا » إلا ميدان التجارب ، على أن تخلو التجارب من قيود التقاليد وأغلال الماضى ؟ فهو كلما كره ببصره إلى الوراء ليشهد هذا الماضى الذى يريد الناس تمجيده لم يرَ

سوى ذكريات بقيت له من عهد الطفولة وإلا تجارب استمدتها بنفسه من الحياة القائمة ، وكلاهما محلولك كله عبث وتخبط وفشل . فلا بد من مراجعة النظر في كل شيء !

ولا تنجوا الأخلاق من هجمات ولز ، تلك الأخلاق التي رسخت جذورها في المجتمع رسوخاً لم يعد يحتمل النفاش والبحث ، وهو في نقده يقف موقف الرجل العلمى الواقعى ، الذى اعتاد تحليل الأسباب تحليلًا دقيقاً ، لا فرق عنده بين البحث في بقاء المجتمع ، والبحث في الكائنات الحية من حيث الخلايا والأنسجة والأعضاء . . . ولعل هذا هو الفارق الأساسى بينه وبين « برناردشو » إذا استثنينا ما بين مزاجيهما الشخصى من خلاف — فهما يلتقيان عند النقد الجرىء ، بل كثيراً ما يلتقيان فيما يقترحان من حلول ؛ وكذلك يتفق الكاتبان في نقطة الابتداء : وهى الاشتراكية المعتدلة التى تنفذ أغراضها بالتشريع والتطور التدريجى ، وهما يعتقدان أن تحكيم العقل فى شؤون الحياة هو مفتاح الحق والعدل ، ولا سبيل إلى الحق والعدل سواه . . . ولكن « شو » تبنى تربية عادية كسائر أفراد الطبقة المثقفة ، ولذا تراه يميل إلى المنطق الرياضى ، أعنى إلى التعليل النظرى فى تحليل الأمور . أما « ولز » فتسيطر على تفكيره نزعة الواقع المحسوس ، يتمسك بالحقائق الواقعة أمام بصره ، وينتقل منها إلى ما يريد من استنتاج وابتكار ، ومن هنا كان عقل « ولز » أكثر مرونة وأقدر على تغيير موقفه وتجديد وجهة نظره ، لأن فكره أشد اتصالاً بالحقيقة الواقعة ؛ وهو يعترف أن عقله لا يمتاز عن عقل الرجل العادى إلا فى الدرجة دون النوع ، ولا يطمح إلا أن يعبر عما يطمح إليه الرجل العادى ، ولذا تراه أحياناً يطلق على نفسه اسم « الرجل العادى » ، أعنى أنه ليس فيلسوفاً نظرياً يسبح بفكره فى عالم التجريد

ولسكنه مفكر يحصر نفسه في عالم الحس ، ويعترف أنه بشر له مثالبه ونقائصه . وهذا الوقوف عند الحقائق المحسوسة هو بغير شك سبب ما نلاحظه في أدوار حياته . من تطور عقلي ممكنه من معرفة الحياة البشرية معرفة دقيقة ممتازة بما فيها من رغبات دافعة وعواطف حافظة .

ولسكننا نسارع إلى القول بأن السبب الذي وسع من أفق « ولز » ودائرة تفكيره والذي زاد عقله مرونة ، هو نفسه السبب الذي ضيق نطاقه الفكري في بعض الجوانب ؛ ففكره يتغذى بالتجربة الواقعية المحسوسة ، ولسكنها التجربة الفردية الشخصية ، والخطر في هذا واضح ، وهو أن يثب الكاتب إلى تعميم لا يستند إلى تجارب شاملة ، ولم ينجح ولز دائماً في إنقاذ نفسه من هذا الخطر .. فشخصيته المضطربة أحياناً هي التي تهديه إلى الإحساس والشعور فيما يعرض له من مشكلات ، ونقده وإنشاؤه يتفجران أحياناً من أحزانه وعواطفه الشخصية ، لا باعتبارها أحزاناً وعواطف بشرية تمثلت في فرد ، بل باعتبارها خلجات نفسية عرضية سرعان ما تزول .

ولسكن على الرغم من اندفاعه واضطراب نفسه الذي يؤدي إلى اضطراب تفكيره ، فهو عالمٌ فكري يهذى أوروبا المعاصرة بأرائه ، وفكره هو محور إنتاجه الأدبي ومورد ضوئه وخصبه . وقد كان هذا الفكر وحده كفيلاً أن يلفت أنظار أوروبا عامة وإنجلترا خاصة إلى الاضطراب الخلقى الذي يضرب بحجرانه في هذا العصر المرتجج الفاسد . فقيمة ولز كلها من حيث هو كاتب فنان تنحصر في فكره . . . وهو لا يؤمن بأن يكون الفن خالصاً لوجه الفن دون أن يكون له غرض يرمى إليه ؛ وغرض ولز من فنه هو إعادة بناء الإنسانية على أساس جديد ، وهو دائم التفكير فيما يمكن أن يتمخض عنه الإنسان في مستقبله .

«ويسوءه أن يرى الأمم في العصر الحاضر متقاتلة متنازعة، ويقول إن الغناء نتيجة لا محيص عنها إن دامت هذه الحال، فإن نشبت حرب أخرى بين الشعوب فسلام على المدنية سلاماً لا لقاء بعده ! فالمشكلة كلها هي كيف نصلح عقول الناس بحيث يصلحون أمور عيشتهم ويرفضون الحرب والقتال ؟ فولز في هذا اسان يعبر صادقاً عن آمال عصره وأمانيه . . . ولكننا حين نشبت هذا الجانب العنفي في ولز بقولنا إنه يعتمد فيما يكتب على التحليل الفكري، نحذر القارئ من تصديقه في كل ما يقول، لأن نتائجه مليئة بالأغلاط .

ويختلف « ولز » و « شو » في طريقة التهكم، فشو يكفيه أن يسخر من المجتمع ليوضح لقرائه ما يريد، أما « ولز » فيضيف إلى ذلك تحليلاً لعناصر المجتمع كأنه يشرحه ليبين ما فيه من أنسجة وخلايا، وهو يتغلغل في تحليله حتى يصل إلى الأعماق الغامضة من حياة الإنسان، حيث تعمل العوامل الاقتصادية والتقاليد في صمت وقوة، وحيث تكمن الغرائز والميول الطبيعية التي تدفع الإنسان إلى ما يعمل . . . على أن ولز إن استخدم السخرية في كتابته فهي سخرية السكهل الرزين الرصين لا سخرية العايب الطروب .

إن الرسالة التي أداها « بلزك » و « زولا » في فرنسا، هي بعينها التي جاء « ولز » يؤديها في إنجلترا، وإن يكن أقل منهما نبوغاً وعبقريّة . فهو يحلل نفسية الأفراد كما كان يفعل « بلزك » ولكنه دونه في ذلك فهمًا لها وأقرب منه إلى الزلل والخطأ . وهو يشرح نفسية الجماعات كما كان يفعل « زولا » ولكنه في ذلك أضعف قدرة منه . على أن « ولز » يمتاز عن ذينك السكاتبين بدقة الحاسة الاجتماعية . وإن له في أبحاثه الاجتماعية لدقة علمية يحسده عليها كثير من العلماء . إن ولز يرى العالم من حوله يضطرب اضطراب الغليل، فلا يألو جهداً في

وصف الدواء ، وقد وصفه في وضوح لا يعرف الغموض ، وهو الاشتراكية المنظمة . وهو أوضح في نظرنه إلى الاشتراكية المنشودة من برناردشو ، لولأنه ينظر إلى اضطراب المجتمع من وجهة نظر جزئية شخصية في معظم الحالات . إن المدنية الصحيحة عند ولز هي رقي الفكر والخلق . ولكي تبعث شعباً من غفوته فحسبك أن تبعث في حياته روحاً علمية في التفكير ، فأمل الإنسانية الزاهر هو عند ولز نشر المعرفة المنظمة بين الناس ، هو أن يوقن أن العالم لا يابث أن يتبدل حاله غير هذه الحال السيئة إن أدرك الناس ما في ظواهر الطبيعة ومظاهر الحياة من أسباب ومسببات . . فستقبل الإنسانية مرهون بالتربية التي تبث هذه الروح في النفوس .

ولكن العلم والفكر ليسا بالدافعين الوحيدين لروح الشعب ، ولا يقتصر عليهما ولز في حث الهمم ، بل يعنى كذلك بجانب الشعور في الإنسان ، فن الشعور يتفجر الحب والعواطف ، ومن هذه يندفع الإنسان إلى كثير مما يعمل . وهذه النزعة التصوفية أخذت تنبت في نفس ولز قبل الحرب ، فلما نزلت نازلة الحرب الكبرى أينعت تلك النزعة وازدهرت . ولم تعد الاشتراكية هي كل شيء عند ولز ، بل استولت عليه رغبة ملتزمة نحو توحيد أفراد البشرية جميعاً . فالإنسانية وحدة لا انفصال بين أجزائها ؛ هكذا يجب أن نفهم التاريخ ، وهكذا ينبغي أن نمد الطريق للمستقبل ، ففي هذه الخطوة وحدها سبيل النجاة مما يتخبط فيه الناس اليوم من فعل القوة والدمار والخوف . . . اتحاد الدول هو الهدف الذي استولى على ولز بعد الحرب فأخذ يعمل لتحقيقه جاهداً لا يدخر في سبيل ذلك وسعاً . . إن هذه الأرض التي تسيح بين أطباق الفضاء وهي ثن أنيناً مما تنوء به من الكوارث والآلام ، وإن هؤلاء البشر الذين تحسرتق في نفوسهم

نيران العقل والواجب والحب ، أقول إن هذه الأرض ومن فوقها تنزع إلى أمل واحد يطمح إليه كل شيء وكل إنسان ، وهو أن تبلغ مرتبة تدنو من الكمال لتحقيق وجود الله في الواقع ، وستكون البشرية المتحدة المتسقة شعلة من نور تنهض برهاناً على الألوهية الخالدة ؛ هكذا مَسَّ ولز موضوع الدين وهو يرنو إلى وحدة الإنسانية ، فأغضب الملاحدين لأنه طرق موضوعاً ما كان ينبغي له أن يخوض فيه ، وأغضب رجال الدين لأنه صور الله على غير ما جرى به الدين . . . ولكن ولز لا يعبأ بهؤلاء ولا بأولئك ، فعقله ينشد الفهم الصحيح والتعبير عما فهم ، وهو لا يعرف حدوداً لأطماعه ولا يجد ما يشككه عن محاولاته الجريئة في جوانب التفكير على اختلاف ألوانها ، فهو ثائر ، ثائر لا يهدأ ، ولكن من وراء الثورة المتأججة خضوعاً واستسلاماً ؛ خضوعاً لما يمليه العقل واستسلاماً للدين كما يراه . على أن ولز ليس متساوياً الفكر والنبوغ في كل ما كتب . فقصصه الخيالية التي كتبها في المرحلة الأولى من حياته يَعدّها هو نفسه اليوم مجهوداً ضئيلاً ، ومع ذلك فلها حسناتها ، فأسلوبها سهل متسق ، ولذا فقد حققت الغرض من تأليفها أتم تحقيق . . . وأما مؤلفاته في علم الاجتماع فرصينة هادئة واضحة . . . وإذا بلغنا مرحلة القصص المطولة وجدت للكاتب غرضاً فنياً سامياً طموحاً . وإنا لنلاحظ في رسم أشخاصها أن الكاتب يُجيد كل الإفادة حين يصف الشخصيات التي عرفها في طفولته وشبابه ، وقد بلغت من الكثرة والتنوع ما يشهد لولز بالقدرة الممتازة . أما في وصفه للنساء والبنات فهو مقعر بعض الشيء ، وبخاصة إذا حاول أن يقدم صورة للحب العميق ، فهو ينتزع العواطف من خياله وذهنه انتزاعاً ولا يستمدّها من القلب . . . وهو بارع جداً حين يصور البيئة الاجتماعية في الطبقتين الدنيا والوسطى .

وأصاب ولز بعض التطور في أسلوبه ، فقد بدأ بأسلوب هادئ مستقيم ، ثم أخذت تستولى عليه حماسة عنيفة ظهر أثرها في اللغة . ولعل أبرز ما يستوقف النظر في كتابته الآن سعة الألفاظ اللغوية التي يستخدمها . . . وطراً على ولز تحول آخر ، فقد بدأ واقعياً يعنى بتصوير الحسّات ولكنه أخذ اليوم في تجريد فكره شيئاً فشيئاً ، فأبعده تجريده هذا عن نزعته العلمية بعض الشيء ولم يدنُ به نحو الشعر . . . ومهما يكن من أمر أسلوبه فهو قليل الجمال وإن يكن جزلاً قوياً ، وهو يعتمد القوة في اختيار الألفاظ لأنه لا يحب أن يقرأه القارئ وهو فارغ البال ، بل يريد أن تُدرس كتيبه دراسة مقننة .

وبعد فقد آثرنا أن نقدم لقراء العربية نموذجاً من أدب « ولز » في هذين الفصلين : « الأغنياء والفقراء ، والمرأة » وهما الفصلان العاشر والحادي عشر من كتابه « عمل الإنسان وثروته وسعادته » الذي يقع في ستة عشر فصلاً . وأساس اختيارنا هو أن هذا الكتاب يمثل كثيراً من جوانب ولز الأدبية :

١ — فهو بمجهود جبار يريد به أن يعيد بناء العالم الاقتصادي . وتغيير الأسس الاجتماعية من أهم أغراض ولز كما رأيت في التحليل السابق .

٢ — وهو دعوة صريحة قوية نحو وحدة الأمم التي لا يرى نجاة الإنسانية من شر الحروب بغيرها ، وهذه أحد رغبات الكاتب منذ نهاية الحرب العظمى .

٣ — وهو اشتراكى في أساسه . وقد رأيت أن الاشتراكية عند ولز علاج

الفوضى القائمة .

٤ — والكتاب يمثل طريقة ولز في التحليل العلمي ، وقد ظهر لك من

تحليل أدبه أن دراسته العلمية قد أثرت في أسلوبه وطريقته .

٥ — وهذان الفصلان مثل قوى لما أشرنا إليه فيما سلف من أن ولز يستمد معظم أدبه من عقله . على أنه يمزج فكره بقليل من المشاعر والعواطف .

٦ — وحلل ولز بعض الأغنياء في هذا الكتاب تحليلاً يبين لك بعض الشيء كيف يكتب ولز قصته ؛ هذا إلى أن هذين الفصلين اللذين تقدمهما يصوران كيف يدرس ولز الشؤون الاجتماعية دراسة العالم الرزين — وإن أخطأ في بعض النتائج — وذلك مصداق ما قدمنا في تحليل أدبه .

فنحن إذن نقدم إلى قراء العربية بهذا الكتاب صورة للكاتب الإنجليزي الذي يقرؤه العالم كله اليوم ؛ وهو ه . ج . ولز . وإن يكن متعذراً متعسراً ، بل يكاد يستحيل أن تصور هذه القطرة الضئيلة ذلك البحر اللامع المتلاطم إلا صورة غامضة .

والله ولي التوفيق .

زكى نجيب محمود

١٥ أغسطس سنة ١٩٣٨ .

الأغنياء والفقراء

وما بينهما من عداوة موروثية

١ — دراسات قصيرة في تحصيل الثروة أو محاولة تحصيلها .

« هتي جرين » كمثال لمن يجمع الثروة دون أن يضيف جديدا .

« شريف هسي كاسل » ، وأسرة روتشيلد ، والقروض الأهلية .

« كورنيليوس فاندربلت » ، وجاهي جولد ، وتقدم الطرق الحديدية

« ج . د . رو كفلر » ، وتنظيم إنتاج الزيت .

« توماس ألفا أديسون » .

« هنري فورد » .

« ألفرد لونستين » .

الأشخاص الذين جاوزوا الحدود المشروعة .

٢ — الأغنياء المعاصرون .

٣ — ما لطبقة الأغنياء من فوائد اجتماعية مسلم بها .

٤ — فكرة المساواة في الأجر بين الجميع .

٥ — هل يود الأغنياء المعاصرون أن يظل الفقراء على فقرهم ؟

٦ — الفقراء .

٧ — التناقض بين وفرة الإنتاج والعوز . الشراء الجمعي .

٨ — محاولة روسيا السوفيتية محو الأغنياء والفقراء على السواء .

٩ — الإنسانية بين الإصلاح والفوضى والثورة الاجتماعية .

١ — دراسات قصيرة في تحصيل الثروة

أو محاولة تحصيلها

قد التزمنا أن نبين أن النظام المالى لحياة الإنسان الاقتصادية مفكك غامض خطير غابة الخطورة ، وأنه لم يجتز مرحلة التجربة بعد ، وقد آلينا على أنفسنا أن نوضح أن المال لا يزال أداة ناقصة شديدة النقص لتقدير الخدمة الاجتماعية ، وأن تحصيل المال — الذى ينبغى لأسباب جليلة أن يكون نتيجة لازمة لما يُبذل فى الإنتاج من مجهود — قد يصبح فى كثير من الحالات عاملاً لا يتعذر أن يعوق سير التقدم للنظام الاقتصادى ، بدل أن يكون له قوة دافعة . ولقد رأينا كيف تؤثر الآلات بصفة عامة أثراً سيئاً فى عصرنا هذا ، وسنعمد الآن إلى سياق أمثلة فردية تبين مدى ذلك الأثر فى العصر الحديث ، فسنبسط أمام القارىء طائفة مختارة من ذوى الثراء المكسوب لتكون موضع بحثه .

وسنتخير من موضوعات الدراسة ما يوضح لنا قبل كل شيء أثر المِلْكِيَّة التى يسلم بها الناس عامة ، كما يوضح ما يتصل بالمال من نظم وآراء .

ودراسة أمثلة فردية لتحصيل الثروة ، باب من أبواب البحث الاجتماعى تزداد قيمته وخطره ، بحيث وجهت طائفة من مختلف الكتّاب^(١) عنايتها نحو هذه البحوث ، ولكنها ما تزال حتى اليوم عند المرحلة الإخبارية ، لم تعدّها ،

(١) مثال ذلك مؤلفات Richard Lewinsohn وهى « فى غزو الفن » و « زهاروف » و « تاريخ التضخم المالى » . فإن شئت دراسة أشمل فإن الأستاذ لاسكى Prof. Laski يوصى بقراءة تاريخ « الثروات الأمريكية الجسيمة » تأليف G. Meyers .

فلم تنسح دراستها ولم تعمق بعد ، بحيث يجوز لنا أن نزع القدرة على دراسة علمية ؛ وإذن فنحن حيال هذا الموضوع عند موقف نشبهه بالمرحلة البدائية التي كان يقف عندها التاريخ الطبيعى ، حين كان جمع « التحف » يمهّد الطريق لتنظيم شامل يتناول تنسيق النماذج فى أبهاء المتاحف .

هتي جرين Hette Green

كمثل لمن يجمع الثروة دون أن يضيف جديدا

سنضرب « بالمسز هتي جرين » أول مثال ، وهى من جاءت ثروتها العريضة بغير شك نتيجة للنظام المالى فى صورته الحاضرة . ولدت عام ١٨٢٥ فى « بدفورد الجديدة » ولقيت منيتها فى نيويورك فى سن الحادية والثمانين ، ولها من الثروة ما يربى بغير شك على ثلاثة عشر مليوناً من الجنيهات ، بل يجوز أن قد بلغت ثروتها نحو هذا المقدار مرة ونصف مرة ، وإذن نستطيع أن نتخذ منها مثلاً صريحاً لجامعى المال ؛ وقد أرخ حياتها « بويدن سباركس » و « صموئيل تيلور مور »^(١) فى مهارة بالغة ، وإليهما أعترف بالفضل ، فتاريخها ، كما يقولان ، هو فى جوهره تاريخ امرأة أوتيت نبوغاً فى تحصيل المال وجمعه والعجز عن إنفاقه ، فهى إذن مقياس دقيق جداً لتقدير المال كأحد الحوافز الاجتماعية فى ظروف العصر الحديث .

ودعك من شغفها بتحصيل المال وصيانته ؛ فقد كانت فيما يظهر امرأة فكهة نشيطة ، شخصها جذاب من بعض نواحيه ، بارعة غاية البراعة فى تدبير الدار

(١) انظر كتاب « هتي جرين ، المرأة التى أحبت المال » تأليف Boyden Sparks

و Samuel Taylor Moore

وتربية الأطفال ؛ ولم تكن لتأنف العمل في بيتها ، ولكنها جُبلت بصورة
في حدود نفسها ، مشغوفة بالتحصيل ؛ وقد عملت ظروف نشأتها على تنمية
حقدها ؛ واعتادت الشح منذ بدء حياتها ، ثم ازدادت ميلاً إلى الشح شيئاً
فشيئاً ، فكانت وهي في أوج نشاطها العملي تدثر نفسها في الشتاء بورق الجرائد
لتكفي نفسها مؤونة ثياب تحمية من الصوف ، وكانت تستأجر منزلاً رخيصاً ،
وتنتقل من مسكن إلى مسكن لتنجو من دفع الضرائب ؛ ولم يكن لها ما ترفه به
عن نفسها غير كراهية الناس ، فقد بلغ قدرها لنفسها إن أحبت الانتقام وكانت
تُزهي به ، وتميل إلى مجارة من يعترضون مشروعاتها التي ترتاب في نجاحها ؛
وهي ممن يحتضنون الموم ويتعقبونها ؛ وقد وقعت في إيذاء كثيرين حتى
أعدمتهم فقراً ، وسامت العذاب وكلا من وكلاها عثر جده معها فأوردته منيته ؛
وأما أنبل عواطفها خبها لابنها — وسنرى إلى أي حد كان ذلك الحب —

وكانت لا تتوانى عن تجريد زوجها مما يملك ، ثم قطعت أسباب عيشها معه
بحجة ميله إلى التبذير ، على الرغم مما كانت تُسكن له من حب لا ريب فيه .

وهي ابنة رجل قوى الشكيمة كان يشتغل بالتجارة والسفانة ، سلك في
حياته سبيل من هبطوا أرض إنجلترا الجديدة من جماعة الماهرين (البيورتان) ،
فطفق يجمع المال جمعاً موفقاً ؛ وكانت الابنة في مستهل حياتها فتاة جرئة
جميلة ، ولكنها سرعان ما انقلبت صفيقة الوجه ، تحذو حذو أبيها في اتهار
أمرها . فلما أرسلت إلى نيويورك لتقضى الشتاء فيها ، تزودت بمائتين وألف من
الريالات لتنفقها ، فأثرت أن تستثمر ألفاً منها في الأوراق المالية ، وما فتئت
من ذلك الحين تستغل مالها . نعم كان لها ما لكل فتاة من العواطف والغرور ،

ولسكنها اعتدلت في ذلك وكبحت زمام نفسها ؛ ولقد استجيت مُضيفتها في نيويورك من هذه النزيلة القذرة ، فابتاعت لها ثياباً جميلة تسير الطراز السائد ، ولسكن « هتي » ألفت بقلل الثياب جانباً لأنها أخفر مما ينبغي لها أن ترتدى . ولما ماتت أمها عاشت الفتاة مع عمّة عليّة ، فكان نصيب العمّة منها ما أصاب الأم من مخاشنة ، إذ كانت تثير أصخب المعارك لأتفه الأسباب ، كأن تشور لازدياد نفقات الدار ، أو تغضب إذا حالت العمّة دون إطلاعها على أوراقها الخاصة .

كانت الفتاة وريثة عمتها هذه ، كما كانت وارثة أبيها ؛ تخلف لها الأب ما يدنو من ألف ألف من الريالات ، كما خلف أملاكاً موقوفة أخرى ؛ وأما العمّة التي قضت نجبها وهي تملك ما يقرب من ألف ألف من الريالات فقد أوصت في الخفاء بما يدنو من نصف هذا القدر لمختلف أعمال البر ، ولم تورث « هتي » إلا ربيع ما تبقى من المال مدى حياتها ، فخاوت « هتي » أن تغض النظر عن هذه الوصية لتستولى على رأس مال عمتها بأسره ، ويلوح أنها لم تتعفف في ذلك عن التزوير والخداع والخنث في اليمين ، ولسكنها أخفقت مسعى ؛ وتزوجت بعد ذلك من المستر « إ . ه . جرين E. H. Green » ولم يكن يملك أقل من ألف ألف ريال ، فألت المرأة على نفسها أن تعمل على تنمية ثروتها وأن تنفرد في ذلك وحدها ، أما قضية الوصية فأنتهت باتفاق يتيح لها دخلاً يبلغ خمسة وستين ألفاً من الريالات في كل عام من رأس مال ثابت ، كما يهبها مبلغاً مدفوعاً قدره ستمائة وخمسون ألف ريال ، وهذا إلى قدر من المال يبلغ المليون ورثته عن أبيها وكانت ماضية في استثماره من قبل .

لبثت في أوروبا حيناً مع زوجها لتنجو بنفسها من الجو البغيض الذي أثارته

قضية الوصية (وربما أرادت أن تفلت مما قد ينجم من وخيم العواقب) وبينما هي وزوجها في لندن ، نزيلين في « فندق لانجام » الذي كان حينذاك أبعد الفنادق ذكراً ونخامة ، طفقاً في ذلك المستقر يعملان في المضاربات المالية بحزم وتوفيق ، فقد كان للزوج من المهارة التجارية حظ موفور ، وكان بادئ الأمر شديد التأثير في زوجته ، فلم يرض عليها بنصحه المفيد ، وهو الذي أغراها بالنزول في ذلك الفندق كما يتبين من تاريخها فيما بعد ، ولم يكن يشاركها فيما امتازت به من حب التحصيل المغلول ، فهو يضارب لينفق ، ولم يعتد الشح ولا عرف كيف يكون ؛ فمضى ينفق ما يملك وما يكسب ، ومضت الزوجة تكسب وتكسب ، حتى جمعت في حول واحد ما يربى على مليون وربع مليون ريال مما اشترته من سندات الذهب ، التي أصدرتها الولايات المتحدة ، وكانت لندن لا تدرى شيئاً ، أو قل لا تدرى إلا قليلاً ، عن الحالة في أمريكا ، فأخذ يساور النفوس شك عظيم في أن تتخلى حكومة واشنطن عن ضمانه هذه السندات ، ثم ازداد الشك حتى انقلب فزعاً في بعض الأحيان ، وحينئذ سنحت الفرصة التي كانت ترمى إليها « هتي » .

عادت أسرة « جرين » إلى أمريكا عام ١٨٧٤ ، وكان قد انقضى العهد الذي يجوز فيه للقانون أن يثير قضية الوصية من جديد ، وجاءت العودة في وقت تجتاح البلاد فيه ضائقة فيسهل الشراء بأبخس الأثمان .

وهاك عبارة اقتبسها « سباركس » و « مور » مما روته عن نفسها في شرح طريقتهما .

« أنا ممن يؤمنون بوجود الدخول من القاع والخروج من القمة ؛ وإني

لأحب شراء أسهم الطرق الحديدية أو عقود الرهن ، وإذا رأيت شيئاً طيباً يباع بثمن بخس لإعراض الناس عن شرائه ، ابتعت مقداراً منه لأخزنه ، حتى إذا ما حان حينه رأيت الناس يتعقبوننى ويدفعون لما أملك ثمناً غالياً ، ولدى مقدار كبير من الرهون العقارية فى الأحياء المزدهجة من المدينة ، وهى فى رأى لا تقل كسباً عن أى شىء آخر .

لست شديدة الإيمان بالأسهم ، ولا أشتري السلع المصنوعة أبداً ، ولست أحب الطرق الحديدية والضياع العينية ، ولا أجزم بوضع مالى فى شىء إلا إذا تقصيت كل أنبائه ؛ ليس تحصيل الثراء بالسر العظيم ، فما عليك إلا أن تشتري بخساً وتبيع غالياً ؛ وأن تكون فى عملك مدبراً دؤوباً ذا بصيرة نافذة .

ويضيف المؤلفان أنها سلكت هذه السبيل فى كل ما اشترته ، سواء أكان المشتري رهناً أم قدراً من البطاطس أم داراً أم جواداً ؛ أما طريقة إنفاقها المال فما أشبهها فى ذلك بلاعب رياضى لا ينقطع قط عن مرانه ، أعنى أنها لم تنفق شيئاً ، وكانت تتخذ من زوجها وكيلاً يخدمها بغير أجر ، فهو يمدّها بالطعام والثياب والسكن كما يفعل كل زوج مع زوجته ، ويرشدها بنصحه النافع البصير فى أولى أيام الحياة الزوجية ، فكان من جراء ذلك أن لم تنسرب من ثروتها قطرة واحدة ، بل نمت نمواً سريعاً ، وانتهى الأمر باستقلالها فى حياتها وأملاكها عن زوجها « جرين » وعما يملك استقلالاً تاماً ، وقضى الرجل آخر عهده بالحياة فى ندوة نيويورك شيخاً فقيراً متعطلاً .

أما هى فقد غدت شخصية بارزة يعرف فيها عالم المال بنيويورك تلك المرأة العجوز اليقظة القذرة ، تركب عربة مأجورة فتنتقل بها من مصرف إلى

مصرف ، ومعها أضيابها وحقائبها المترعة بأوراق المال ، فتغزو دور المصارف بـحَقَائِبِهَا المفعمة بالذهب لتكفي نفسها مؤونة السكاتب ونفقاتها ، فتستعير عمال المصارف لقضاء عملها ، وبذلك تستثمر ما كانت دفعته مقابل أداء أعمالها الأخرى ، فإذا لم تجرِ الأمور كما تشتهى أخذت تبكى وتولول وتصيح في صرخات مزعجة .

وليرجع القارئ إلى تاريخ حياتها الذى اقتطفت منه العبارة السالفة ، إن أراد تفصيلا أوفى لأخلاق هذه المخلوقة العجيبة ، كي يعلم كيف طمست زوجها طمساً تدرّيجياً حتى أغرقته فى إدارة شؤونها ، وكيف فخت بساق ابنها الذى أحبته حباً جمّاً لا ريب فيه ، إذ لم تُرد أن تستدعى طبيباً ، حين عطبت ساق ابنها على إثر سقوطه وهو ينزج ، فلما لم يسعفها علاج ناجع ، تلفت ولزم بترها ؛ وكانت تكسو ابنها ذلك وتكتسى هى بقذر الثياب لتظفر بنصح الأطباء وعلاجهم فى العيادات المجانية ؛ ولكن الأطباء استكشفوا أمرها ، وسرى النذير بينهم ليأخذوا حذرهم منها ؛ وهكذا جددت كفها عن استخدام إخصائى ماهر حتى مضى الوقت الملائم ، ويقال مع ذلك إنها عنيت بتمرّض ابنها عناية دقيقة . ووقفت له نفسها .

حسبنا ما أسلفناه فى وصف حياة هذه المرأة ، وإن أخص ما يعيننا هو أنها استطاعت أن تمضى فى حياتها تلك ، وأن تحتفظ رغم ذلك لشخصها بالتبجيل ، فقد كانت تزهى بنفسها ، رغم ما ذكرناه مما استباحته ، ولكن الآراء التى نشأت فيها ، والتى طغت على العالم من حولها ، كانت تبرر ذلك الضرب من الحياة .

لقد نشأت فى مجتمع يُعَدُّ تحصيل المال مقياس الحياة الراضية ، ويرى الفقر

عاهة أبشع عاهة ؛ فقصرت همها على نفسها مسيطرة في ذلك معايير الحياة من حولها ، ولم تجفل من أفدح التضحيات لترضى الآراء التي تتحكم في عقلها . ما دامت ترى في ذلك نفعاً عاجلاً ؛ فلو كانت ظروف الحياة أسعد من ذلك لجاز أن يتحكم في عقلها آراء تختلف جداً عن آرائها تلك ، فلم يكن بعيداً أن تكون مؤمنة متعصبة بالإيمان ، أو أن تتجه إلى البرِّ بكل نفسها ؛ أو لو كان المال بحق مقياساً صحيحاً للخدمة الاجتماعية ، لأمكن أن يكون حتى جهود كفها هذا باعثاً إياها على بذل الجهود العظيمة في سبيل المجتمع ؛ ولكنها كانت في تحصيلها جشعة ، وشت بشخصها قوة الإنفاق دون أن تشجع جانباً نافعاً من جوانب النشاط الإنساني .

لقد ضلت في حياتها قصد السبيل ، وإن ما يعنيننا من أمرها هو ضالها الذي زجها فيه نظامنا في حفظ المال وكوننا إلى التنافس في جمعه باعتباره معياراً لقيم الأشخاص ؛ ونحن إنما نسوق هذه المرأة في دراستنا للإنسان وروته لتنهض دليلاً على عجز النظام القائم في حفظ الأموال عن التأثير في النفوس ، وكان ينبغي للنظام المالى أن يكون أداة لحفظ الهمة وجزاء للمجهود المنتج ؛ ولكن ها نحن أولاء نشهد في وضوح جلى كيف يمكن لهذا النظام أن ينعرج مجراه بحيث لا يقصد إلا إلى الجمع العقيم ؛ وتلك هى النقيصة الكبرى في المال باعتباره حافظاً ، فقد رأينا كيف تسرب فيض المكاسب التي أنتجتها المدينة والطارق الحديدية فتمجمعت بين يدي هذه المرأة العجوز السكرية الجبارة التي لم تطمع في رقى ، بل لم تتخيل أن يكون في الحياة أجمل من حياتها وأشهى ؛ فسكانت تقاوم كل إصلاح يمس احتكاراتها وأوراقها المالية .

لم يكن بد من نمو ثروتها نمواً مطرداً ، إذ كانت دائنة دؤوبة قاسية ؛

ولم تقف زيادة ملكها وتكديسها بين يديها إلا الموت ، فلو قد كتب الخلود « هتي جرين » ، لبسطت يدها على العالم شيئاً فشيئاً حتى تتم لها السيطرة الاقتصادية ، ذلك إن اتبعت قواعد لعبة حفظ المال على وجه دقيق .

وكان قد نشأ عامل جديد حد من نشاطها ، إذ رخص المال بينما تراؤها ينمو ويزداد ، فأضافت ألوفاً إلى ألوف ، وأوشكت أن تكون في شارع وول Wall Street كأبطال الأساطير . ولكن حدثاً آخر أخذ في غضون تلك الحقبة يسير بخطى أسرع من سير هذه المرأة في أعمالها ، إذ استكشفت مناجم جديدة للذهب أخذ يتدفق نضارها تدفقاً غزيراً حتى كثرت أوراق المال وسارع الناس إلى قضاء ديونهم وزاد الإنتاج زيادة عظيمة ، فكان هذا التضخم الهائل في ثروة العالم أعظم من تحصيلها الفردي بدرجة لا تقع تحت الحصر ؛ فلو قد مضى العالم في هبوط الأثمان لاشتد خطر هذه المرأة واستفحل أثرها المميت ؛ ولكن النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، بما فيه من ثراء ومصادر تتدفق بالمال ، استطاع أن يحتمل « هتي جرين » دون أن يصاب الناس بكثير من الضيق .

شريف « هسي كاسل » وأسرة « روتشيلد »

والقروض الأهلية

كانت المسز هتي جرين نسيج وحدها ، فهي إنسان معتزل تملكته رغبة التحصيل بفعل الآراء السائدة في عصرها وبيتها عن الملكية والحياة الفاجحة ، فأزهزت في عالم صب عليها نغمته مع أنها صنيعته ؛ وكم بين الناس من نساء ورجال يشبهون « هتي جرين » في صورة مصغرة ، وهم أولئك الذين تجتمع بين أيديهم الأموال فتصاب بالعقم ! إنهم يحلون عن الحصر ، وإذن فلسنا ندرى

كم يبلغ أثرهم في القعود بالتقدم الاقتصادي على وجه العموم ؛ ولا يبعد أن تجد في العالم ألوف الثروات الضائلة التي تتصف بنفس الخصائص التي عرفناها في ثروة « هتي جرين » .

وسنعمد الآن إلى بحث جمع المال الذي يقوم على أساس أوسع من ذلك ، فنتناول بالدرس تلك الأسرة العظيمة التي عرف أبنائها بتحصيل المال واستثماره . وهي أسرة روتشيلد .

ويعود بنا بدء قصتهم إلى ماضٍ سحيق يمتد إلى ما قبل أيام « هتي جرين » الأولى ؛ فيقع تاريخ هذه الأسرة في عهد سبق إنشاء الطرق الحديدية ، وسلف استكشاف الذهب في منتصف القرن التاسع عشر ، فقد بدأت في عصر كان الذهب فيه محدود الموارد ، وأوشك التحصيل حينئذ — تحصيل الضياع أو المعدن الذي يملك زمام الأسواق — أن يكون السبيل الوحيدة للقوة والثراء ؛ فلم تكن وسائل الغنى المعروفة إذ ذاك سوى امتلاك الأرض ، وتوفير المال ، والربا ، فإذا ما توفر لديك المال سعيت إلى الاحتكار ، فيصبح ذو الحاجة في قبضتك . وفاتحة القصة أمير يبيع الرجال ويقرض المال ، وتاجر يهودي يبيع الأحجار الكريمة يبيع الحكيم ؛ ثم امتدت على الدهر حتى أدركت العصر الحديث ، حيث أخذ استثمار المال في المشروعات الصناعية العظيمة يقوم مقام استغلاله في قروض الدول المتحاربة .

كان أبناء روتشيلد تجاراً يهوداً يتاجرون جملة ، ويقيمون في حي اليهود بفراנקفورت ، وقد كتب لهم التوفيق ، ولكنهم لم يبلغوا من الثراء مبلغاً يستوقف النظر ، حتى جاء « ماير أنسلم روتشيلد » في النصف الثاني من القرن.

الثامن عشر ، وكان مشغولاً بشؤون النقد ماهراً في تجارة الأوسمة والأحجار الكريمة فيما مهر فيه ، وكانت البلاد إذ ذاك تنقسم دويلات صغيرة تستخدم عملات متباينة ، فأفاد بعلمه بالنقد ، وبما كان يسديه من نصيح إلى معاصره « الكونت هانادنتزج » الذى سرعان ما أصبح شريفاً «لـس كاسل» ، وقد كان للشريف حق بيع رعيته ، فباتت الأجساد البشرية من أهم ما تصدره «لـس كاسل» ، إذ كان يعد رعيته جنوداً ، ثم يبيعهم فيلقا فيلقا للدول الأجنبية ، وللا حكومة الإنجليزية بنوع أخص ، لتستعين بهم فى حربها مع مستعمراتها بأمريكا الشمالية إذ ذاك ، فإذا قتل أحد رجاله أو أصيب بعطب ، عوضته الحكومة المستأجرة عن الخسارة ، دون أن ينبئ الجرحى أو أسرى القتلى بالقدر المدفوع على وجه الدقة . وورث الرجل ثروة عريضة إذا قيس بمقياس ذلك العهد ، وكاد يبلغ به الشح حد الجنون ، وعرف بحذقه فى الشؤون المالية ؛ وكان لروتشيلد عنده ثقة وطيدة ، فاستخدمه وكيلاً عاماً ، واتخذ منه حليفاً وشريكاً فى مختلف الأعمال ، فأقرض الرجال حكومات الدانمارك ، وهس دارمستات ، وبادن ؛ وقد كان لروتشيلد من قبل ، فى مستهل عصر نابليون ، ثروة ضخمة ، فلما اضطر الشريف إلى الفرار من وجه نابليون عام ١٨٠٦ ، استطاع روتشيلد أن يستعين بأصدقائه من أصحاب المصارف بفرانكفورت فى أن يخلص له الجزء الأعظم من ثروته .

مات «ماير أنسلم روتشيلد» عام ١٨١٢ ، وخلف وراءه امرأة متينة الخلق وخمسة أبناء ، فضى المتجر القديم فى طريق النجاح ، وأخذ يتسع المصرف الجديد ويقول «لونسهن»^(١) أن قد تضافرت البنات العوانس والأبناء وزوجاتهم على

(١) انظر كتاب « غزوة الفنى » لمؤلفه Lewinsohn .

العمل في التجارة ، فكان أحدهم صيرفياً ، وارتحل الباقون يؤدون بأنفسهم أعمال تجارتهم العامة .

أما « ماير أنسلم » الشيخ فقد باع تجارته لبننيه الخمسة قبل وفاة بعام أو ما يقرب من العام ، وأوصى بثمان البيع لزوجته وبناته ، وهو في ذلك إنما ينفذ مبدأ أساسيا من مبادئ روتشيلد وهو أن تحتفظ الأسرة لنفسها بالمال كله ، وأن تكون الرقابة لها وحدها ، لذلك لم يشرك أزواج بناته في الربح ؛ ولقد كان هذا المبدأ بعينه أساس الزواج بين أبناء الجيلين الثالث والرابع من أجيال الأسرة ؛ ولكن هذين الجيلين الآخرين لم يضيفا إلى الجدارة التجارية التي أمتاز بها أسلافهم قوة جديدة .

ولما أدرك الأب منيته ، كان الأبناء قد طفقوا يضربون في ربوع أوروبا ، فاتخذ أنبغهم « ناتان ماير روتشيلد » مقامه في إنجلترا ، واسكى ييسر صلته التجارية بالقارة الأوروبية ارتأى لأخيه « جيمس » أن يقيم في باريس ؛ ولعل رغبتهم في أن يطوحوا بأنفسهم في البلاد الأجنبية ، وما كان ير بطهم من صلة الرحم القوية ، قد أكسبوا أسرة روتشيلد مالها من قوة ، وهيأت لها ماسنح من فرص ؛ فقد وثق بعضهم ببعض خلال ما نشب من حروب وغزوات ، وما ضرب من حصارات ، وما حدث من تغير في الحكومات ؛ وكانت تستحيل تلك الثقة على منافسيهم من جماعات الموسرين والتجار ؛ فقد استطاعوا أن يزود بعضهم بعضا بأخطر الأنباء وأصدقها ، تلك الأنباء التي كانوا يدبرون جمعها في دقة بالغة ، حتى أنشأوا فيما بعد نظاما للتراسل ، إذ تبينوا فيما بعد ما يفيدونه بذلك رغم ما يكافهم من فادح النفقات ، فضمنوا بذلك كتمان عملهم لثلاث تفيده سائر الشركات في أوروبا من أنبائهم ، ولم يستخدموا البريد أو حقائب السفارات في تراسلهم ، إلا إذا

تبادلوا من الوثائق ما يريدون أن تطالعه الحكومات في ذلك الحين ؛ كذلك مكنتهم هذه الثقة المتبادلة أن يغمس كل منهم في حياة البلد الذي اختير لمقامه ، فيستوطن ويستعمل ما يحقق صالح الحكومات ، على ألا يتعارض ذلك طبعاً مع صالح أسرة روتشيلد خاصة أو اليهود عامة . ولقد أيقنوا أنه إذا لم يصبهم النجاح جميعاً في ظل ذلك النظام ، فلا أقل من أن يصيب واحداً منهم ، فيكون له من قوة موقفه ما يعين به الآخرين ؛ ويروى عنهم فوق ذلك كله أن أحداً لم ينفذ قط خطة أخيه في العمل .

والمثل أوضح مثل يساق لهذا التعاون الدولي هو الخطة التي استطاع بها «ناتان» في لندن و «جيمس» في باريس ، أن يُمدَّ «ولنجتن» وهو في «شبه الجزيرة» بما يتطلبه من المال لجنوده ؛ وكان «ناتان» قد جمع ثروة عظيمة من التجارة حين مهد له أبوه أن يتولى في إنجلترا أعمالاً مالية هامة نيابة عن الشريف الذي وضع بين يديه ، في فترات قصيرة ، مالا كثيراً يشتري به ذهباً وفضة ليرسلها خلسة عبر «المنش» إلى فرنسا ؛ فأيقن أنه يستطيع أن يربح من ذلك ربحاً جماً ، إذا أذنت الحكومة الفرنسية لرسائله بالدخول في بلادها ؛ ولكي يظفر منها بذلك الرضا ، أوصى أخاه جيمس بالسفر إلى باريس ليقابل أولياء الأمر ، وكان الحصار القارى مضروباً إذ ذاك ؛ ولكن نابليون قد تبين أنه إن لم يأذن لحلفائه بمقدار محدود من التهرب بينهم وبين إنجلترا ، فسيفقد صداقتهم ؛ ولذا استطاع جيمس أن يستصدر أمراً يبيح له أن يتسلم رسائل أخيه ، إذ زعم أن الإنجليز شديداً الرغبة في ألا تتسرب المعادن الثمينة من بلادهم ، وكان الإنجليز يتمنون حقاً أن يصل مدد المال إلى ولنجتن ، فنجح جيمس في أداء ذلك نجاحاً مطرداً ، وذلك بفضل ما كان لأسرة روتشيلد من صلات ، فاشترى

صكوكا مالية على أصحاب المصارف في جنوبي أوروبا؛ ثم أحست إنجلترا فيما بعد عجزا ماليا ، فأفاد « ناتان » من ذلك أرباحا جسيمة ، أولا بأن عرف أين يشتري الذهب الذي يبيعه للحكومة الإنجليزية ، وثانياً بأن تعهد بنقله إلى جنودها في الخارج ، وقد وفق كذلك في العبور إلى هولنده ، حيث ابتاع جميع الأموال الفرنسية التي غمرت القارة الأوربية ، ونقلها إلى أسبانيا بمعونة أخيه في باريس .

ولقد كان وزير المالية في إنجلترا يعلم علم اليقين ما أسداه « ناتان » لهم من خدمات ، فانهز « ناتان » هذه المنزلة الجديدة ، وعرض على الفور أن يعهد إلى أسرة روتشيلد بإرسال جزء من الإعانة المالية الإنجليزية إلى النمسا ، وكان أجر تحويل تلك الإعانة من إنجلترا غاليا جدا في ذلك الحين ، حتى أن « مترنخ » قدر ما يفقده في تحويل العملة وفي الوساطة وأجور المصارف بما يبلغ ثلث المجموع — مليونين من ستة ملايين — قبل أن يصل المال إلى يده ؛ وطبيعي أن تود الحكومة الإنجليزية لو أن ما ترسله من المال ينفق منه على صيانة الجيوش النمساوية أكبر قدر ممكن ، فرحبت بأسرة روتشيلد حينما عرضت أن تؤدي العمل دون أن تلجأ إلى تحويل العملة ، ودون أن يتعرض المال في نقله إلى النمسا للخطر ؛ ولكن النمساويين في ذلك العهد آثروا أن تتولى شؤونهم إدارة سيئة من نمساويين مسيحيين ، على أن يديرها يهود أجانب إدارة نزيهة حكيمة .

ولكن شركة روتشيلد على الرغم مما لقيته من مقاومة ، أخذ ينتشر ذكرها في أرجاء أوروبا ، لاسيما « ناتان » الذي ازداد اسمه ذيوعا ، حتى أحيط بشيء من عجائب الأساطير ، وذلك حين أتاه وكيل من وكلائه نبأ النصر في واقعة

ووترلو ، قبل أن يبلغ الخبر الرسمي إلى الحكومة البريطانية بيوم ، فذاع أن « ناتان » قد بلغه النبأ في رسالة حملتها له حمامة خفيفة من الحمام الزاجل ، أو أنه استقاه بنفسه وعبر به المنش في عاصفة هوجاء ؛ وهكذا كان يبني ثراه الذي لا يحده الحصر بإذاعة الأنباء في سوق الأوراق المالية بلندن ، ولو كان الأمر — كما يحتمل جدا أن يكون — معتمدا على نشره الأنباء المبكرة على هذا النحو لما استطاع أن يجمع إلا مقدارا ضئيلا جدا بالنسبة لما حصله من الثراء العريض ؛ ولكنه في حقيقة الأمر كان يسارع بتلك الأنباء إلى الحكومة فلا تؤمن بها ، حتى إذا كان الغد تبين لها صدقها .

ثم منحت لأسرة روتشيلد فرصة طيبة في إصلاح الاضطراب المالي الذي أعقب واقعة ووترلو ؛ وأول ما يذكر في هذا الصدد أن نقل التعويض الحربى الذى فرض على فرنسا كان يحتم العبور فى أوروبا المضطربة ، ومعنى ذلك أن الأموال والسبائك كان لابد لها أن تنقل بذاتها إذا قام بالأمر وسيط سوى روتشيلد ، وفى ذلك ما فيه من الخطر ، وإذن فقد كانت أسرة روتشيلد وحدها فى موقف يمكنها من اليقين القاطع بأنها فى مأمن من الخسارة ، إذ كان فى مقدورها دون غيرها أن تحول الأموال إلى حيث شاءت ، بغير أن تضطر إلى نقل الأموال بذاتها ، فعهد إلى أبنائها على الفور بنقل ما يربى على عشرين مليوناً من الجنيهات ، وتقاضوا على عملهم الموفق أجراً قدره واحد ونصف عن كل مائة ، وشكرهم وزير إنجلترا شكرا حارا ؛ هذا إلى تحقيق ما تمنوه من امتداد عملهم إلى النمسا التى كانت حكومتها إذ ذاك تنوء تحت ديونها للمصارف النمساوية ، فلم يكف أن توافق على أن يتولى أبناء روتشيلد نقل نصيبها من التعويض ، بل جاوزت ذلك ، فأذنت لهم أن يقرضوها مبلغا جسيما يُردُّ لهم فيما

(٢ — ولز)

بعد . ونجح أبناء روتشيلد في أداء تلك الأعمال نجاحا حذا بالإمبراطور — بعد رجاء ملح — أن يخلع ألقاب الشرف على الإخوة جميعاً إلا « ناتان » ؛ فلقد تبين وزراء الحكومة النمساوية حسن التعامل مع هذه الأسرة التي كانت تنجز عهودها وتؤدي عملها في غير اضطراب ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، والتي جاهدت أن تفرغ رسائلها في عبارة يقرؤها الوزراء وتفهمها العامة ، حتى انتهى الأمر بالحكومة النمساوية أن نقضت ميلها للمسرف حيال المذهب الكاثوليكي ، وأرسلت تدعو « سليمان » ليؤسس فرعاً للشركة في فيينا ، وطلبوا إليه أن يدبر قرضاً بأوراق النصب قدره مليونان من الجنيهات النمساوية . وكان الأخ الأكبر « ماير أنسلم » (ماير أنسلم الثاني) حينئذ مقيماً في فرانكفورت ، وأقرض في الوقت نفسه ملايين عدة لبروسيا ، وسرعان ما أقرض الفرعُ الثماني الجديد روسيا ستة ملايين من الجنيهات ؛ فالحكومات كلها في ذلك العهد كانت في حاجة إلى المال على نحو لم تعهد له نظيراً فيما سبق ، وإذن كان لأسرة روتشيلد أن تملئ من الشروط ما تشاء ، وأن تختص بقروضها ما تشاء من الدول التي بسطت أكتفها للاستدانة ، وكذلك كان الأشراف في بروسيا والنمسا في حاجة إلى المال ، فظفر فرعاً فيينا وفرانكفورت من فروع الشركة بربح من القروض الخاصة أيضاً .

وتم للإخوة اقتسام أوروبا بينهم حين أرسل « مترنخ » « شارل روتشيلد » إلى نابلي حيث كانت النمسا تقمع ثورة أهلية ، وطلب إلى شارل أن يدبر المال الذي فرضه الظافرون على أهل نابلي ، وأن يمثل صالح النمسا في ذلك الإقليم . ولكن شارل كان ابناً خالصاً من أبناء روتشيلد ، فأثر الوجهة المالية على الحازبية ، وأخذ يندمج في البلد الذي استقر فيه ، ويقاوم استمرار الاحتلال النمساوي

ومطالب النمسا الباهظة ، وأقرض تلك المملكة الصغيرة مالا كثيرا ، متصديا لاحتمال التبعة بنفسه ، ليقم الحالة المالية في نابلي على أساس جديد ؛ فلما تبين عجز حاكمها عن الإدارة الحازمة ، أرغمهم إرغاما على قبول نائبه وزيرا للمالية ثم أدخل على أمورهم بعض التعديل ، وظفر لهم من إنجلترا بقرض ، لحسن اسمه حتى انتهى به الأمر إلى منصب لم يكن يتوقعه أحد ، إذ اختير مديرا لأموال البابا !

وكان « جيمس » قد أنشأ في الوقت نفسه مصرفا في باريس ، حيث الحاجة إلى القروض لا تقل عنها في أى مكان آخر ، فلم يلبث أن أصاب التوفيق حتى أصبح أغنى رجل في فرنسا بعد مليكها ، وقد قال له « مترنخ » : « إن أسرة روتشيلد تلعب في فرنسا دورا أخطر جدا مما تقوم به أية دولة أجنبية أخرى ، وقد نستثنى من ذلك إنجلترا وحدها » . وكان بيت روتشيلد إذ ذاك أعظم جماعة مالية في العالم ، وأخذ ثراؤه يزداد مدى العشرين عاما التالية على أقل تقدير .

ولست تقتضينا الغاية من هذا الكتاب أن نتعقب تاريخ هذه الأسرة في تفصيل أدق مما ذكرنا ، فإن أسلوبها لم يتغير ، ولم ينجب جيلاها الثالث والرابع شخصيات بارزة ، وظلت على وجه العموم بعيدة عن ميدان العمل الحقيقي في العصر الجديد ، عصر الانقلاب الصناعى في أوروبا . نعم إن « سايمان » في النمسا قد أعان على إنشاء الطرق الحديدية ، وعنى بالمناجم ومصانع الأنعام ، ولكنه لم يكن في تأييده لهذه المشروعات إلا رجلا ماليا — فلم يمل به هواه إلى تنظيم صناعة عظيمة من جانبها الفنى ؛ كذلك اشترى أبناء روتشيلد المقيمون في فرنسا منابع الزيت في روسيا ، ولكنهم باعوها عام ١٩١١ لشركة هولندية The Royal Dutch Shell group ، وإذن فأسرة روتشيلد تتاجر في المال أولا وآخرا ،

ولم يكن لها عدا ذلك إلا صالح واحد نبت بغتة ؛ فإن رأيهم يلتمسون الألقاب ويشقون طريقهم في الحياة الاجتماعية بالعواصم الأوروبية ، فما ذاك إلا سبيل للزلفى اضطروا إليه اضطراراً ، إذ يستحيل بغير الألقاب أن يتصلوا بالأشراف الذين احتكروا مناصب الدولة اتصالاً مباشراً ؛ فإن كان « ماير أنسلم » الكبير قد سلك في الحياة سبيله بدرايته في النقود والجواهر ، فإن أبناءه قد رعو الفنون بهذه الروح نفسها ، فاتخذوها وسيلة للحصول على ما يسميه الأمريكيون « صلات مباشرة Contacts » وكان رئيس الشركة في فرانكفورت يحيا حياة الطبقة الوسطى ؛ أما جيمس في باريس فأخذ بنثر المال نثرًا من نوافذه ، ولم يفعل ذلك ليستمتع ، بل ليحقق غايته — ثم قنع الخلف بالثروة ولم يكن لهم رأى جديد في استخدامها أو إنفاقها .

لم يعد أبناء روتشيلد يملكون زمام المال في أوروبا ، وليست علة ذلك نكبة أو فشلا — فهم من حذقهم بمأمن من ذاك — ولكن لأن ما استكشف من الذهب في القرن الماضي قد تدفق في مسارب جديدة نجمت عن إزهار الصناعة ، فلم تعد الثروة مقصورة على كبار الأغنياء وحدهم ، بل نشأت ألوف الألوف من الثروات الصغيرة في أيدي الطبقة الوسطى ، وبذلك أتيح للناس أن يؤسسوا مصارف المساهمة التي علا كعبها في استخدام المال . وإن العالم اليوم ليحوى مقداراً عظيماً جداً من المال بحيث يستحيل على أسرة واحدة أن تسيطر عليه بمواردها سيطرة ذات شأن . فلئن كانت أسرة روتشيلد قد أثبتت على « مترنخ » قرضاً فخالت دون إعلانه الحرب على بلجيكا ، فإن ذلك يستحيل اليوم ، إذ لو وقع مثل هذا في عام ١٩٣٠ لتقدم عشرة ملايين من صغار المومنين بما رفضت أسرة روتشيلد إذ ذاك أن تقدمه .

ولنعد الآن إلى العمل الواحد الذى أنجزوه غير مأجورين ، والذى سبقت الإشارة إليه — وهو تعضيدهم لإخوتهم اليهود ، فلقد استخدموا من أول الأمر ما لهم وميلهم لصالح اليهود فى فرانكفورت أولا ، ثم لصالح اليهود أينما حلوا ؛ ولا تزال الأسرة تحتفظ بهذا التقليد إلى يومنا هذا . ومن اليسير أن نعلم هذه الرغبة فيهم ، وذلك أنهم إذا حرروا اليهود فإنما يخرجون أنفسهم ، وسيستردون ما ينفقون من مال بفضل تعاون اليهود الذى يقتضيه فعل المعروف ؛ ويظهر أن ولاء هؤلاء الأعلام نحو بنى جنسهم كان ميلا غريزيا فيهم كاتحادهم الأسرى وذايهم فى العمل ، على الرغم من أن رسائلهم ووسائلهم العملية لا توحى للباحث بهذا الرأى .

ترى لو لم يحى روتشيلد إلى الوجود ، أفكان الناس يزدادون يسرا أم عسرا ؟ ليس لهذا السؤال جواب قاطع . فلقد جمع أبناء هذا البيت ثروة ضخمة — بل ثروات ضخاما — وكانوا يتقاضون الربح بنسبة عالية جدا ؛ ولئن عاونوا بعض الدول فقد دفعت تلك الدول ثمن المعونة غاليا ، ولكنهم من ناحية أخرى كانوا يعملون فى نشاط جم حتى كسبوا ما كسبوا ، وأدوا كثيرا من الخدمات الجليلة . ومع ذلك فمن اليسير أن نجد جوانب كثيرة للنقد ، فقد فرضوا ربحا أكثر مما كان ينبغى لهم أن يفعلوا ؛ وما انفقوا يؤيدون الحركات الرجعية ولو أنهم كانوا يلبسون لسكرال لبوسها ، وأفسدتهم الثروة فاستخدموا ما لهم وذكاءهم فى الظهور دون أن يؤيدوا المبادئ السامية وحركات النهوض إذا استثنينا ما فعلوه لتخفيف ويلات اليهود ؛ ذلك إلى أنهم كانوا أول من مارس العمل فى سوق الأوراق المالية فى نطاق واسع ؛ وآخر ما ترويه عنهم أنهم لم يتبعوا العلم فيما عملوا وما يعملون ، ولم يتقدم واحد من أبناء روتشيلد فى الضائقة المالية التى

أعقبت الحرب الكبرى ليضيف إلى العلم النظرى — الذى يضعه الاقتصاديون اليوم موضع البحث — تلك المعرفة الغزيرة التى لا بد أن تكون هذه الأسرة قد حصلتها ، فقد كان من الجائز أن يكفينا رجل واحد من هؤلاء شر الزلل فى ألوف الأخطاء وبذلك ينفع الناس نفعا عظيما يحل عن التقدير .

ولسكننا يجب أن نصفهم بذكر حسناتهم هذه ، فهم أمناء ، قد استخدموا أساليب العصر لبلوغ غايتهم ، وإذا وعدوا أنجزوا ، ولم يعرف العالم قبلهم أحداً فى مثل نراحتهم البالغة حدا عظيما فى هذا الضرب من الأعمال المالية التى تتداولها أيد كثيرة فى مثل عصرهم المضطرب ، ولم يكتفوا بحفظ عهودهم ، بل خلقوا مبدأ الشرف فى الأمور المالية ، وابتكروا أساليب مالية سديدة أذاعوها فى القصور وما إليها من الأمكنة التى لم يكن الشرف فيها جديراً بالتفكير والعناية ؛ ولما كان الخداع سيئة تهتأ أركان المجتمع هذا ، كان طابع الشرف الذى وسمت به أسرة روتشيلد الأمور المالية ، خطوة فسيحة فى سبيل التقدم الاقتصادى فى العصر الجديد ؛ أما هل كان يمكن أن تتم هذه الخطوة دون أن يُبَهِّظَ المجتمع بما كُلفه فى سبيلها من ثمن ، فسؤال متروك للتاريخ وحده . إن أعمالهم كلها عادلة تبرها مقاييس العصر .

كورنيليوس فاندربيلت ، وچاى جولد

وتقدم الطرق الحديدية

Cornelius Vanderbilt, Jay Gould

سنتجه الآن شطر رجلين أنفقا حياتهما فى تحصيل المال ، وخير دراسة لهما أن يبحثا معاً ، لما بينهما من تباين وخلاف ، فقد كانا يعيشان فى عالم مالى واحد ، ولعبا لعبتهما على مائدة واحدة ، غير أن « جولد » كان يقصد إلى

كسب المال قبل كل شيء ، أما « فاندربلت » فكان أعقد ميلا ، وأعمق فكريا ، وأحسن خلقا . على أن الرجلين كليهما لم يكن لهما من ضميرهما رادع إذا ما استلزمت الحال رشوة قاض أو شارع ؛ وكلاهما لم يقتصر في الثروة على مجرد الشراء البخس والبيع الغالي ، وعلى القرض والربا ، بل حصلا ما حصلاه بكثير جدا من وسائل النشاط وأساليب الافتئات ، ولكنهما بذلا مع ذلك مجهودا متشعب الجوانب في استبدال وسائل النقل الجديدة بالأساليب القديمة ، وتلك الحقيقة هي أساس التاريخ البشرى في منتصف القرن التاسع عشر .

فقد شهد ذلك العهد استحداثا شديدا للإنتاج الصناعي ، لما استكشف من موارد الذهب الجديدة في كاليفورنيا وأستراليا وغيرها . ومعنى ذلك ارتفاع الأسعار وانخفاض قيم الديون ، والنتيجة أن يخف العبء عن المدينين ، ويحول الضغط عن ميدان العمل ، فأينما نشأت المشروعات ألفت المال سهل المال ، وصادفت سوقا نافقة ؛ ونخص بالذكر مشروعات الخطوط الحديدية والبواخر التي افشرت انتشارا سريعا ، وكانت القوى للمادية ، وحاجات المجتمع كلها تبعث على سرعة اصطناع وسائل النقل الحديثة في أرجاء الولايات المتحدة بأسرها ، ولكن الناس لبثوا بادية الأمر يميلون إلى استخدام القطر الحديدية في نقل الأحمال الثقيلة وحدها ، وفي المسافات القصيرة المدى ، وقبلما أدركوا النتائج الرائعة التي يحتمل بلوغها من استخدام القطر البعيدة المدى التي تعبر القارة من أقصاها إلى أقصاها ، فقد جاء ذلك في عهد متأخر جدا ، حتى فوت التأخير في إدراك هذه الحقيقة إمكان التقدم السريع . وإذن فتقدم الخطوط الحديدية تبدأ قصته بظهور مجموعة من خطوط صغيرة كان ربطها معا في شبكات من ذوات المدى الفسيح يقتضى عملا جسيما وصفقات كبيرة وجهادا

عسيرا ، ليمت انتزاع الطرق الحديدية وما يلحق بها من أناس هم أعجب الناس خلقا ، أقدموا على شذوذهم العجيب بسبب تهاون نظام الشرطة والقضاء في كثير من الولايات على القبض على رجال ذوى جرأة وعزم ، وعرفوا متى يتبعون الأساليب العنيفة . وقد أدى وصل الشبكة الحديدية في أمريكا إلى شهرة رجال أمثال « مورجان » ، و « هاريمان » وغيرهما ، ولكننا سنلقى بهذا البحث ضوءا على « چای جولد » و « فاندربلت » .

كان « فاندربلت » أسبق من زميله وأقدر منه وأعظم ، ولكننا مع ذلك سنبدأ بدراسة أصغرهما « چای جولد » ، فذلك أنسب لغايتنا التي نقصد إليها . ولد « چای جولد » في « رُكْسِيرى » في ولاية نيويورك عام ١٨٣٦ ، وهو سليل أسرة إنجليزية جلييلة ، فنرى بين أسلافه « ناتان » و « هابيل » و « إبراهيم » كما نيم مظهره وبنيته على أصله العبرى . ويقول مؤرخ حياته « المستر روبرت إرفنج وارشو^(١) » إن ثم دليلا صغيراً غير هذا يدل على منبته اليهودى ، فأبواه كانا فقيرين فقرا مدقعاً ، حتى عانا بمرضه طوال حياته أثر الناقة التي لقيها في طفولته ، ولكن تربيته الدينية لم تكن متأصلة فيه على الرغم من أنه كان أحد الموسرين الأمريكيين .

لقد اضطر إلى أشق العمل في مزرعة أبيه الصغيرة ، ولم يلبث في المدرسة إلا عاما واحدا ، وفق بعده إلى عمل في متجر ريفي كان يشتغل فيه من الساعة السادسة صباحا حتى العاشرة مساء ؛ وقد روى عن نفسه فيما بعد أنه كان يستيقظ

(١) Mr. Robert Irving Warshaw وهو مؤلف كتاب چای جولد ، أو تاريخ

ثروة ؛ ومنه اقتبسنا كثيرا من حقائق هذا الفصل .

في الساعة الثالثة ليدرس الرياضة والمساحة ، وأنه تبين إذ ذاك حقيقة قوية دامت معه ، وهي أن واجب الفرد أن يعنى بنفسه وأن يترك للناس عنايتهم بأنفسهم . ولما بلغ السابعة عشرة من عمره استُخدم رساما للخرائط ، فعمل بادي الأمر في شركة انتهت أمرها إلى الإفلاس ، فأخذ يشتغل لحسابه الخاص وأصابه التوفيق على وجه الإجمال ، وطفق أهل الإقليم المجاور يتحدثون عنه ويعدون له شابا يرجي منه . ولعل أكبر حسنة أفادها من مساحته الأرض ، أنه أخذ ينتقل في عمله من ميدان إلى ميدان ، كما أتيج له أن يخدم بعض الأثرياء ، حتى حاول أن يصل أسباب الود بينه وبين أحد هؤلاء — وكان دباغا للجلود ثريا — ترك العمل لشيخوخته ، فبلغ الود بينه وبين ذلك الرجل واسمه « زارك برات » مبلغا من الإخلاص حدا بالشيخ في نهاية الأمر أن يقيم الشاب على مدبغته ، بحيث يكون الرجلان شريكين متساويين ، فيؤدى « جولد » العمل ويقدم « برات » رأس المال الذى بلغ مائة وعشرين ألف ريال . فاتهز « جولد » هذه الفرصة وجاهد في نجاح المدبغة ، وسرعان ما عرف فيه تجار الجلود في نيويورك رجلا حاذقا في ميدان العمل ؛ ولكن لسوء حظ « برات » المنكود ، كان جولد ممن يرون استحالة أن يكون المرء أمينا ، فلم تعف يدها عن سرقة المال . وفي غضون سنة واحدة ، أدرك الشيخ أن من آواه في كنفه قد دلس الحساب ؛ فلم يرفع أمره للقضاء ، واكتفى أن يخيره إما أن يشتري حصته مقابل ستين ألفا من الريالات ، وإما أن يبيع هو حصته ؛ فذهب « جولد » إلى نيويورك ، وسرعان ما وجد بها ثريا وقورا ، يتجر في الجلود ، يدعى « لوب » آزره بالمال ، وبذلك تنجى « برات » بعد أن فقد بسبب كرمه ستين ألف ريال .

ولم يمهل الموت « لوب » حتى يحزن لما أصابه من شريكه . فقد حدث

بعد أعوام ثلاثة أن اجتاحت البلاد ضائقة مالية نشأ عنها اضطراب في الأعمال ،
وحيثئذ علم الرجل أن « جولد » كان يستخدم اسمه في شراء مقدار كبير من
الجلود يمكنه من احتكار هذه السلعة ، فصعق وأشفق مما قد يلحق به من العار
فأطلق على نفسه الرصاص ، وهكذا مات الحسن الثانى ، وترك « جولد »
يمازح الورثة على إدارة المديفة . وانتهى الأمر بين الخصمين إلى حرب حقيقية
بين فريقين مسلحين ، وسعى « جولد » فيما يظهر ، أن يستعين بصهر « لوب »
(زوج ابنته) في بعض تفصيلات الاتفاق بعد أن جاهد كل فريق أن يستولى
بالقوة على المديفة ، وكتب النصر لجولد وفريقه ، وكان يتألف من خمسين
محارباً ، غير أن خصمه حاول وقف العمل ، بأن أقام الدعوى عليه ، فاضطر
« جولد » إلى مغادرة المكان وسافر إلى نيويورك ومعه بضعة آلاف الريالات
التي استطاع أن يحتفظ بها .

ولم يكد يحل بملك المدينة حتى صادف من فوره رجلاً ثرياً وصل بينه
وبينه حبلى الصداقة ، وكان الثرى في هذه المرة بدالاً يدعى « فليب مار »
وقد ترك « جولد » في نفس الرجل أثراً حسناً ، فلم يتردد في مصاهرته ؛ وكان
الزواج هائلاً جداً فيما يبدو ، إذ يظهر أن « جولد » يمتاز في خلقه بعاطفة رقيقة
ادخرها لداره فقط . وكان « مار » يملك إذ ذاك مقداراً كبيراً من أسهم لا قيمة
لها في خط حديدى مهجور ، خط يمتد بين رنلاند وواشنطن ، فاقترح « جولد »
الذى كان متعطلاً إذ ذاك ، أن يقوم بفحص الخط ليكتب تقريراً بما يرى ،
ويتمد الخط في ريف كان قد درسه « جولد » في إحدى رحلاته التي كان
يمسح فيها الأرض ، فأدرك أن النجاح محتمل له ، ونصح صهره أن يبتاع حق
إدارته ، فتم ذلك وعين « جولد » رئيساً ، وكاتماً للسرى ، وأميناً للصندوق ،

وملاحظا . ووفق في مدى شهر قلائل أن يبيع نصيبه في ذلك الخط الحديدي
خط مجاور له بمائة وثلاثين ألفا من الريالات .

وبعدئذ اشترى بربحه المكسوب إدارة خطوط صغيرة أخرى ، وصل
بعضها ببعض ، أو زعم أنه يصلها ، ثم باعها لشركات الخطوط الحديدية الكبرى
التي كانت إذ ذاك في دور التكوين . وكان « جولد » يمتاز ببديهة سريعة
يدرك بها ما يجوز أن تصير إليه هذه الخطوط الصغيرة ، فربح في أقل من عام
واحد مائة ألف ريال ، مع أنه لو أصلح تلك الخطوط حقا قبل بيعها ، لكان
ذلك آخر أعماله الإنشائية ، ثم استخدم ربحه في مساهمة شركة للوساطة
التجارية في شارع « وول » أطلق عليها اسم « شركة سمث وجولد مارتن » ؛
ومنذ ذلك الحين خص نفسه بالعمل في سوق الأوراق المالية على اختلاف
صنوف الأعمال التي يؤديها .

ولسنا ندري إلا قليلا من أمر هذه الشركة ، أو عما كان يعمل جولد حين
كان شريكا فيها ، ولكن شريكه لم ينتهيا إلى خاتمة طيبة ، وكلاهما عاداه ؛
فأما مارتن فمات مفلسا في البيمارستان ، وأما سمث فقد جر عليه جولد الدمار .
ويظهر أن « جولد » كان منذ بداية الأمر يعمل لحسابه الخاص أكثر مما يعمل
كعضو في الشركة ؛ وقد اتخذ علاقته بالشركة قبل كل شيء وسيلة تجذب إليه
أنظار الأعلام ، وأكبر حادث نشأ عن ذلك اتصاله بإبان الحرب الأهلية كلها
برجل سىء الأحدث ، ألا وهو « دانييل درو » .

كان « درو » أميناً لصندوق خط « إري » الحديدي ومديره ومراقبه
الفعلی ، وهو أهم شبكة حديدية بين الشباك الناشئة النامية الواسعة المدى التي
وصلت الغرب الوسيط والبحيرات العظمى بنيويورك ، فأساء أولا إلى لجنة إدارة

الخط بأن أذاع الإشاعات عن استقراره المالى فى وقت كان فيه بحاجة إلى المال ؛ ثم عاوناه بنفسه معاونة كلفته ثمناً باهظاً ، إذ أقرضه ما يعوزه من المال . إنه رجل كان فى مستهل حياته يسوس الجياد ويرعى الماشية ويعمر قلبه الإيمان ، ثم جمع فيما بعد ثروة عريضة من باخراته على نهر هدسن ، كما ظفر بثروة أخرى من أعماله فى شارع وول ، وكان إذ ذاك يستخدم منصبه — بغض النظر عن صوالح أرباب الأسهم — ليؤثر فى أثمان أسهم إرى وكانت له فيما يظهر القدرة على رفعها وخفضها كيفما شاء وبالسرية التى أراد ؛ فعلى الرغم من أن الخط كان ذا قيمة كبرى فى ذاته ، ويدر ربحاً كثيراً ، كان « درو » يستغله فى سوق الأسهم حتى كسب منه فيها أكثر مما كسبه فى أعمال النقل كلها ، فلما التقى بجولد ، كان بحاجة إلى حليف ، لأن سلطانه على إرى كان يتهدده أكبر رجال المال فى نيويورك حينئذ ؛ وهو كورنيليوس فاندربلت ، وأحس بعجزه عن منازلة فاندربلت وحيداً ، حين فسكر هذا أن يخلص خط إرى من إدارة « درو » الفاسدة .

وهنا نتناول بالبحث كورنيليوس فاندربلت فنجلوه ونبين لماذا رأى فيه « درو » خصماً شديداً البأس لا يقوى على مقاومته وحيداً ، فقد عجمه فى بعض تجار به ولم يلق منه ما يرضيه ، وكان فاندربلت حينئذ (١٨٦٩ — ٧٠) قد نيف على السبعين من عمره ؛ ولد فى بورت رتشمند بحيرة ستاتن ، واحتل منزلة خطيرة فى عالم الخطوط الحديدية مع ابنه وإيم الذى قد يفوق أباه فى نبوغه . وكان فاندربلت يميل بطبعه إلى إصلاح العمل الذى يتولاه ، أما جولد فينزع إلى النهب والتخريب ، فلبث فاندربلت طوال عمره يصلح ما يشرف عليه مع ما يستدره منه من ربح عظيم لنفسه .

كان أبوه مزارعاً فقيراً ، فلما بلغ سن السادسة عشرة من عمره غادر مزرعة أبيه وأنشأ فلنكا متواضعا يُسَيِّرُه لحسابه بين جزيرة ستاتن ونيويورك ؛ وكانت الفلائك المأجورة إذ ذاك قوارب شراعية يكفي لتسييرها رأس مال صغير ، فاستطاع بحذقه ونشاطه الجَم الذي لم يرحم نفسه به ، واقتصاده المنزلى الشديد ، أن يكون مركبه جديراً بالثقة والاحترام ؛ فلما بلغ السادسة والعشرين حتى أصبحت له سفن ثلاث وتسعة آلاف ريال وزوجة وأسرة ، وكانت تدر له السفن دخلاً ثابتاً يقتنع به معظم الناس قناعة تزداد مع الأيام شيئاً فشيئاً ؛ وكانت بواكير البخار تبدو في الأفق إذ ذاك ، فباع فائدر بِلَت خطوطه البحرية وبدأ عاملاً من جديد ، فاستُخدم قبطاناً للمركب بخارى بدائي صخب ، ليتيح لنفسه دراسة القوة الجديدة والتفكير فيما يمكن أن تتمخض عنه .

وكانت ولاية نيويورك قد أذنت في ذلك الحين باحتكار خطوط المراكب البخارية لرجلين هما « فِلْتُن » و « لفنجستون » احتكاراً لم يُعَدَّ شواطئ نيويورك ، وكانت المركب الذي يديره فائدر بِلَت ينسل خلسة بين ولايتي نيويورك ونيوجرسي ، فكان لزاماً عليه أن يرعى دقة المواعيد في باخرته التي لا يركن إليها قط ، كما كان محتوماً عليه ثانياً أن يصون المركب وملاحيه من تعقب المنافسين واضطهادهم ، وأن ينجو بنفسه من قبضة الحكومة أينما ألقى مراسيه في حدود ولاية نيويورك ؛ ولكنه على الرغم من هذه الظروف المعاكسة قد أنشأ ذلك الخط البحري واستدره ربحاً أغرى فِلْتُن ولفنجستون أن يعرضاً عليه قيادة كبرى سفائنهم مقابل أربعة أمثال راتبه ليضعاً حداً لذلك التنافس ، فرفض أن يستبدل بمخدومه عملاً جديداً ، لأنه اعتزم أن يكون هو نفسه صاحب خطوط بحرية ، ولتحقيق ذلك لابد من نص الاحتكار القائم في ولاية نيويورك .

لهذا لبت يدير سفينة مخدومه الأول ويوحى إليه بما ينبغي أن يعمل فيما نشأ بعدئذ من خصومة قضائية ، وتستطيع إن أردت تفصيل ذلك أن تقرأ كتاب (Commodore Vanderbilt) مؤلفه J. A. Howden Smith ، وقد انتهى الأمر بأن قضى كبير القضاة في الولايات المتحدة أن يكون لأصحاب السفن جميعاً حق الرسو بمراكبهم أينما شاءوا في شواطئ الولايات ماداموا حائزين على إجازة الإرساء ، وبهذا ظفر الخط البحري بين نيويورك ونيوجرسي بحريته . وكانت حركة البواخر تزداد ازديادا سريعا في الأنهار الأمريكية كلها ، فأنشأ فاندربلت بعد ذلك لمخدومه خطا جديدا من نيويورك وفلاديا (طوله خمسة وعشرون ميلا تقطعها البخرة في اثنتين وعشرين ساعة مقابل ثلاثمائة ريال) فكان ذلك أرخص الخطوط جميعاً في الولايات المتحدة وأسرعها وأدرها للربح . فلما كان عام ١٨٢٩ اجتمع لديه ثلاثون ألف ريال ، فأمكنه بذلك أن يظهر بنفسه لنفسه وأن ينتقل إلى نيويورك لينشئ خطا بحريا .

ولقد استطاع أن يخفض الأجور ويقهر منافسيه بفضل ما امتاز به من الإقدام والشجاعة والسرعة في تتبع خطوات التقدم الجديد — مثال ذلك غلّي الماء في أنابيب تدار بالفحم الانترايسيت ، فقد أخذت تلك الطريقة في كل مكان تحل محل القاطرات القديمة التي تدور بالخشب المحرق — وبذلك أثرى في الأعوام التالية . حتى إذا ما أقبل عام ١٨٤٨ ، كان يملك مجموعة من أحسن السفن في البلاد ، وكان في حوزته مصانع للحديد ومراس للسفن ؛ وكان «دانييل درو» كذلك يسير البواخر إذ ذاك ، فتصادق الرجلان ، وتعاونوا سويا على شراء الخط الحديدي بين بستن وستوننجتن ، الذي كان يكون مع بواخرهما طريقاً مباشرا من نيويورك إلى بستن . وقد أتاح تدافق

الذهب في كلفورنيا عام ١٨٤٩ لقاندر بلت أن يخطو خطوته الثانية نحو مجده المالى ، فلم يكن أحد يحلم إذ ذاك بامتداد خطوط حديدية عبر القارة ، وكان أقصر الطرق المؤدية إلى مناجم الذهب هو طريق بنما ؛ فرأى قاندر بلت أنه لو استطاع أن يسير السفن في نهر سان جوان الذى يجرى بين نيكاراجوا وكوستاريكا ؛ وأن ينظم خطا بحاريا يعبر بحيرة نيكاراجوا ؛ وأن يحفر قناة مدى بضعة أميال إلى المحيط الهادى ؛ كان له بذلك طريق أقصر من الطريق المطروق حينئذ وأقل نفقة منه ، فسافر إلى لندن ليهيئ المال لهذا المشروع ، ولكنه لم يوفق إلى ذلك ، إذ كان يظن أن نهر سان جوان لا يصلح للملاحة ، لما يعترض مجراه من مساقط ، وأن بحيرة نيكاراجوا ترتفع عن سطح البحر ، بحيث يقتضى حفر القناة إنشاء أهوسة فسيحة جدا ، فلم يفل ذلك من عزيمة قاندر بلت ، وقصد إلى نيكاراجوا بنفسه فى مركب صغير خشبي القاع ، واعتزم أن يسير بمركبه هذا إلى منبع النهر مهما لقي فى سبيل ذلك من صعاب ، وتولى القيادة بنفسه ؛ وقد روى فيما بعد أنه لما وصل إلى مساقط الماء قال : « لم أصنع سوى أن سددت صمام الأمان ثم قفزت على الصخور » . وأخيرا أعد سلسلة المواصلات التى أطلق عليها اسم « المرور » فينقل المسافرين حتى يبلغوا المساقط الخطرة فى قوارب مظهرة بالحديد « كانت ترن مرحا كلما طفرت من صخرة إلى صخرة » ، وبعدئذ ينقل المسافرين على ظهور الجمالين ، ثم بالبواخر مرحلة أخرى ، وأخيرا يقطع بهم سائر الطريق بالعربات ، فكمال النجاح مشروعه ، إذ يستغرق السفر عن هذا الطريق أقل مما يستغرقه طريق بنما بيومين ، ولا تزيد نفقته عن ثلاثمائة ريال بدل ستائة ؛ فجاء هذا العمل بالشهرة والثروة كليهما ، حتى بلغت ثروته فى عام ١٨٥٣ أحد عشر مليوناً من الريالات . ولما ذهب إلى أوروبا للمرة

الثانية في يخت فاخر أعدء بنفسه ، استقبله عمدة لندن في داره الرسمية ؛ كما استضافه قيصر روسيا .

ولما عاد ألفى سفنه مشتبكة في حروب من حروب القرصنة ، فاشترك فيها ، ولبت مدى سنوات مشغولاً بها ، يذكرها له أعوانه وأمواله ودسائسه السياسية ؛ ولكنه ترك الأمر جملة حين باع باخراته عام ١٨٥٩ في خطه البحري في المحيط الأطلسي الذي كان ينافس خطوطاً أمريكية أخرى منافسة كان النصر حليفه فيها . ولكن الضرائب التي فرضها المجلس التشريعي على مواد السفن والحديد والصلب والنحاس والرصاص ، وساريات المراكب وقلاعها وحبالها ، كان يستحيل معها على السفن الأمريكية أن تسود البحار أمام السفن الفرنسية والبريطانية ؛ فقرر لهذا هجر السفانة ليوجه كل عنايته إلى الخطوط الحديدية .

وكان قد امتد بالفعل عدد كبير من الخطوط الحديدية في ولاية نيويورك ، ولكنها خطوط قصيرة خططت على نحو يؤدي إلى كثرة الإنفاق ، ووضع فيها من رأس المال أكثر مما ينبغي أن يوضع ، فأفلس معظمها ، أو أوشك على الإفلاس ، بسبب الضائقة المالية التي اجتاحت أمريكا عام ١٨٥٧ ؛ ولكن حاجة البلاد إلى خطوط طويلة تعبر القارة كانت تزداد وضوحاً وجلاءً ، وكانت تلك الخطوط الطويلة هي خير ما يرجي للطرق الحديدية في أمريكا .

عندئذ أراد كورنيليوس فاندربلت أن يلتمس المعونة في فرد من أسرته ، يضارعه في نبوغه ليأخذ في عمله الجديد المبتكر . وكان أكبر أبنائه ولیم قد استأذنه خلال الحرب الأهلية في أن يكون حارساً قضائياً على خط صغير مهجور في جزيرة ستاتن ، ليلو قدرته على الإدارة ، فاستطاع أن ينظم ذلك

الخط ويعدده إعداداً جديداً ، وفق فيه ، فارتفعت أسهم الخط في غضون خمس سنوات من بضعة ريالات إلى مائة وخمسة وسبعين ريالاً ؛ فلا ريب إذن أن مثل هذا الابن يستطيع أن يتولى عملاً أوسع من ذلك ، فأخذ كورنيليوس منذ عام ١٨٦٢ يشتري أسهم الخط الحديدي بين نيويورك وهارلم ، وكان ثمنها قد هبط إلى تسعة ريالات ، وتولى إدارته ، وطلب إلى وليم أن ينظم ذلك الطريق تنظيمياً جديداً ، فارتفعت قيمة السهم حتى بلغت خمسين ريالاً ؛ وبعد عام واحد دبر شيئاً كهذا في الخط بين نيويورك ونهر هدسن ، وبينما هو في عمله ذاك هاجمه « دانييل درو » مرتين فهزمه في كلتا المراتين .

أما في أولاهما فقد حاول درو أن يحمل الجمعية العمومية في نيويورك أن تبيع أسهمها وهيئة لخط هارلم بيعاً مؤجلاً ، ثم تهوى بثمنها بإلغاء عاجل للقانون الذي يبيح لقاندر بلت أن يدير خطاً من خطوط الترام يتصل بذلك الخط ، فباع أعضاء الجمعية ألوفاً من أسهم لم تكن لديهم بمائة ريال الواحد ، فاشتراها قاندر بلت الذي كان يملك الأسهم الفعلية للشركة أيضاً ، فأفلس الباقون ما عدا درو ، الذي حمل قاندر بلت أن يكتفي منه بخسارة نصف مليون من الريالات ، لما كان بينهما من وديّة قديم .

وكانت المعركة الثانية شبيهة بالأولى ، فقد تقدم قاندر بلت إلى مجلس الولاية التشريعي بقانون يجيز له وصل الخططين ، وليظفر منه بالموافقة ، اضطر إلى رشوة بعض أعضاء المجلس حتى اشترى منهم وعوداً تكفي لحصوله على أغلبية الأصوات ؛ ولكن درو لم يكد يصل إلى « ألباني » فيما بعد حتى أقنع ممثلي الشعب أنهم يفوتون على أنفسهم فرصة تتيح لهم ربحاً جسيماً ، وبين لهم أن أسهم خط هدسن قد بلغت مائة وخمسين ريالاً ، فإذا باعوها بيعاً وهمياً مؤجلاً ، ورفضوا القانون الذي

يطالب به فاندربلت ، استطاعوا أن ينزلوا الثمن إلى خمسين ريالاً ، ولكن ما حدث أولاً حدث هذه المرة أيضاً ، إذ تمكن فاندربلت — بعون أصدقائه — أن يشتري كل ما عرضه خصومه للبيع ، حتى بلغ ما اشتراه من الأسهم عدداً يزيد عما كان موجوداً بالفعل سبعة وعشرين ألفاً ؛ فلما جاء موعد التسليم صعد الثمن إلى خمسة وثمانين ومائتي ريال ، وكان من اليسير أن يرتفع إلى ألف ريال ، لولا أن أصدقاء فاندربلت رجوه أن يضع للأمر حداً حتى لا يفلس الوسطاء جميعاً في شارع وول ؛ ويقال إن درو قد خسر هذه المرة ألف ألف ريال . وأمكن فاندربلت أن يصل الخططين بطريقة عملية بغير حاجة حتى إلى قانونه الذي قدمه . وجعل بعد ذلك يسعى للحصول على « الخط المركزي في نيو يورك » ، وهو يمتد من بفلو إلى ألباني محاذياً نهر هدسن ، ومن ألباني يستأنف السير إلى نيو يورك إما بالسفن أو بخط هدسن الحديدي ، ولم يستطع إلا عام ١٨٦٧ أن يتم هذا ، وأن يضع الخط بين يدي وليم فاندربلت لتغيير قضبانه وتبديل قاطراته وعربات . وفي عام ١٨٦٩ حصل على قانون بوصول الخطوط يبيح له أن يربط الطرق الحديدية الثلاثة التي أصبحت الآن ملكاً تاماً له ، ولها قيمة اقتصادية كبرى . ولقد أنحى عليه باللائمة الشديدة لأنه زاد أسهم الخط المشترك من أربعة وأربعين مليوناً إلى ستة وثمانين كانت تدر عليه من الربح النقدي ستة ملايين ، إذ زعموا أن ذلك ربح فيه غلو كثير ؛ ولكن الخدمة التي أدّاها كانت جلييلة حقاً ، وارتفعت أسهم مشروع الخطوط المشتركة آخر الأمر حتى بلغت مائتي ريال .

وهنا نعود إلى قصة « جاي جولد » مرة أخرى لأن كورنيليوس فاندربلت اصطدم في هذه المرحلة من حياته بدرو وحفيده جولد ، وكان موضوع الصدام إدارة خط إري ، إذ لو استطاع فاندربلت أن يضيف هذا الخط إلى الثلاثة

الأخرى لتت له السيطرة على حركة النقل في نيويورك ؛ ولا شك أن عقله القدير المبدع لم يسع أن يرى خطأ عظيمًا يصيبه الإهمال حتى يوشك على الدمار ، فقضبانه قد أكلها الصدأ ، وعُدَّتْه في حالة من الفساد الشديد ، ونقله مشكوك في سلامته بينما ترى من كان بيدهم أمره — وهم في رأى قاندربات لصوص شعبيون — يقامرون بأسمهم . فأعلن على الملأ عزمه على تطهير الخط من هذه الشرذمة كلها ، وأخذ يعمل بإخلاص ليضمن انتخاب عدد من أعوانه في مجلس الإدارة ، بحيث تكون إدارة الخط في أيديهم ، ولم يكن ذلك المشروع عسيراً ، فيما يبدو لأن درو لم يكن محبوباً إلى حملة الأسهم وكان حق الانتخاب (أى حق إعطاء الصوت في انتخاب مجلس الإدارة) يشترى عادة . ولا بد أن قاندر بلت قد رأى من الهين شراء ما يكفي من الأصوات بحيث يتاح له النصر في الانتخاب المقبل ، وعندئذ ينظم لخط كيف شاء ، وبذلك يكفي نفسه مؤونة شراء الخط شراء فعليا .

وكان دانييل درو يعلم علم اليقين ما كان يهدده من الخطر ، فدعا جولد إلى مجلس الإدارة ليؤازره ، فأخذ جولد منذ تلك اللحظة يستمتع بنفوذ في سياسة خط إرى يتزايد شيئاً فشيئاً . وقد لبث درو حيناً من الدهر شخصية فذة ، ولكنه كان خائناً بطبعه ، فسرعان ما تبين لجولد أن حليفه الطبيعي في مجلس الإدارة لم يكن أمين الصندوق ، بل كانت أمانة الصندوق في يد عضو آخر يدعى «فيسك» كان أيضاً من بطانة درو ، الذى ضمه كذلك إلى مجلس الإدارة لكي يحول دون سيادة قاندر بلت على الخط الحديدي ، تلك السيادة التى كانت تقصد إلى التطهير ؛ ولقد تعاون هؤلاء الثلاثة ، درو وجولد وفيسك ، فيما نشب بعد ذلك من شجار .

فقد نشبت بين الفريقين معركة طويلة متشعبة تقرأ وصف بواطنها وظواهرها

في طائفة مهوشة من البنود، ولكنها ممتعة إلى أقصى الحدود، كتبها إذ ذاك الأخوان « شارلس فرانسز » و « هنرى آدمز »^(١). وكان من الجائز فيما يبدو أن يظفر مرشحو فاندربلت بالنصر في الانتخاب، فيحصلوا على إدارة الخط؛ واعتزم درو وجولد وفسك أن يتحوطوا للأمر، فانفق الثلاثة أن يذهب درو إلى فاندربلت ليعرض عليه أن يقف بعض أعماله في السوق، وأن يعمل بصفة خاصة على رفع قيمة أسهم إرى بدل أن يعمل على هبوطها، وذلك مقابل موافقته على تعيينه (أى تعيين درو) في لجنة الإدارة من جديد لو فشل في الانتخاب، على أن يكون عضوا في جانب فاندربلت.

ولسنا ندري حقا كيف نفسر قبول فاندربلت لهذا تفسيراً معقولاً، فإنه كان يعرف درو، ويعرف فيه الرجل الذى يعوزه شرف القصد وتعوزه استقامة الخلق، ومع ذلك فقد أرجع هذا العدو القديم إلى لجنة الإدارة حين تم الانتخاب بفوز فاندربلت وفريقه. وبدأ يعد العدة لوصل الخطوط الأربعة.

ولسكن هذا الوصل كان آخر ما يوافق عليه درو، لأن معناه نزع سيادته على أسهم إرى، ولهذا أخذ في الخفاء يثير العراقيل أمام الوصل المنتظر، دون أن يشعر فاندربلت بما يعمل، ثم أعلن موقفه حين أُعلنت الشروط الموضوعة، محتجاً باجحافها، إذ أراد فاندربلت أن يقسم أرباح الشركة الجديدة بين الخطوط الأربعة جميعاً، بحيث يصيب إرى ثلث الربح بعد أن كان نصيبها يربى على نصف المجموع، فاتحد مديرو إرى وصمموا على رفض المشروع، فلم يكن بد من هزيمة فاندربلت.

(١) أعيد طبع الكتاب عام ١٩٢٩ ونشر بعنوان « المالية العليا في العقد السادس من القرن التاسع عشر » مطبعة جامعة ييل.

وليس هنالك موضع للشك في أن درو قد خدعه ، فساءه ذلك أشد الإساءة ، هذا إلى أنه استغفل على ملأ من الناس ، فأعلن لذلك أنه عازم على شراء الخط كله ، وكلف أعوانه أن يبتاعوا من أسهم إري ما يكفي ليجعل الإدارة له ولأصدقائه . وكانت قيمة الأسهم الموجودة إذ ذاك ستة وثمانين مليوناً من الريالات ، منها عدد كبير في أيدي أناس بانجلترا لم يكونوا في جانب درو ، وكان فاندربلت يعلم أنهم العلم بظروف سائر الأسهم ، فاستوثق من قدرته على تحبوق غرضه ، ولم يبدؤ له إلا خطر واحد يفدحه لو وقع ، وذلك احتمال أن يصدر حزب درو أسهما جديدة لا يستطيع شراءها جميعاً ، فقد حدث مرة أن باع درو أسهما وهمية لإري بيعاً مؤجلاً ، ثم أصدر في اللحظة الأخيرة ثمانية وخمسين ألفاً من الأسهم الجديدة ، طبعها ليقابل بها الظرف الناشئ ، وها هو ذا الآن يتجه هذا الاتجاه مرة أخرى ؛ وكان القانون في ولاية نيويورك يبيح لشركات الخطوط الحديدية أن تنشئ وتصدر ما تشاء من الأسهم لتستبدل بها أسهم أى خط يكون في يدها على سبيل الاستئجار ، وقد اشترى درو وأصدقائه قبل ذلك بأمد قصير خطاً حديدياً صغيراً يسمى « بفلو و برادفورد و بتسبره » ، وأجروه خط إري ، وإذن فقد كان في مقدور عصابة إري أن تزيد من عبء الأسهم التي كان يتحتم على فاندربلت شراؤها ، بأن تنشئ وتصدر أسهما جديدة لإري ، في مقابل أسهم الخط الذي استأجرته ، خط بفلو و برادفورد و بتسبره .

فصمم فاندربلت — ليحبط مساعدهم — أن يرفع أمره للقضاء ، فاجأ محاموه إلى المحكمة العليا في نيويورك ، واحتجوا بما أقدم عليه درو من أعمال جريئة ، والتمسوا أن تصدر المحكمة طائفة من الأحكام القضائية تقضى أن يحرم درو من أمانة الصندوق ، وأن يعيد لإري ثمانية وستين ألفاً من أسهمها أذيع خطأ أنها

له ، وأن تمنع مجلس الإدارة من أن يضيف إلى أسهم الشركة الموجودة فعلاً أسهما جديدة بأية حال من الأحوال ، فوافق القاضي على هذه الأحكام ، وكان ذلك القاضي هو برنارد ، الذي كان قد تقرر عزله عن منصة القضاء في موعد يقع بعد ذلك اليوم ، لما أبداه من نشاط في صالح جولد وفسك ؛ ونتيجة ما صدر من الأحكام أن تقل الأسهم التي كان لابد لفاندر بلت أن يشتريها ، بما يساوي ربع مجموعها .

وقد بدا أن درو وفسك وجولد يهرون إلى الإفلاس ، إذ قد باع ثلاثتهم أسهما وهمية بيعاً مؤجلاً ، ولكنهم مع ذلك مضوا في خطتهم وأخذوا يبيعون لفاندر بلت كل يوم أسهما لم تكن في حوزتهم . أما فيما يتصل بالأحكام الصادرة فقد قصدوا إلى قاض آخر ، كان يبيع له نظام القضاء في ولاية نيويورك أن يحكم إلى جانب القاضي الأول ، وظفروا منه بحكم يقضى بإيقاف أحد المديرين — وكان صديقاً لفاندر بلت ينقل إليه الأنباء — كما يقضى بإعلان كل ما يقضى به القاضي برنارد في القضية ، فكان جواب فاندر بلت على ذلك أن استصدر أمراً من برنارد يحرم الاجتماع على مجلس إدارة إري والمضى في أي عمل من أعماله إلا إذا كان لصديقه حق الحضور ؛ فلجأت جماعة درو وجولد وفسك ، إلى قاض ثالث واتهموا أمامه القاضي برنارد باشتراكه في مؤامرة تضارب في أسهم إري ، وبأنه استخدم منصبه القضائي في صالح مضارباته ، فأصدر القاضي الثالث ، بناء على هذا ، أمراً يحرم على الأحزاب جميعاً كل عمل « للترويج لهذه المؤامرة المزعومة » ويأمر مديري إري — فيما عدا مرشح فاندر بلت — بمواصلة أعمالهم ، وألا يكفوا بصفة خاصة عن تحويل السندات إلى أسهم ؛ وكان القاضي برنارد في نفس الوقت « يصدر ستة أحكام في كل يوم » ، ولكن جولد ودرو وفسك أصبح لهم

بحكم القانون أن يعملوا ما يشاءون ، وأن يتركوا ما لا يشاءون ، فتركوا القضاة يتفازعون الأمر فيما بينهم ، ومضوا يمهّدون الطريق للمعركة الأخيرة بينهم وبين فاندربلت .

ثم عقدوا اجتماعا لمجلس الإدارة قبل أن يصدر عليهم الحكم الأول ، أجازوا به لأنفسهم إصدار سندات قابلة للتحويل قيمتها عشرة مليونات من الريالات « لإتمام الخط الحديدى وإعداده وتجديده » ، وزعموا أن ذلك المبلغ سينفق فى استبدال قضبان من الصلب بقضبان الشركة البالية ، وفى مد قضيب ثالث بحيث يمكن للقطارات الوسيطة السعة السير على طريق إرى الدائم ؛ ولم تمض عشر دقائق بعد ارفضاض الجلسة حتى عقدوا اجتماعا ثانيا فى الخفاء ، اتفقوا فيه على أن يبيعوا هذه السندات إلى درو وأصدقائه بما يساوى $\frac{1}{2}$ ٧٢ عن كل مائة ، وتحول نصف هذه السندات على الفور إلى أسهم أرسلت إلى وسطاء درو ، أما عن القضبان فقد أمر درو أن تُقلّب القديمة ظهرا لبطن فتسير العجلات على أطرافها السليمة ، ولم يعد أحد يدرى شيئا عن القضيب الثالث .

أن أوان تنفيذ الحكم الأول فارتفع سعر إرى ، إذ خيّل إلى الناس فيما يظهر أن مديرى إرى سيعجزون بقوة هذا الحكم عن إضافة شىء جديد على الأسهم الموجودة فى السوق كأنهم يجهلون رجالهم ، فلم يلبث نائب رئيس الشركة أن وقع أسهماً جديدة بقيمة الباقي كله ، وهى خمسة مليونات من الريالات ، وزعم أنه لجأ إلى ذلك « لاحتمال نجاحهم فى تعديل الحكم » ، فأرسل كاتب السر رسولا يحمل دفاتر هذه الأوراق الموقعة ليحفظها فى الخزانة المغلقة ، ولكن الرسول عاد بعد دقائق يروى أن فسك لقيه وأخذ منه الدفاتر وحملها

معه ، وذلك معناه أن خمسة مليونات أخرى قد حالت بين فاندربلت وبين استيلائه على زمام إرى بغير علم منه .

ووضعت هذه الأسهم الجديدة في السوق في اليوم التالي ، وأخذ أصدقاء فاندربلت ووسطاؤه بادئ الأمر في الشراء ، ومضى سعر إرى في الصعود ، حتى لحظ بعضهم تاريخ الأوراق الجديدة ، وتبينوا أن مديري إرى قد غضوا النظر عن الحكم الصادر ، ولكن أحداً لم يعلم إلى أى حد كان ذلك الغض ، فهبط السعر من ثمانين ريالاً إلى سبعين ، ومضى فاندربلت في الشراء ، فما أقبل المساء حتى تجلى فشله في الاستيلاء على زمام الشركة كما أراد .

وعلى نقيض ذلك ما أصاب المديرين ، فقد ظفروا بسبعة مليونات ريال في مقابل أسهم لا قيمة لها من الوجهة العملية ، منها أربعة مليونات على الأقل دفعها فاندربلت ؛ فهذه الملايين السبعة حصلوها على الرغم من أحكام القضاء ، ولكن عصابة إرى كانت بعدئذ عرضة لكل صنوف التعذيب والعقاب في ولاية نيويورك ، غير أن المعتدين استقلوا إلى نيوجرسى سفينة فبلغوها آمنين قبل أن تصدر محكمة نيويورك عليهم قرار الاتهام .

وفي مدينة جرسى اتخذ هؤلاء المليون أحد الفنادق مركزاً لإدارة أعمالهم وأحاطوا أنفسهم بحراس مسلحين ، وأقاموا ثلاثة مدافع ضخمة تجاه البحر ، وملأوا قوارب الخفر بحملة البنادق . وأعلنوا أن فاندربلت والقاضى برنارد يحاولان اختطافهم ، ويقال إنهم استصحبوا معهم عربية ملأوها أوراقاً مالية قيمتها ستة ملايين من الريالات . ومهما يكن مقدارها فقد كان معهم من المال ما يكفي لملء المجلس التشريعى في نيوجرسى أن يصدر قانوناً في ساعتين يقضى بأن يكون خط إرى شركة خاضعة لولاية نيوجرسى ؛ ثم أثاروا حملة صحفية على احتكار

الطرق الحديدية ، وخفصوا الأجور في خط إري ليزيدوا من حيرة فاندربلت ،
ولسكنهم تفازعوا على تقسيم الأسلاب ، غير أنهم لبثوا حيناً آمنين . ولما كان
من غير الجائز أن يلقي عليهم القبض في نيويورك أيام السبت ، فقد استطاعوا أن
يزوروا أصدقاءهم هناك من حين إلى حين .

ولسكنهم أرادوا العودة إلى نيويورك ليقيموا بها إقامة دائمة ، فأعد جولد
قانوناً عرضه على المجلس التشريعي في ولاية نيويورك يحيز ماتم في الأيام الأخيرة
من الأعمال من الوجهة القانونية ، ولا يسمح إطلاقاً باستيلاء فاندربلت وجماعته
على خط إري ؛ ولسكن المجلس لم يوافق على إصدار ذلك القانون عند عرضه
للمرة الأولى ، واضطر جولد أن يتعرض لخطر الذهاب إلى ألباني بنفسه — حيث
مقر المجلس التشريعي لولاية نيويورك — ليقابل أعضاء المجلس مقابلة شخصية ،
فألقي عليه القبض ، ولكنه استطاع أول الأمر أن يجد ضامناً ، وفي المرة الثانية
أفلت من حارسه ، واستصحب معه مائتين وخمسين ألفاً من الريالات التي
كسبها في العهد الأخير ، ولسكن أوراق فاندربلت سرعان ما أخذت تقيم عليه
تهم التزوير . ولقد دلّ البحث فيما بعد على أنه حين كان في ألباني وقع بإمضائه
عددًا كبيراً من أوراق النقد يبلغ قيمتها مبلغاً جسيماً ، ووزعها على أعضاء مجلس
الشيوخ ، وكان هو نفسه يروي القصة فيما بعد ويزعم أنه لا يذكر لماذا دفع
للأعضاء تلك المبالغ ، أو ماذا فعل بها ، ومع كل هذا فلم تُرفع ضده دعوى
الالتهام قط . ومهما يكن من أمر ، فقد دفع في المدينة مبلغاً جسيماً على نحو ما ،
ولسبب من الأسباب ، لسكى يوم فاندربلت أن مقاومته إياهم يرجح لها الإخفاق .
ولم يكن فاندربلت حينئذ في حال يغبط عليها ، لأن السمة الملايين من الريالات
التي أخذت أحدثت ضغطاً مالياً وهبطت بأثمان الأسهم جميعاً ؛ وهذا إلى أنه

كان ينوء تحت عبء أسهم إرى التى كان قصارى جهده أن يحفظ سعرها ؛
ومن ناحية أخرى كانت رشوة أعضاء المجلس التشريعى فى ألبانى تتطلب مبلغاً
ضخماً ، ولكن أعضاء الشيوخ حين غادروا قطاراتهم الخاصة التى استأجروها
— وحق لهم أن يفعلوا ذلك فى مثل هذا الظرف — لم يجدوا أعوان فأندر بات
ينتظرونهم فى بهو المحطة لشراء أصواتهم ، نخاب أمائم وثارت نفوسهم ثورة
دفعتهم إلى إقرار قانون إرى ، ولم يكفهم هذا بل أصدروا قانونين آخرين للطرق
الحديدية ليقيموا بهما العراقيل فى وجه الطرق الحديدية التى يملكها فأندر بات .
فلم يلبث درو بعد ذلك أن فاوض فأندر بات مفاوضة سرية يرجو من ورائها
بلا ريب أن يكسب لنفسه شيئاً على حساب فسك وجولد ، ولكن شريكه
أدركا خفية الأمر ، وقصدا إلى المكان المضروب للقاء ، وأصررا على أن ينضم
الاتفاق المبرم انسحاب درو من مجلس إدارة إرى ، وأعدت الشروط لذلك .
وكان فأندر بات ساعثئذ ، كما روى ، يستطيع أن يشتري خط إرى ، ولكنه
رفض أن يشتري إلى جانبه مطبعة السندات ؛ وتم الاتفاق على سحب القضايا
القائمة جميعاً ، وأن ينزل كل ذى حق عن حقه . واسترد فأندر بات أربعة ملايين
من الريالات مقابل أسهم إرى ، كما ظفر كثير من أصدقائه بمبالغ من المال
— إذ آلت إليهم ملكية الخط الحديدى — وتنحى درو بعد أن احتجز لنفسه
قدرًا من أسلابه ، ووضع جولد وفسك يديهما على إدارة الخط .

وكلف هذا الاتفاق خزينة إرى تسعة مليونات من الريالات ، وأبهرقت
الشركة بمائة وخمسين ألفاً من الأسهم الإضافية ، وبلغ السخط من جولد وفسك
مبلغاً شديداً ، « فقد صعدا وأخذها الذهول » كما قال فسك — وقررا أن الخط
كما يريانه يرجح له الإفلاس — ولكن كان ذلك أقصى ما يمكن أن يحصل

عليه ، وجعلانه يستغلا إلى أقصى الحدود ، فأخرجنا من الإدارة جميع الأعضاء إلا أصدقاءهما ، واستبدلنا بهم «تويد» و«سويني» وهما مديرا خط «تاماني» ، وكان تويد من حلفاء فاندربلت ، ولكنه كان قد كوفى على خدماته لذلك الرجل بأسهم إرى ، فآثر أن ينضم إلى جولد مزودا بما فى يديه من أزمة السياسة فى مدينة نيويورك ، واستعداد بعض قضاتها لخدمته ، وبينهم القاضى برنارد ، ولذلك أصبحت أحكامه منذ ذلك الحين رهن مشيئة جولد ، كما كانت من قبل تحت تصرف فاندربلت سواء بسواء .

فلما أن رأى فسك وجولد أنهما فى حرز حريز أخذنا يسيطران على أسهم إرى من جديد ، ولم تمض أشهر قلائل حتى أصدرنا مائتين وخمسين ألفا من الأسهم الجديدة ، وأنزلا السعر من ثمانين إلى أربعين ، حتى إذا ما ابتاع كل ما أراد من الأسهم ، وأحبا أن يرفعا السعر ثانية ، استصدرا من القاضى برنارد حكما يبيح للخط الحديدى أن يشتري الأسهم الجديدة بقيمتها الاسمية ؛ وكان هذا الحكم ينفق قانونا قائما يحرم على شركات الطرق الحديدية أن تتاجر فى أسهمها ، فأدّى ذلك إلى طائفة من المشكلات القضائية ، حتى كان ثمة ستة قضاة على الأقل يصدرّون فى وقت واحد فى مختلف المحاكم قرارات ينفق بعضها بعضاً ، كل منهم يعمل لحزب من الأحزاب . وعين القضاة لرقابة الخط ثلاثة حراس قضائيين ، وحكّما واحداً على الأقل ، كلٌّ يمثّل واحداً من أصحاب الدعاوى ؛ وعلى الرغم من ذلك كله ، بقى جولد وفسك كما كانا ؛ وقرر جولد فى شهادته أمام لجنة من لجان التحقيق أنه ظن لنفسه الحق فى إصدار ما يشاء من الأسهم حين كانت الانتخابات موقوفة ، لـسكى يخرج الخط من قبضة فاندربلت ، وقد كان لهذا التصريح فيما يقال وقع حسن فى نفوس الأعضاء . ومهما يكن من

أمر فقد تم الاتفاق مع فاندربلت من جديد على أن يظفر بالقانون الذي يبتغيه لتوحيد الخطوط التي كانت تحت سيادته بالفعل ، أما ما فاستصدرا قانونا يبيح لهما أن يصدرا ما يشاءان من الأسهم ، وأن يعيدا الانتخاب مرة في كل خمس سنوات بدلا من الانتخاب السنوي . وبذلك سيطرا على إري لا ينافزعهما السيادة أحد .

ثم نشبت معركة خفيفة واحدة بينهما وبين فاندربلت ، قبل أن تزول العداوة بين الحزبين ، فقد كان أجر العرب في نقل الماشية من بفلو إلى نيويورك إذ ذاك مائة وخمسة وعشرين ريالاً ، خفض فاندربلت ذلك الأجر في خط نيويورك المركزي إلى خمسين ريالاً ، فانتقم جولد لنفسه وأنزل أجر العرب إلى خمسة وعشرين ، فجعله فاندربلت ريالاً واحداً ، وبدا أن جولد قد انهزم أمام خصمه ، وتحولات حركة نقل الماشية بأسرها إلى خط نيويورك المركزي ، وأخذ جولد يشتري جميع الماشية في غربي بفلو لينقلها إلى نيويورك بهذا الأجر الزهيد الذي يعتبر من الوجهة العملية نقلاً مجانياً ، فكسب بذلك أرباحاً طائلة ؛ ويقال إن فاندربلت حين علم أنه ينقل لجولد ماشيته بريال واحد عن كل عربة ، اعتزم ألا ينافله مرة أخرى .

ولئن كان ذاك الرجلان في شارع وول على طرفي نقيض في الخطة والرأي ، فإنهما لم يكونا كذلك من حيث الشعور الشخصي ؛ أما فاندربلت فيعمل ليحقق لعمله النجاح ، ويشرف على المشروعات لتزدهر على يديه ؛ وأما جولد فخطته أن يخلق السكوارث ليشتري الأسهم بثمان بئس ؛ ولما حدث في عامي ١٨٦٨ — ١٨٦٩ على التعاقب أن اشترى جولد وفسك أوراق النقد كلها ، ثم حاول أن يشتري الذهب بأجمعه ، ولم يتقدم لتثبيت السوق إلا فاندربلت ، فخلص شركات كثيرة

من الإفلاس ، وكان شراء أوراق النقد إذ ذاك أمراً ميسوراً ، لأن المعروض منها لم يَفِ بِحاجات التجارة التي تتسع دائرتها شيئاً فشيئاً ، فكان نقضها محسوساً في الحريف من كل عام ، وهو فصل الحصاد وتصدير الحبوب ، فتضطر المصارف إلى حفظ نقد احتياطي يساوي خمسة وعشرين في المائة ليسدوا الطلب ؛ ولما حاول فسك وجولد أن يتعاونوا مع درو في الحصول على أربعة عشر مليوناً من الريالات ليحوّلوها إلى أوراق نقدية ، يشترونها بعدئذ ، اضطرت المصارف أن تقرض ستة وخمسين مليوناً من الريالات ، وأحدث ذلك أزمة شديدة ، وهبطت الأثمان والأسهم هبوطاً مروعاً ، فكسب الشركاء أرباحاً عظيمة ، إذ أخذوا يبيعون بيما وهمياً مؤجلاً مدى بضعة أشهر ، وأفلس كثير من الأبرياء .

ولن نحدثك عن شيء من المحاولة الفاشلة التي أقدم عليها فسك وجولد ليشترى الذهب كله ، فقد سعى جولد في شيء من الغدر أن يبيع الكثرة الغالبة مما يملك لنفسك ، في حين مضى فسك في الشراء بأثمان عالية تنفيذا لما بينهما من عهد ، فدبت بينهما الخصومة ، ولم يصلح ما بينهما بعد أن ساهم جولد في تدبير خطة جبارة ، ترمى إلى إزاحة الأعباء التي جلبها فسك على نفسه ، وإلقائها على عاتق رجل صوري لا يملك شيئاً . ولقد عاش جولد وفسك في أواخر أيام اشتراكهما عيشة باذخة في نيويورك ، واتخذوا مكتباً في بناء شركة التمثيل الكبرى ، وأعد فسك لنفسه بهوا حفلاته الخاصة ، وهياً سرداباً يصل داره بالمسرح ، حيث كانت جماعة التمثيل لا تفقأ تمدد بالغانيات لاستمتاعه ولفتنه عملائه ؛ وقد روى عنه أنه قال فيهن : « إنني أجلب بحسن بزقي أولئك الفواني المتوردات اللواتي أحبن ، وما أيسرن الوهن » . ولم يشترك جولد مع زميله في هذا الجانب من حياته ، بل لزم مكتبه وآثر أن يقضى أوقات فراغه من حياة

السلب التجارى فى زراعة الزهور ، وأن يحيا حياة عائلية هادئة ، وقد وفق فيما اختار لنفسه — إذ اغتيل صديقه فسك ، قتله محب غانية من أوائلك — ولكنهما فيما عدا ذلك عملا معا فى أتم اتفاق .

ولقد خسر جولد بقتل فسك خسارة فادحة ، لأنه كان محبباً لدى حملة الأسهم وعمال الخط الحديدى ، كما كان صائب الرأى إذا ما حزب الأمر ، فقرر حملة الأسهم الإنجليز — وهم عديدون ، أن يتخلصوا من جولد ، فنظموا صفوف المعارضة فى لجنة الإدارة ؛ ولما رفض جولد أن يعقد مجلس الإدارة ، اجتمع الفريق الإنجليزى ، وساروا إلى بناء التمثيل ، فشتتوا رجال الحرس ، وعقدوا اجتماعهم على الرغم من الأوامر الصادرة إليهم ، وانتخبوا مجلساً جديداً للإدارة ، وقويت شوكتهم بمعونة مارتن ، وهو شريك قديم لجولد ، وكان قد أوشك على الإفلاس ، بسبب شروء من شروات جولد الاحتكارية ، فأمد أعداءه بدفاتر الشركة القديمة ، لأنه يعلم ما تحويه من أدلة تكفى أن تزعج ذلك الموسر العظيم فى غيابة السجن ؛ فقد حدث ذات يوم أن ضاقت حيلة جولد حتى تخلى عن إرى ، وأقامت عليه الشركة دعوى اتهام بما يدنو من ثلاثة عشر مليوناً من الريالات ، وغير ذلك من الجنايات ، فقبض عليه للمرة الثانية ، ولكنه استطاع أن يكسب مالا حتى من هذا الموقف ، إذ أعلن عزمه على تعويض الخاسرين ، فارتفع بذلك سعر أسهم إرى ، ولكنه لم يف بوعده ، فعاد سعر الأسهم إلى الهبوط مرة أخرى ؛ وأعاد هذه العملة مرتين أو ثلاثاً ، حتى تخلص من كل أسهمه ، وتحوط للموقف من كل وجوهه ، وأخيراً أعطى معارضيه جملة أوراق مالية قيمتها الاسمية ستة مليونات من الريالات فى مقابل تنازلهم عن التهم الجنائية التى وجهوها إليه ، ولكن ثبت بعدئذ أن تلك الأوراق لا تساوى شيئاً من الوجهة العملية .

ترك جولد خط إرى الحديدى ، وله ستة وثمانون مليوناً من الريالات ، قيمة أسهمه ، فضلاً عما له من الديون ، بعد أن كان له اثنان وعشرون مليوناً فقط حين التحقق بمجلس إدارته ؛ ولكن ريالاً واحداً من هذه الزيادة لم ينجم عن تقدم صحيح ، بل لبثت إرى كما كانت كل الخطوط التى يشرف عليها جولد فى أخريات أيامه ممقوتة من الناس لسوء الإدارة وعدم الكفاية ، ولما كانت عليه من إهمال شديد ، فعلى الرغم من أنها أدت عملاً جليلاً ، فقد لبثت طويلاً فى أيدي الحراس القضائيين ، ولم تستطع أن تدفع الأرباح إلا بعد أن تركها جولد بتسعة عشر عاماً .

وان نقتول بالبحث المفصل بعد هذا سائر مشروعات جولد ، لأن القصة قد استطردت وطالت . ولكننا نشير إلى سوء الأحداث التى أصابه حين قام بوصل « الخطوط المعلقة » فى نيويورك بعضها ببعض ، وذلك لأنه سيطر من جهة على خط مانهاتان على أثر حملته التى أنزل بها ثمن الأسهم ، إذ تحدث مرة باعتبار أنه أحد المشرفين على الشركة فأكد بأن الخط الحديدى « فى حالة من الإفلاس لا رجاء فى إصلاحها ولا أمل فى علاجها » ، ثم شاع بعد ذلك بقايل أنه ابتاع معظم أسهم الشركة ؛ فلما أن تم له ذلك ، عاد الثمن إلى حده الأول قبل الهبوط . ولقد عمل بعدئذ على إفلاس شريكه « سيمرس فيلد » بعد أن كان يزعم له الود ؛ وذلك بأن اقترح أن تكون « الطرق الحديدية المعلقة » طريقاً عاماً . وتمد نشاطه منذ ذلك الحين ، وقد انتابت شارع وول ضائقة مالية عام ١٨٨٤ ، خسر فيها كما قيل ما يقرب من عشرين مليوناً من الريالات ؛ ومهما يكن مقدار خسارته تلك ، فقد ورث أبناءه ثروة من أضخم ما عرفت أمريكاً من ثراء ؛ ومع هذا فلم يعرف عنه الإحسان قط ، واعتل فى شيخوخته إذ أصيب

بالسل ، ولكنه كان ينكر هذه الحقيقة لثقلها على نفسه ، وأسلم الروح عام ١٨٩٢ ،
فيما كاد نبأ موته يذيع في شارع وول ، حتى ارتفعت الأوراق المالية التي كان
نصيبه منها كبيرا .

وتستطيع أن تلمس في حياة جاي جولد في مختلف أطوارها جانب البداوة
والهيب ، فقد مثل في المجتمع الأمريكي المتكاثر دورا يشبه ما كان يقوم به
المغبرون قديما ، حين يعتقدون على الزارعين في سهولهم الخصيبة ، فهو ناهب مخرب ؛
ولو اتخذناه مثلا نسوقه لحرية الإنسان في المشروعات الخاصة ولنظام النقد وحفظ
المال في عصرنا ، لمدسنا في هذا النظام نقصا خطيرا لأنه أنتج مثل هذا الرجل ،
واحتمل وجوده . وإنا لنرى فيما نشب بين الدولة — ممثلة في شخص القاضي
برنارد مثلا — وبين هذا الرجل وهو عدو المجتمع ، أن القوة كلها كانت بيد هذا ،
ولم يكن الأول إلا العوبة عاجزة مرثسية . أما قصة فاندربات فتأتي ضوءاً على
مشكلاتنا من وجهة نظر أخرى ، هي أوضح في تاريخ روكفلر الذي سننتقل إليه
الآن ، فنرى أن فاندربات وروكفلر عاملان هاتمان للإصلاح الاقتصادي الذي
يتعذر حدوثه فيما نتصور بغير الطريقة التي حدثت بها . وقد يحتاج المفكرون
الرجعيون والمحافظون بأن جاي جولد كان شرا لا بد منه ، وأنه تابع من توابع
الحرية التي لا يتم التقدم إلا بدونها ، ولكن المجددين والاشتراكيين ينقضون
هذا القول ويعتقدون أن كل ما هنالك من شر صغرا أو كبيرا في أمثال فاندربات
«وروكفلر» يمكن أن تخف وطأته بوسائل تختلف عن تلك أشد الخلاف .

ج . د . روكفلر وتنظيم إنتاج الزيت

قد يعرف القارئ مقدار الزيادة الهائلة التي طرأت على المواد النافعة ، وما أصابته مصادر القوة الجديدة من رقى بَدَل من عالم الإنسان عالماً جديداً ، وكانت النتيجة اللازمة لسكل ما نشأ من الميادين الفسيحة لاستثمار المواد الجديدة ، ولسكل ما استحدث من أساليب في استخدام القوة منذ بداية هذا العصر — عصر العلم والاختراع — نشأة الثروات العريضة التي نضرب لها مثلاً نموذجياً تاريخ الزيت وثروة روكفلر .

فبينما كان فاندربيلت يوسع من نطاق طرقه الحديدية ، كان ج . د . روكفلر ينشئ « أم الشركات » ، « شركة الزيت المثلث » ، فيجمع بذلك أضخم ثروة جمعها فرد في العالم — كما يعتقد كثير من الناس — وتاريخ حياة روكفلر هو تاريخ الشركة التي كونها وكونته على السواء ؛ فكانت كما نمت نما معها ، ولاءم بينه وبينها . وإذن فلا نكاد نرى سبباً يدعو إلى تفصيل حياته الشخصية ، كما وقعت بترتيبها الزمني ، بمعزل عن قصة شركته .

ويعلق الناقدون من أعدائه أهمية على حقيقة لا تتصل بحياته العملية ، وهي أنه مسيحي لا ريب في وفائه لعقيدته ، فقد كان يختلف إلى كنيسة أيام الآحاد حتى حالت شيخوخته دون ذلك ، وأنشأ أبناءه مسيحيين مخلصين لديهم ؛ ولكن النقاد يرون في ذلك ما يناقض كثيراً من أعماله التجارية ، فهناك مثلاً من أحكام القضاء ومن الشواهد الثابتة أدلة تؤيد صحة ما زعموه ، من أنه لجأ في أعماله إلى الكذب والحنث في اليمين وتزوير الشهادة على جبرته ، وإلى رشوة واسعة النطاق أفسد بها عمال غيره والموظفين العموميين ، وأنه لجأ إلى التهديد

وحصل لنفسه على نقص في الأجور غير مشروع . وقد كانت حياته كلها في الواقع برهاناً قائماً على إهماله التام لحقوق ومصالح من يقف في سبيله أو سبيل مشروعاته كائناً من كان ؛ فإن الثورات الصغيرة التي أثارها في المكسيك وفي أمريكا الجنوبية ، قد أدت إلى إزهاق كثير من الأنفس ، ولم يجلب الدمار لأبناء وطنه أفواجا في أموالهم غصب ، بل تجاوز ذلك إلى أرواحهم الخالدة — على حد رأيه — ولكن بيننا هو يصنع ذلك كله إذا بك تراه لا يني يجمع المال لكنيستته في مهارة ونشاط عظيمين ، كما يجود في سخاء وبعد عن التعصب ، فقد عرف طوال أيامه بميله إلى الإحسان . واسمنا ندرى كيف نعلل هذا التناقض الظاهر بين مذهبه وطريقته ، إلا إذا افترضنا أن غايته الأساسية قد استولت عليه استيلاء شديداً ، فإنه اتجه بكل نفسه إلى جمع المال ، وسرعان ما انتهى إلى إخراج المشروعات العظيمة من حيز الإمكان إلى حيز الواقع ؛ فيجوز أن لم يكن في وقته متسع يتيح له التفكير في نشأته والنظر الدقيق إلى حرفة العقيدة ، هذا إلى شدة رغبة في إنشاء المشروعات الجديدة مما أودى به إلى الإسراف في التسويع مع خصومه أو ما يعترض سبيله من عقبات ، غير حافل بلذعة الضمير ؛ فلقد لبث روكرفلر من الوجهة الدينية كما كان أيام الصبا ، أما جوهره ونوع نشاطه فقد تغيرا بتغير العصور وألوان النجاح والفرص السانحة .

كان روكرفلر سخيا كريما طوال حياته ، فقد أنفق في أوجه البر ما قد بلغ حتى الآن ^(١) ستمائة مليون من الجنيهات ، أنفقها في حكمة وتدبير بالغين ، فكانت له يد طويلة في تقدم العلوم ؛ ويلاحظ عنه بعض عارفيه أنه « يتألف من شطرين

(١) عام ١٩٣٣ .

(تابع - ٢)

نفسيين يحار لها الإنسان » فيُمنّاه لا تدرى شيئاً عما تصنع يسراه . ولا بد لنا قبل أن نفرغ من البحث في شخصية روكفلر ، وبينان ما فيه من شذوذ عجيب ، أن نضع نصب أعيننا ما كان يسرى في المجتمع الأمريكي — حين كان نجم روكفلر في صعوده — من معايير الشرف وتقدير العمل وموت الضمير في القضاء والسياسة ، واستعداد الناس أن يلجأوا إلى العنف في بلوغ مآربهم . إن روكفلر قد استباح لنفسه أن يشهد الزور إذا ضاق عليه الخناق ، ولكننا نسأل : كم كانت طريقه وعرة عسيرة ؟ وقد أثار الفتن في بعض الولايات الصغيرة ، ولكن ماذا صنعت له حكومات تلك الولايات ؟ لقد بسطنا فيما سبق نموذجاً لمقاييس الأخلاق حين درسنا « جولد » كجامع المال .

كان لروكفلر أعظم الفضل في تقدم الظروف الاقتصادية في العصر الحديث . ومن أجل أعماله اثنان : تنظيم استخراج الزيت الغفل وبيعه واستقرار ثمنه استقراراً نسبياً في أرجاء العالم كله ، والثاني نجاحه الباهر في افتتاحه عهد العمل الكبير .

وبأنه ليدهشنا حتى في يومنا هذا أن يبلغ في تجارة الزيت حداً يسيطر فيه عليها كلها ، قبل أن ينفق في ممارستها عشرة أعوام — ففي هذا الزمن الوجيز أمكنه أن يكون له وحده القدرة على تحديد أثمان الزيت ، الغفل منه والقطار ؛ فقد تبين حين ذهب إلى منابع الزيت — وكان إذ ذاك نكرة لا يملك ثروة تلفت النظر — أن كل خطوة في العمل تعاني زيادة الإنتاج ، وأن في استنباط الزيت تبذيراً وفوضى ، إذ كان يشرف على استخراج من منابعه جماعة عرفوا بإقدامهم الجشع محدوم العاطفة والتفائل ، جماعة تغريهم المشروعات الخطرة إن كانت تبشر بأرباح طائلة ، وتمتاز في كثير من الأحيان بالقدرة والنبوغ ؛ ولكن

شيئا واحدا كان ينتهى بهم إلى الفشل — فلا يخفى أنه إذا كف صاحب المنبع عن استخراج الزيت ، تسرب الزيت تحت أرضه إلى أرض جاره ، إن كان هذا الجار يواصل الإخراج . ولم يستطع رجال الزيت أن يحجوا ما كانت تولده تلك الظاهرة في نفوسهم من خرافات ، ولم يوفقوا إلى التعاون على تحديد المحصول إذا ما أحاطت بهم مشكلة في النقل أو في البيع ، فلم يقفوا العمل إلا مرة واحدة مدى أشهر قلائل ، ولم يعبأوا بما تؤدي إليه مواصلة العمل من تدفق الزيت وضياعه ، فضياع الزيت أهون عليهم من وقف العمل ؛ فكانت تكفى الحادثة العارضة للهبوط بثمر الزيت ، وهوى الثمن فعلا من الريالات إلى السنتيمات لأن مواصلة الإنتاج حددت قدرة الخزن ، ولأن آباراً جديدة استكشفت ونضبت الآبار القديمة ، فأخذ الناس يتراوحن بين الثراء والفقر .

أما مرحلة التقطير في صناعة الزيت ، فقد كان يشرف عليها رجال عاديون ، ولما كان يستحيل عليهم في ذلك العهد أن ينقلوا عددهم وأدواتهم إلى الآبار ، اكتفوا بتقطير الزيت في الآبار التي لا تحولم دونها ظروف النقل ؛ ولكن لم تلبث هذه المقطرات أن اندحرت أمام المشروعات الجديدة التي ركبت على فوهات الآبار حين مدّت الطرق الحديدية فروعها ، حتى بلغت منابع الزيت الحقيقية . وقد كانت الطرق الحديدية الأربع — التي أشرنا إليها — في تنازع كاد ينقلب إلى حرب علنية ؛ وقد اتضح في حديثنا عن جولد أن الهيئات المشرفة على تلك الخطوط قد حالت دون تعاقد كلها على اتفاق طويل الأمد تحقيق بالثقة ، بما لجأت إليه من أساليب الخداع والخيانة التي رسمت علائقها بعضها ببعض ؛ ويظهر أن عمال الطرق الحديدية كانوا أقل فسادا من رؤسائهم ، ولسكنهم عاجزون عن رفض ما يقدم لهم من رشوة ، فتبينت مقطرات الزيت المختلفة أن في مكنتها عمليا

أن تغتصب تخفيضا جائرا في أجور النقل ؛ وكل هذه العوامل أدت إلى تعذر العمل واضطرابه ، ثم جاء المضاربون فضاءفوا الظاهرة بمضارباتهم .

ولما هجر رو كفلر اشتغاله بالنقل وأعمال الوساطة ليزاول تجارة الزيت ، كان أول ما مارسه منها مرحلة التقطير ؛ فلم تمض ثلاثة أعوام أو أربعة ، حتى أصبح بفضل نبوغه أكبر مقطر في البلاد . وسرعان ما واجهته مشكلة هبوط الأثمان الناجمة عن زيادة إنتاج الزيت زيادة سببها الإهمال ، فاضطر إلى التفكير في تنظيم الأمر نوعا ما ، ومحاولة تحديد الإنتاج وتثبيت الأثمان . وكان لا يفتأ يصرح بأن خطته المرسومة إنما تقصد إلى صالح العمل وحده ، وليس لدينا ما يؤيد تكذيب زعمه ، ولو ظلت خطته في طي الخفاء لسكتب لها النجاح ، سواء أكانت خيرا أم شرا ؛ فقد بدأ بأن اضطر الشركات الرئيسية في منطقة كليفلد أن تتحد جميعا في شركة واحدة ، وأن تخول له تنظيم البيع والشراء ، فأصبح بذلك أكبر عملاء الطرق الحديدية ، واستغل هذه المنزلة فيما بعد في إرغامه تلك الطرق ، بالتهديد حينما والرشوة حينما ، على اتفاقات تؤدي إلى إفلاس منافسيه ، واقتضاه ذلك المشروع بعض الوقت ، إذ كان لابد له من إقناع رؤساء الطرق الحديدية (كما أطلقوا على أنفسهم) بأن شركته معتمدة توحيد المقطرات القائمة كلها ؛ وانتهى الأمر بينه وبينهم بأن ضمن لنفسه ثلاثة أشياء : تخفيض كبير في نقل زيتته ، وأن يتقاضى مبلغا من المال عن كل برميل من الزيت تنقله شركة لم تندمج في شركته ، وأن يعدوه بأن يبلغوه الأنباء المفصلة عن كل ما يحدث من فريق منافسيه في وقت مبكر . ولما تحصن بهذا الاتفاق قصد إلى المقطرين الذين لم يندمجوا في شركته ، ووضح لهم في جلاء أنهم إن لم يبيعوا له ما يملكون بالثمن الذي يراه ، كان حتما عليهم أن يغادروا ميدان العمل .

ونجحت الخطة مع المقطرين — إذ استطاع أن يشتري ما لديهم من المقطرات الباقية في تلك المنطقة بشروط تفيده أكبر الفائدة ، وأغلق منها أقلاما صلاحا ، وأسوأها موقعا ، ثم حدد الإنتاج في سائر المقطرات ، وأدخل عليها وسائل الإصلاح ، وأخذ على نفسه أن يملك بيع الزيت وشراؤه ، فاستطاع بحق أن يسير بتلك التجارة نحو صالح التقطير .

ولكن مشروعه منى بالفشل حينما ما فيما يتصل بالمنتجين ، فقد ذاع النبا إلى رجال الزيت وعلموا أن أجور النقل قد ارتفعت عليهم ، فدبروا مهاجمته . وقصة هذا النزاع لذيذة ومفيدة جدا لمن يرغب في دراسة السلوك الاجتماعي للإنسان ، وليس بنا حاجة إلى روايتها الآن ، إذ ليس في هذا الكتاب متسع لها ، وتستطيع أن تطالعها مع سائر قصة شركة روكفلر في أيامها الأولى في الاتهام المشهور الذي قدمه « إيدا تار بل » في كتاب « تاريخ شركة روكفلر » ؛ وحسبنا أن نشير إلى أن رجال الزيت الذين نظموا صفوفهم ، ظفروا من القضاء باتهام شركة روكفلر بأنها تآمر غير مشروع يراد به عمقلة تجارة الزيت ، وأرغم روكفلر على حل شركته والتعهد بالآلا يحصل لنفسه من شركات الطرق الحديدية على تخفيض جديد ، وقاطعوه بضعة أشهر ، ووقفوا في استشارة عطف كثير في نفوس الناس . والحقيقة أنهم ظفروا في الموقعة الأولى من تلك الحرب الطويلة التي نشبت بين شركة روكفلر وبين معارضيها الثائرين عليها والتي ظلت قائمة حتى الحرب الكبرى ، وعندئذ كتب لها النصر لأن روكفلر لبث إحسانه يتدفق مدة تربي على عشرة أعوام من جهة ، ومن جهة أخرى دعت ضرورة إنتاج الزيت إنتاجا مطردا مستقيما لسد حاجة الجيوش والأساطيل الآلية ، أن تشمل الحكومات شركات الزيت الكبرى بحمايتها ، فلا يمتد إليها نقد الصحف .

ومع ذلك فلم تكن تلك الصدمة الأولى لتلقى الروع في نفس روكفلر؛ فلم يأبه لها، ولم يبدل من أجلها شيئاً من طريقته حتى في تفصيلاتها، وكان قد اعتزم في ذلك الوقت أن يضع زمام النقل في يديه ليتمكن من السيطرة القوية على تجارة الزيت كلها، وقد فعل، واستعان بالرشوة على بلوغ غايته أثناء مخاصمة أعدائه له، حتى اشترى كل ما يملكه بعض أعدائه ذوى الخطر، واتفق مع الطرق الحديدية على نظام جديد لتخفيض الأجور قبل أن يعيدَ بالاعود إلى التخفيض بأيام قلائل؛ فدرأ عنه الهزيمة هذا الاتفاق مع الطرق الحديدية، واحتفظ لنفسه بأسماء الشركات التي اشتراها أو ضمها، وأنذر كل خط حديدي على حدة أنه حارمه من نقل زيتته حرماناً تاماً إذا حدثته نفسه بالإساءة إليه، ولم يدرك أصحاب الخطوط أن روكفلر كان في الواقع يقسم زيتته بين الخطوط كلها؛ ولما كانت القطارات هي الوسيلة الوحيدة لنقل الزيت، فقد استطاع أن يضارب في ثمن الزيت سائر التجار بفضل ما ظفروا به من تخفيض في أجور النقل، فإن لم يفلح هذا في حمل منافسيه على البيع، دبر حرمانهم من نقل زيتهم ومن خزنه أو أفسد ما لديهم من الزيت الغفل؛ فإذا اتحد المنتجون لمعارضته سد في وجوههم شعاب التصريف بحيث يعجزون عن حفظ زيتهم، وأسوأ ما ياجأ إليه أن يشتري فريقاً من معارضييه ليهزم به الفريق الآخر؛ وإذا ما أمره القضاء بحل شركته أطاعه في الظاهر، وبديل اسماً أو اسمين من أسماء شركاته، ثم مضى في أداء عمله في سائر وجوهه كما كان يؤديه قبل حكم القضاء؛ أما إذا اتهم بالتآمر، سعى إلى سحب الاتهام بأن يعد مقدميه بصفقة رابحة، ثم لا ينجز ما وعد.

ولم تستطع الطرق الحديدية نفسها أن تقاومه، حتى إن إحداها، وهو خط بنسلفانيا، اجتراً مرة أن يعارض فيما يطلب حرصاً على حقوق الشركة المحترمة

الوحيدة الباقية من شركات التقطير المستقلة ، فذبر بين عمال ذلك الخط إضراباً حتى وقف العمل فيه ، ونشأ عن ذلك هبوط في ثمن الزيت أرغم شركات التقطير على البيع والانسحاب .

ولما تبين أن الأنابيب ستحل في نقل الزيت محل الطرق الحديدية ، اتخذ روكفلر في خطوط الأنابيب نفس السياسة التي اتبعها مع شركات التقطير ؛ ولما حاول المتحجون أن ينشئوا لأنفسهم خطاً من الأنابيب ليؤدي ما كان يظن أنه مستحيل الأداء -- أى ليدفع الزيت الغفل بالمضخات إلى البحر عبر جبال الليجاني -- وقف حجر عثرة في كل خطوة يخطونها ، وهاجمت صحفه أشخاص القائمين بالمشروع لتسيء إليهم لدى الناس ، وأخذ وكلاؤه يلقون الرعب في نفوس المزارعين بما يروونه لهم من أن تسرب الزيت تحت أرضهم يتلفها ، وقد يشعل بها ناراً لا يحمد سعيها ؛ هذا إلى أن عصابات من عمال الطرق الحديدية جعلت تهاجم عمال الأنابيب . وفشلت المحاولة الأولى في إنشاء خط من الأنابيب لا يساهم فيه روكفلر ، واستعان على إحباطه بصنوف المعارضة التي كان يلجأ إليها ؛ ثم نجحت المحاولة الثانية ، وسكن أرباب المشروع ما لبثوا أن تبينوا أن لروكفلر ثلث الأسهم ، وأن أعوانه يحتلون أقوى المناصب في مجالس الإدارة ، بحيث استطاع أن يفرض عليهم سياسة يعملون بمقتضاها .

ولما تم له احتكار الأنابيب ، جدد نظامها ، وإن فضله في ذلك لعظيم ، فما احتكر لينهب ويعطل ، بل أصبحت الأنابيب بفضل إشرافه ، شركة شهد لها الناس بالجدارة القصوى ؛ ثم استكشفت منابع زيت جديدة عام ١٨٧٨ ، فلم يلبث أن أنشأ في ثلاث سنوات « خطوط الأنابيب المتحدة » وهي شبكة جديدة كاملة من الأنابيب ، تنقل الزيت الجديد ، وعرف كيف يسترد ما أنفقه في

هذا العمل الجبار من أرباب الآبار ، بأن تعمد تخفيض ثمن الزيت الغفل مع احتفاظه بثمان الزيت المقطر ، وارتفعت شكوى هؤلاء بأن روكفلر يخص نفسه بالربح كله لما يتقاضاهم من أجور النقل والخزن ، والأصح أن يقولوا إنه خص نفسه بما كاد أن يكون الربح كله ، ومع ذلك فلم يكن في مقدورهم أن يقاوموه مقاومة فعالة ، فهو وحده ناقل الزيت وشاريه .

وحينما كان يهيئ لنفسه سيادة تلك التجارة ، كان كذلك يحمل حملة شعواء من أجل الأسواق ، ولم يقتصر في ذلك على الولايات المتحدة ، بل عداها إلى دول الأرض جميعاً ؛ وكانت طريقته دائماً أن يبلغ بمشروعه حد السكالم ، وأن يحرص على أن يكون عماله مهرة أمناء ، وأن يستغل في غيره الخجل أو الشره أو الخيانة ما استطاع ، فما أدبر القرن الماضي حتى كان روكفلر قد أنشأ في البلاد نظاماً من العسس والرشوة قيل في دفته إنه كان يحيط بواسطته علماً بكل حركة لكل برميل من زيت الشركات المستقلة ، فإذا اشترى بائع متجول من أصحاب العربات اليدوية جالوناً من شركة غير شركته بادره وكيل عن شركة روكفلر ، وعمل على إفلاسه أو ألقي في نفسه الرعب أو قاومه بتخفيض ثمن الزيت .

وكانت شركة روكفلر تستغل طوال ذلك الأمد بمحاربة القانون الذي يعارض اتحاد الشركات ، ومعارضة القوانين الخاصة التي يستعين بها المستقلون عنه الذين يتناقص عددهم شيئاً فشيئاً في استصدار الإجازات والرخص ؛ ويقال إن روكفلر اشترى العضوية في مجلس الشيوخ بالولايات المتحدة لم أمين صندوقه ، وإن وكلاءه كانوا يترددون في أبهاء المجالس التشريعية الصغرى .

ولكن أنباءه أخذت تتسرب شيئاً فشيئاً ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل افتضح الأمر دفعة واحدة في جملة من التهم — ولقد بالغ الناس في الأمر.

فكان إذا رفع أحد دعواه أمام القضاء على شركة روكفلر — وما أكثر هذا — سارعت الصحف إلى نشر الاتهام في صخب وضجيج — مع أنها شركة لها من ثروتها ما يحول دون اتهامها ؛ وقد أفاحت الصحف غير مرة في إثارة الناس على اتحاد الشركات ، أو قل كان أعداء هذا الاتحاد يتخذون الصحف وسيلة لإثارة الناس . أما روكفلر فلم يزل في كل مراحل حياته ينفث العداوة والمقاومة حتى يشعر كل تاجر إذ ذاك أنه على الرغم من وجوده في بلاد الحرية ، فإن شركة روكفلر تهدده بالإفلاس إذا لم يذعن لقوانينها . وقد كان يلوح في تلك الأيام الزاهرة أن في العالم ثراء يكفي الناس جميعاً ، ولكن سرعان ما آمن الجميع بأن الجشع الفاجر وحده قمين أن ينشر الفقر في أرجاء البلاد ، من أجل صناعة واحدة . وفي الحق إن روكفلر قد وفق في سياسته توفيقاً عظيماً ، حتى لم يعد أحد يشعر بأمن ، فما يدرى صغار الصناع في كل فروع الصناعة حين يأوون إلى مخادعهم ، إن كانوا سيستيقظون فيجدون معاشهم المستقل يهدده لون جديد من الخطر ؛ ولم يسع المستهلك العادي إلا أن يعتقد بأن شركة روكفلر ترفع ثمن الزيت وتغني باستمرار ارتفاعه ، فلا تهبط به إلا إذا أرادت أن تهوى بتاجر إلى الإفلاس . وقد غدت مقاومة اتحاد الشركات غاية رئيسية لسياسة الأحزاب ، حتى انتهى الأمر إلى ثورة تشريعية أدت في عام ١٩٠٧ عند الفراغ من إحدى القضايا الكبرى إلى أمر شركة روكفلر للمرة الثانية بالحل ، وأن تدفع للدولة تسعة وعشرين مليوناً من الريالات مقابل التكاليف والعقاب ؛ ويقال إن روكفلر تلقى هذا النبأ وهو يلعب الجولف ، فسكت هنيئة ثم قال : « إن في الوقت متسعاً قبل تنفيذ هذا الحكم » ومضى في لعبته .

ولكن الغرامة لم تدفع والحكم لم ينفذ ، فقد تظاهر في سنة ١٩١١ بحل

الشركة ، ولكن أحداً لم يتوقع قط أن شركة روكفلر ستغير شيئاً من وجهتها أو سياستها ، لا بل أشيع أن روكفلر أفاد ثروة أخرى في سوق الأوراق المالية حين أحدث في أسهم شركته حركة سابقة لأوانها ، ولم يصدقه أحد حين زعم أنه تفجى عن إشرافه على شركته عام ١٨٩٥ ، أى في الوقت الذى كان مفروضاً أن تحل فيه الشركة ، وأنه لم يعد في الحياة إلا فرداً كسائر الأفراد ، لا يعنى إلا بشؤون أسرته وبما ينفق من أوجه الإحسان ، فقد كانت الأفكار السائدة إذذاك تملى على الناس هذا الموقف إزاءه ، فلم يصدقوا كلمة واحدة مما أقسم رجال روكفلر على صحته ، إلا إذا كان قولهم في غير صالح الشركة ؛ وقد حدث مرة أن حوكم رجل بتهمة إتلاف خط من خطوط الأنابيب التابعة لشركة روكفلر ، فاعترف المتهم بسرقة مقداراً كبيراً من زيت الشركة فبرأه المحلفون على الفور .

ولكن هذا المقت الذى أحسه الناس نحو روكفلر قد أخذ يمتحى ، وقد يعزى ذلك من جهة إلى شيخوخته ، ومن جهة أخرى إلى حرية مبادئه ، غير أنه راجع فوق ذلك إلى تغير في وجهة النظر لفائدة عمله ، فقد كان المثل الأعلى في المجتمع الأمريكى أيام صعود روكفلر أن تقوم في البلاد طائفة من المشروعات الصغيرة المستقلة الناجحة ، التى من شأنها أن تثير تنازعاً قوياً يؤدى بالكثير من إلى الفشل ، ولكن ميدان العمل مع ذلك يكون فيه متسع من الأمل لكل إنسان بأن يكون في عمله كجاره أو يفوقه قليلاً لنشاطه ، فهو تنافس لا يشوبه الدهاء الخبيث ، وكل إنسان يصيح بملء فيه « عس واسمح لغيرك أن يعيش » و « أفسحوا في مجال الفرصة لكل إنسان » ؛ والحق أن هذا المثل الأعلى قد أنتج حياة كثيفة ضيعت مجهود المجتمع ، حياة التنافس الضيق والقتال العنيف والنصر الوضيع ، وفسدت السياسة من أساسها وفقد القضاء ثقة الناس فيه . والصحف

تصخب بغير رادع من الضمير ، ولم تسر في الناس روح الخدمة العامة . ولم يكن لهم « حاسة الدولة » ، ولم يعرفوا غرضاً يتعاونون على بلوغه ، وكان العالم يسمح للنزعة الفردية بالنمو ، تلك كانت الدنيا التي ولد فيها ج . د . روكفلر بما له من قوة الدأب على غايته ، ومقدرة على التنظيم تفوق ما لسائر الناس ، وقد عرف فيه صفاء الذهن وقوة الابتكار ، ولكن يعوزه زاجر الضمير في عالم مبلبل الفكر لا ضمير له ؛ إنه لم يكن في حياته أخبث ممن يعيش بينهم ، ولكنه عرف بغير شك كيف يحيا حياة الشر أمهر من سواه . وهكذا امتلأ العالم من حوله بمقاومة صرعاة وشكوى المغلوبين الذين كانوا من قبل من الغالبين ، وإن معظم ما كتب ضده من المؤلفات لتزخر بالآراء المتناقضة ، كالقول بأن الرجل لا ينبغي أن يسرف في منافسته إن كان يعيش في عالم قوامه التنافس .

ويستحيل على من يعلم شيئاً عن الظروف التي نشأ فيها روكفلر أن يعتقد بأن تجديد نظام العمل الخاص والارتقاء به حتى يتسع نطاقه ويصبح قوة عالمية يمكن أن يتم مع الجور والعدل اللذين يملهما الضمير ، إذ لو كان كريم المعاملة لاستغل أعداؤه ذلك السكرم ، ولو كان عادلاً لأسىء فهم عدله ؛ لهذا سار في منازلة منافسيه وفق قواعد التنافس التي شهداها حوله ، ففضى بذلك على المنافسة — وكان ذلك منه فضلاً عظيماً في عالم الاقتصاد — ولو كان نجاحه عاراً لألقيت التبعة على نظام التنافس ، لأن روكفلر قد مثل في شخصه مبدأ الفردية إلى أقصاه ، فوصل به إلى نتيجة المنطقية وهي الاحتكار . ولعل أحسن ما وجه من النقد الوضيع لخطته في الحياة أنه لم يجد باحسانه الباهر الرائع إلا ليسكت السنة النقدية أو ليكفر عن نفسه من غضب الله الذي يؤمن بعقيدته الدينية ، غضباً لا يحيص عنه ؛ ومما يؤخذ به أنه خالف معظم السراة الفاجحين المغامرين في

ميدان الصناعة في زماننا هذا ؛ فلم يشتر « اليخوت » والقصور والنساء ، ولم يرع المسارح ولم يقامر ولم ينشئ أبناءه على التبذير ؛ ولكن الدأدائه لا يهتمه بأثر واحد من آثار الحضارة التي عهدناها في محدثي الغنى ؛ نعم ! إنه حط من قدر المجالس التشريعية واشترى أعضائها بالمال ، ولكنه لم يفعل ذلك إلا لأنهم كانوا يُشترَوْنَ ، ولم تكن غايتهم الخدمة العامة . وهكذا أخذ يكبر وينمو في كل مراحل حياته ، وإن يكن قد تغير على مر الأيام ، فتطور فيه اليافع الذي نشأ على فضيلة الدين والاعتماد على النفس ، والذي يوفر بضعة ريات في كل أسبوع ويتهز الفرصة السانحة بكل قوته ، حتى أصبح عالماً في إدارة الأعمال ، وامتدت آراؤه وآثاره من تنظيم الأنايب إلى تنظيم البحوث العلمية ، مستعينا في كلتا الحالتين بدقته التي لا تفسد بالعاطفة .

لقد حاولنا أن نسوق الحقائق عن هذا الرجل النافع ، وأن نبسطها أمام القارئ ليتدبرها ويرى رأيه فيها ؛ ومما أخذ عليه حطه من مقاييس العمل في أمريكا ، وذلك حقا ذنب لا يعترف ، ولكن هل فعل ذلك ؟ لقد عاش في الدنيا التي عاش فيها جاي جولد وهتي جرين ، فإن لم يكن قد رفع مستوى التعامل كما فعلت أسرة روتشيلد ، فهل نزل به ؟ إن وجهها من وجوه روكفلر كان لا بد من ظهوره في أمريكا . ومن خير العالم المحض أنه كان كتوما دوروباً لا تشوبه شائبة من الغرور الدنيء وحياة الشهوة والميل إلى الشعب . وقد يروعك دأبه وتسوته اللذان لا يعرفان سبيلا إلى العطف ، ولكنه رغم ذلك قوة دافعة إلى الأمام وعامل قوى على الإنشاء . ولما كان الشبيه يلد الشبيه ، فقد عمل على تكوين أسرة ، ولم يكن يقصدها لذاتها ، بقدر ما أراد أن ينشئ هيئة عظيمة للبحث العلمي يخصص أسرته لخدمتها .

توماس ألفا أديسون

إذا جاز لنا أن نستثنى « جورج ستيفنسن » مخترع القاطرة البخارية فلن نجد بين الناس من أضاف إلى الثروة أكثر مما أضافه أديسون ، فلا شك أن عقله أنبع العقول المعروفة التي خصت نفسها لتطبيق العلم تطبيقاً تجارياً . ولد أديسون في عام ١٨٤٧ ، في ميلان من أعمال أوهيو ، ولم تتجاوز دراسته المنظمة ثلاثة أشهر في مدرسة عامة في بورت هرن ، بولاية متشيجان ، وتعلم القراءة والكتابة في منزله ، وأما سائر ثروته العلمية العظيمة فقد حصلها بنفسه مدفوعاً بحب استطلاع لا يفتر . وكان أول مخترع له آلة لم يكن أحد بحاجة إليها -- آلة يستطيع بها أعضاء جمعية ما أن يدلوا بأصواتهم بضغط طائفة من الأزرار ، فتسجل الآلة الأصوات وتعددها -- وكانت بالغة الدقة في عملها ، فرفض المجلس التشريعي استخدامها لأنها تعد الأصوات في دقة أكثر مما ينبغي ، فكان هذا الرفض عميق الأثر في نفس المخترع الناشئ ، وصمم منذ ذلك الحين ألا ينتج إلا ما يحتاجه الناس ، لا ما ينبغي في رأيه أن يحتاجوه ، فخفزه هذا العزم أن ينشئ ست صناعات جديدة هيأت عمالاً لملايين الأفراد ، واتسع بها نطاق المدنية ، وامتد أفق الحياة حتى كاد يشمل من يعيش في ظلال هذه المدنية جميعاً . ويقول عنه هنري فورد إنه زاد من كفاية الصناعة في العصر الحديث ، وهو يرجع الفضل إلى أديسون في أن أصابت أمريكا من النجاح أكثر مما أصابت دولة أخرى على وجه الأرض (١) .

وقائمة مخترعاته أطول من أن نسوقها هنا -- فقد سجل ألفاً وخمسمائة اختراع

(١) انظر كتاب هنري فورد وعنوانه « صديق المستر أديسون » واقرأ أيضاً كتاب « أديسون : حياته واختراعاته » لمؤلفيه Martin و Dyer .

يقف المرء إزاءها مشدوها لشدة تنوعها و بعد شأنها على السواء — فهو الذى جعل المسرة فى حيز الإمكان ، وصير البرق وسيلة عامة من وسائل الاتصال ، وأنشأ سراجا وهاجا (على رواية السير جوزيف سوان) يرسل ضوءا يكفى عمارة بأسرها ، ولزيادة نفع ذلك السراج ، أعد جهازا كاملا يولد التيار وينشره . وهاك ما يرويه عن نفسه : « كان لابد لى من إعداد كل شئ : المولدات الكهربية ، وضوابط السرعة ، وآلات القياس ، والأزرار ، والأشرطة ، والثوابت ، والموصلات التى تمتد تحت الأرض ، وطائفة غير تلك من الأجزاء التفصيلية حتى شريط العزل ، فكل شئ جديد مبتكر ، إذ لم يكن فى العالم من هذه الأدوات إلا الأسلاك النحاسية ، وحتى هذه لم يكن يتحقق فيها العزل التام » .

ولم تكن كفاية المولدات الكهربية إذ ذاك إلا أربعين فى المائة ، فجاء أديسون بمولد كفايته تسعون فى المائة ، وكان هذا خطوة إلى الأمام فى الطريق المؤدية إلى تحرير الصناعة من الآلات العتيقة لتحل محلها الآلات الحديثة السريعة ، وكذلك جعل الآلة الكاتبة أداة عملية ، وساهم فى تهذيب « بطارية الخزن » Storage Battery ، واخترع مكبر الصوت ، والحاكى ، والخيالة التى كانت بداية السنا كما هى اليوم ، وأنشأ أول ما عرف من العربات الكهربية ، وابتكر القطار الكهربائى — ولكن الألمان سبقوه فى هذا — ، وابتدع طرقا لصناعة الأسمنت واستعماله عملت على أن تستخدم هذه المادة فى البناء وتتخذ وسيلة فنية لعزل الحديد الموجود فى الرمل وإذابته ، وابتكر أوراق الشمع وآلة للطباعة بها ، وهى تفيد فى طبع الخطابات نسخا عديدة ؛ وكان له إبان الحرب تسعة وثلاثون اختراعا نفع بها أسطول الولايات المتحدة ، وقد اعترفت له أمته بأنه من أعظم رجالها الأحياء ، ولكنه اضطر رغم ذلك أن يشكو من القائمين بأمر الأسطول

لأنهم لم يحفلوا كثيرا بمخترعاته التي قدمها إليهم .

وما أعظم قائمة اختراعاته ، على الرغم من أن النظرية والخطوات العملية الأولى في معظمها كانت قد تمت على أيدي آخرين . ولنسق المسرة مثالا لذلك ، فقد أنشأ نظريتها « ريس » من أهل فرانكفورت ، قبل أن تستخدم بسبعة عشر عاما ، ثم جاء الأستاذ « بل » وأعد جهازاً يحمل الصوت مدى عشرين أو ثلاثين ميلا ، ثم تبعه أديسون فاستخدمها في شؤون التجارة ، بعد أن كانت مجرد تجربة رائعة^(١) ؛ وذلك بعينه ما حدث في سراج الوهاج فحينما كان يفكر في إعداد أديسون بأمريكا ، وسوان بإنجلترا ، كان السائد مصباحا دائريا يبعث ضوئه صوتا كالصفير وضوء خافتا ، وقد بطل استعماله اليوم . وكان الناس يستعملون للتوصيل الخيط الوهاج الرديء ، وهو الخيط المعدني الذي إما أن يضيء وإما أن يشتعل ، ولم يعرفوا الخيط الفجوي الذي يضيء ولا يشتعل ، فأخذ أديسون على نفسه أن يجد خيطاً مُطَوِّئاً يظل احتراقه فترة طويلة ، ومصباحا يستطيع عامة الناس أن يستخدموه ، فيكون رخيص الإنتاج قليل التكاليف في استعماله . وأما اختراعه الهام المبتكر ، فهو الحافى ، وقد لبث زمنا طويلا يعده لعبة من اللعب ؛ وأما الخيالة فقد عرفت فكرتها منذ مدة تقرب من القرنين — وهى أن الصور المتلاحقة إذا انعكست على شبيكية العين فى سرعة تزيد على حد معين ، أحدثت وهما بالحركة — واتفق أن جاء اختراع شريط « السليويد » فى نفس الوقت الذى كان يفكر فيه أديسون فى الموضوع ، ولكنه لم يشغف به شغفا يدفعه إلى الاتصال بزمرة الباحثين الذين يحاولون

(١) كذلك الأمر فى مكبر الصوت ، اخترعه أولا « دافيد هيو »

بتجار بهم أن يلتمسوا وسيلة تظهر بها الصور على الشاشة ، ووقفوا آخر الأمر إلى إخراج السما إلى عالم الوجود .

وقد أتجه بعنايته إلى الكهرباء في بداية الأمر بفضل حادثة عارضة — وكان هذا الفرع من فروع العلم يرتقب رجلا له مثل مواهب أديسون بصفة خاصة ، ولكن كانت الكيمياء أول ما شغف به ، فلم ينقطع في صباه عن البدء في المشروعات الجديدة ، لعله يكسب بها مالا يشتري به الكتب والأدوات لتجاربه — إذ كان ينبغي أن يطالع كل ما كتب عن كل نقطة ، وأن يجري كل تجربة بنفسه ، لأنه تبين أنه يفيد من النظر إليها بعينه حقائق أكثر مما جمعه مبتكروها ، أو على الأقل أكثر مما سجلوه .

ولكن هذه الطريقة في العمل باهظة التكاليف على فقر أبويه ، فأبوه تاجر غلال وأخشاب ، وأمه معلمة ، ولما كره المدرسة علمته أمه للمبادئ الأولية التي استعان بها فيما بعد على تعليم نفسه ، حتى إذا ما بلغ الثانية عشرة من عمره ، استُخدم بائعا للصحف في أحد الخطوط الحديدية التي تمتد بين بورت هرن ودرترو ، فأضاف إلى عمله هذا أعمالا كثيرة أخرى ابتكرها بنفسه فافتتح الخوانيت في بورت هرن ، واستخدم بعض الغلمان يبيعون الخضر في درترو ، ويبيعون المؤن للمسافرين في القطارات التي تمر بذلك البلد ، وأصدر صحيفة أشرف عليها بنفسه ، وكان يطبعها في القطار ذاته في معمل هيأه في إحدى عربات الأمتعة ، وكان يرجي له أن يبلغ بها حدا بعيدا من النجاح ، لولا أنه أشعل النار في العربة بمادة الفسفور ، فخرم المعمل وطرده من القطار .

واشتغل بعد هذه الحادثة عاملا في البرق — فهو من أولئك النفر الذين يقتدرون على علم ما يريدون العلم به ، وأن تبلغ بهم الخبرة فيما يعلمون حد

الإخصائي الخبير ، فلما مهر في أعمال البرق استطاع أن يجد العمل أيها شاء ، فأخذ يجول في أرجاء كندا والولايات الشمالية الشرقية بضع سنين ، يشتغل في البرق حيناً ، وفي تحرير مناقشات المجلس التشريعي حيناً آخر — وهو عمل يقتضيه أن يملأ الفجوات الشاغرة في أحاديث الأعضاء التي تنشأ من فساد الآلة المستعملة في ذلك الحين — ومضى في تلك السبيل مخلفاً وراءه عدداً من الاختراعات الصغيرة التي لم تدر عليه مالا ، بل جر مخترع منها عليه إشكالا خطيراً .

ذلك أن عمله كان إرسال الرسائل الحين بعد الحين في جوف الليل من المحط الذي كان يعمل به إلى المحط التالي له في الطريق ، فاخترع آلة تنوب عنه في ذلك العمل ؛ فحدث ذات مساء أن استُدعي لأمر هام فلم يُجِبْ ، فقصدت جماعة إلى مكانه تبحث عنه فألفته غارقاً في نعاس مطمئن بجانب آله .

وسنحت له أول فرصة حقيقية حين كان في نيويورك آتياً إليها من بوسطن — حيث اخترع مسجل أصوات الجمعيات — ليبيع فكرة آلة برقية يمكن استخدامها لإرسال رسالتين في اتجاهين متضادين في آن واحد ، فأخذتها عنه « شركة تلغراف المحيط الهادي » ، ويقال إنها أفادت منها ربحاً عظيماً ، ولكنهم أثبت أن تَنَقُّدَ المخترع شيئاً من المال ؛ وبينما هو يسير يوماً ، إذ شاهد حشداً صاخباً من الناس أمام أحد المكاتب ، فوقف مشدوهاً يستطلع الخبر ، فلم أن آلة البرق في سوق الأوراق المالية قد أصابها العطب ، وذاع بين الجمع أن المضاربين قد أفسدوا الجهاز ليحولوا دون ذبوع الأنباء ، فدخل أديسون من فوره المكتب ، وعرض أن يصلح العطب في ساعة واحدة ، وقد أنجز

وعده ، فعين في مقابل ذلك مديراً فنياً لتلك الشركة The Gold Reporting Company براتب قدره ثمانمائة ريال في الشهر .

فكانت تلك أول ماشغل من الوظائف العالية ، ولم يوفر في تلك الوظيفة مالا فحسب ، بل أتيح له أن يلتقي برجال كان له في أنفسهم أطيب الأثر ، فأصبحوا فيما بعد من عملائه ؛ وسرعان ما أنشأ شركة صغيرة أسماها « شركة بوب وأديسون » وأقام فيها مصنعاً أخذ ينفق معظم وقته فيه لإجراء تجاربه ؛ وهناك ابتكر عُدّة في جهاز من أجهزة سوق الأوراق المالية استطاع أن يبيعهما بأر بين ألفاً من الريالات ؛ ومنذ ذلك الحين أخذ سيل مخترعاته يتدفق تدفقاً لم ينقطع . ويظهر أنه لقي في أول أمره عسراً شديداً في بيع مخترعاته تلك ، وهذه ناحية لذيذة جداً وجديرة بأن نقف عندها طويلاً أشد اتصالها بموضوع هذا الكتاب . فقد كنا ندرس في الصفحات السالفة جامعي المال ، ولسكنا الآن بصدد شيء آخر ، بصدد رجل مبدع ألهم في تحصيل المال إلحاحاً ؛ ومع أنه كان يؤدي واجبه مدفوعاً بعوامل تختلف أشد الاختلاف عن حافز المال ، فقد أخذ جامعو المال يقفون حجر عثرة في سبيله ، وتمسكوا من هزيمته حيناً بعد حين ؛ ومما يروى عن شركة إنجليزية أنها اشترت جهازاً آلياً المسيرة وأبت أن تدفع له ثمناً ، وأن بعض الشركات الأمريكية شغلته بإقامة الدعاوى عليه أمام القضاء ، ولم تأجره على عمله إلا مكرهة مغلولة اليد ؛ ولكنه بلغ من ذبوع الصيت لدى شركات البرق مبلغاً حداً بتلك الشركات أن تعرض مشكلاتها عليه ليحلها لها . ولقد استطاع أن يوفر في أربعة أعوام ما يدنو من نصف مليون من الريالات ، وعندئذ ابتنى العمل والمصانع والمكتبة والدور في حديقة منلو ، التي طبق صيتها الخافقين فيما بعد .

وأنحصر مجرى حياته منذ ذلك الحين ، فتزوج ، وأخذ ينفق الجزء الأعظم من حياته في العمل بين عماله وأعوانه ، وطفق خلال ذلك ينتقل من بناء إلى بناء ، ويقصد إلى أوروبا بين آونة وأخرى ، ليقدم مخترعاً ، أولينزل ضيفاً على مستضيف . كان يتناول معظم وجباته في معمله ويستقبل أضيافه ، وينشد مع عماله الأناشيد في أوقات الفراغ ؛ وكانت طرائقه في العمل مع هذا بالغة من الدقة أقصاها — فيبدأ الموضوع من أوله ، ويطلع كل شيء ، ويجرب كل شيء ، ويسجل كل ما يعن له في مذكراته ؛ ولسكنه عرف كيف يحيط نفسه بأكفاء الرجال ، وكيف يتصل بأعلام الفكر صلة تعاون ؛ وكان يسهه أن يصل في عمله الليل بالنهار إذا أراد ذلك ، فلا ينام إلا إذ فرغ من عمله ؛ ولم يكن الزمن يعنى عنده شيئاً — فقد نزع العقارب من ساعة معمله ، وكان يريد من أعوانه أن يعملوا على غرارهم الفذ ، وهكذا تشتد رغبة الإنسان إلى العمل الذي يُشغف به كأنما ما كان ، وهكذا قويت عاطفة أعوانه نحو ما يعملون ، وازدادوا ميلاً إلى عبادة بطلمهم حتى رضى أكثرهم بنظام العمل المتصل ، بل وأحسوا فيه لذة وممتعة ؛ وكان إذا خيل لأحد عماله أنه من المهارة بحيث لا يسير العمل بدونه ، وأخذ يملئ الشروط التي يرى أن يعمل بمقتضاها ، سارع أديسون إلى ابتكار مخترع صغير ، وإلى تدبير خطة في العمل ، بحيث يصبح في مقدوره أن يتخلص من ذلك العامل .

ولم يشك الرجل قط كثرة الإنفاق في سبيل عمله ، فلقد كان لا ينفق عن تجاربه أعواماً حتى يهبطه الدين ، لكي يجرب كل وجه ممكن من وجوه التركيب ؛ واختبر فيما اختبره في أواخر أيامه ما يربو على خمسة عشر ألفاً من صنوف النبات عسى أن يجد من بينها نباتاً يمكن زراعته في الولايات المتحدة ، وينتج محصولاً

محققا من المطاط ، لتفيد منه البلاد إذا ما نشبت الحرب ؛ ولقد أنفق أربعين ألف ريال على ما أجراه من التجارب ليحصل على ضوء السكهرباء ، قبل أن يوفق إلى ما وُفق إليه بادئ الأمر من خيط فخمى ساذج ، خيط يستغرق احتراقه خمساً وعشرين ساعة ، ويجهز من خيوط الحياكة ، ولكنه من ناحية أخرى ظفر بمكافآت مالية عظيمة ؛ وكان يقوم بنفسه بصنع مخترعاته بدل أن يبيع حق الصنعة لسواه . وهكذا ألزمته الضرورة أن يضرب في ميدان الأعمال فأجاد ؛ فلما لم يعمم مصباحه اتفق على بيعه بديا بأربعين سنتيا على الرغم من أن صنع المصباح يكلفه خمسة وعشرين ومائة سنتيم ؛ ولما بحث يحتمل هذه الخسارة أعواما ثلاثة — كانت نفقة صناعة المصباح تهبط خلالها ، بينما يزداد المبيع زيادة سريعة حتى إذا ما جاء العام الرابع ، هبطت السكّلف إلى سبعة وثلاثين سنتيا ، فاسترد كل ما خسر ، واخترع آخر الأمر آلات تصنع المصابيح ، فما كان يكلفه صنع المصباح إلا اثنين وعشرين سنتيا ، ثم باع العمل فيما بعد .

ولم يكن يخفى أن أديسون ليس ممن يعنون بالمال من أجل المال ، وماذا يلجئه إلى ذلك ؟ فليس من شك في أن غريزة التحصيل تختلف عما أوتيته من المواهب أشد الاختلاف ، ولا بد أن تكون أسباب الترف وما فيها من لذائذ قد بدت لهذا المخترع العظيم ضربا من الحياة الراكدة الساذجة ، فلم يكن له من وقته متسع ينصرف فيه إلى الإنفاق ، ولم يحس الحاجة إلى أن يحيط نفسه بالشواهد البارزة التي تذكره بما لقي في عمله من نجاح ، وكل ما يرجوه أن يكسب المال ليمضي في عمله — العمل الذي أتاح للإنسانية معينا لا ينضب من الثراء ؛ ومع ذلك فلم تسر مخترعاته كلها في طريق الرقي — لأن العالم بنظامه القائم اليوم لا يكلف من يشتري اختراعا أن يستثمره إلى أقصى الحدود ، بل لا يلزمه أن

يُتَمَتَّعُ بِهِ الْبَقَّةُ ، فَرَبَّمَا بَدَأَ لِإِحْدَى الشَّرَكَاتِ أَنْ صَالِحُهَا يَقْتَضِي أَنْ تَقَاوَمَ مَخْتَرَعَا جَدِيدَا دُونَ أَنْ تَعْمَلَ عَلَى إِخْرَاجِهِ أَوْ إِخْرَاجِ مَا يَفْضُلُهُ . وَإِنَّهُ لَمَّا يَعُودُ بِالْخَيْرِ أَضْعَافًا مَضَاعِفَةً أَنْ تَقُومَ « دَوْلَةٌ عَالَمِيَّةٌ » فَلَا تَقْتَصِرُ عَلَى شِرَاءِ مَخْتَرَعَاتِ الْعُلَمَاءِ مِنْ أَمْثَالِ أَدِيسُون ، بَلْ تَشْتَرِي الْعُلَمَاءُ أَنْفُسَهُمْ — فَتَقْدُمُ إِلَيْهِمْ كُلُّ مَا يَرِيدُونَ لِيَمْضُوا فِي تِجَارَتِهِمْ ، وَأَنْ تَتِيحَ لَهُمْ حُرِيَّةَ التَّصَرُّفِ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ ، حَتَّى تُوَجِّهَ النُّتَاجَ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي تَعُودُ بِالْخَيْرِ عَلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ ؛ ذَلِكَ حَقٌّ وَاضِحٌ ، وَلَكِنَّهُ مُسْتَعْجِلٌ مِنَ الْوَجْهِةِ الْعَمَلِيَّةِ فِي وَقْتِنَا هَذَا .

هنري فورد

لَا رَيْبَ أَنَّ فُورْدَ — كَأَدِيسُون — أَسْمَى خَلْقًا مِنَ الْأَنْمَاطِ الَّتِي بَسَطْنَا لَهَا الْأَمْثَلَةَ فِيمَا سَبَقَ ؛ فَلَهُ عَقْلٌ كَعَقْلِ أَدِيسُونِ يَحْفَظُهُ إِلَى الْإِنْشَاءِ وَحُبِ الْإِخْتِرَاعِ الَّذِي يَخَفِّفُ مَجْهُودَ الْإِنْسَانِ . وَلَدَ فِي مَزْرَعَةٍ رِفِيفِيَّةٍ ، وَهَآكَ مَا يَقُولُهُ عَنْ نَفْسِهِ : « إِنْ أَوَّلُ مَا تَعْيِيهِ ذَاكَرَتْنِي مِمَّا أَثَّرَ فِي حَيَاتِي أَنَّنِي لَحِظْتُ أَنَّ الْمَزْرَعَةَ تَقْتَضِي عَمَلًا أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي ، وَمَا أَزَالُ أَشْعُرُ بِهَذَا نَفْسِي فِي الْعَمَلِ الزَّرَاعِيِّ ... وَكَانَ ذَلِكَ مَا صَرَفَنِي إِلَى عِلْمِ الْآلَاتِ » .

وَلَئِنْ كَانَ قَدْ تَذَرَعُ بِذَلِكَ لِإِرْضَاءِ عَقْلِهِ فِي عَصِيَانِهِ لِرُغْبَةِ أَبِيهِ ، إِلَّا أَنَّهُ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ يَحِبُّ عِلْمَ الْآلَاتِ بِغَرِيزَتِهِ حُبًّا لَاحِتَ مَخَايِلِهِ مِنْذُ بَدَايَةِ حَيَاتِهِ ؛ فَكَانَتْ لَعِبُهُ آلَاتِ كُلِّهَا ، وَيَقُولُ عَنْ نَفْسِهِ : « إِنْ أَكْبَرَ حَادِثٍ وَقَعَ لِي فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ الْبَاكِرَةِ هُوَ أَنَّنِي شَاهَدْتُ قَاطِرَةً مِنْ قَاطِرَاتِ الطَّرِيقِ .. وَثَانِي الْخَوَاطِثِ الْكُبْرَى هُوَ أَنَّ ظَفَرْتُ بِسَاعَةٍ » ، وَقَدْ اقْتَبَسْنَا هُنَا هَذِهِ الْعَوَامِلَ الثَّلَاثَةَ الَّتِي وَسَمَتَهَا بِطَائِعِهَا ، وَحَدَّدَتْ مَنَاجِهَا فِي كُلِّ مَا أَنْتَجَتْ فِي مُسْتَقْبَلِهِ مِنْ ضُرُوبِ النِّشَاطِ ،

فهو مهندس بطبعه ، وفي ذلك سر نجاحه ، فتراه في مصانعه يعلى من شأن الإخصائيين في الفنون الآلية ؛ ولما كان المستر فورد قد امتاز ، فضلا عن ذلك ، بما له من قدرة عظيمة على التنظيم ، فقد استطاع أن يتقدم بمصنعه ، وأن يسبق تلك المصانع التي لا يعنى أصحابها بإتمام العمل بقدر ما يعنون بربحه .

ولقد أضاف إلى غايته الأساسية ، وهي توفير الجهود البشرية ، غاية أخرى — وتلك أن يفكر بعقله الجبار كيف يصيب توفيقا إذا أعوزته السوق النافقة ؛ فما كان تحصيل الثروة لشخصه جديراً بعنايته ، فتراه يرد المال المكسب إلى العمل لينفقه في تحسين مصانعه : يرفع أجور عماله ، ويخفض أثمان منتجاته . وقد كاد يبلغ العمل عنده حد التقديس ، فخصص حياته له ، وهو محور فلسفته التي يبسطها في مؤلفاته ، ويؤمن بهذه النظرية إيمان من بدأ الحياة مسترشداً بقليل من الأفكار البسيطة ، ثم مضى في تنفيذها حتى أصبح بفضلها علماً ذائع الصيت يدير صناعة عظيمة .

وقد قام بادی الأمر بتدريب في علوم الآلات ، مستعيناً بساعته ، فما أن بلغ الثالثة عشرة حتى كان في مكنته أن يحلها قطعة قطعة ثم يعيد تركيبها ، بحيث تدل على الزمن الصحيح ؛ فلما بلغ عامه السابع عشر استأذن أباه في أن يكون تلميذاً في إحدى مصانع الآلات ، وكان يقضى أمسيته في العمل مع صانع للساعات ؛ ثم اعتزم ألا ينصرف بكليته إلى صناعة الساعات التي لا تساوي الواحدة منها أكثر من ثلاثين سنتماً ، لأنها ليست ضرورة للناس أجمعين ، وخير له أن يخترع قاطرة آلية تقوم بالأعمال الزراعية الشاقة ، وبالحرث بصفة خاصة ؛ ولتحقيق هذه الغاية شغل منصباً في إحدى الشركات حيث تسنح له فرصة العمل

في قاطرات الطرق ، على أن ينفق فراغه في مصنع صغير أعده في داره ليحاول إنشاء عربة تسير بقوة البخار ، وأفلح في ذلك ، وانطلقت العربة مدفوعة بالبخار ولكنه سرعان ما تبين أن العربات البخارية لا تتوفر فيها الأمن إلا إذا كانت ضخمة ، ولكنها إذا كانت كذلك ثقلت بحيث لا تتحملها الطرق الريفية الموجودة إذ ذاك ، وتقتضى من النفقة ما لا يستطيعه إلا أغني المزارعين ، أضف إلى هذا أن عامة الناس لم تبد ميلًا إلى الآلات الزراعية — فلم يعلم المزارعون مدى انتفاعهم بتلك الآلات إلا بعد أن شهدوا ما أحرزته السيارات من نجاح ؛ لهذا اتجهت عنايته إلى عربات الطرق ، وأخذ يفكر أولاً في عربات خفاف قليلة الثمن يستطيع كل إنسان استخدامها ، فلم تسعفه في ذلك الشركة التي يعمل فيها « شركة وستنجيهوس » فغادرها « وأخذ يتطلع إلى ضرب آخر من ضروب القوة الدافعة » .

وكانت القاطرة ذات الأسطوانة الواحدة التي تسير بالبترول في ذلك الحين قد استخدمت في إنجلترا فعلاً ، وطلب إلى فورد عام ١٨٨٥ إصلاح آلة من هذا الطراز ، فابتنى لنفسه آلة على غرارها ليثق أنه أدرك أساس تكويناها ؛ ثم بدأ يجرى التجارب لإعداد آلة ذات أسطوانتين ، فارتحل إلى دترويت وشغل منصباً في شركة كهربائية هنالك ، ولكنه كان يقضى من كل يوم نصفه ، كما ينفق أيام السبت كلها يفكر في إنشاء عربة من محض ابتكاره ؛ وكانت العقبة التي اعترضته جهله بما صنعه سواه في إعداد العربات التي تسير بلا جياذ ، وكان عماده الأساسي : « أن زوجته كانت أشد منه يقيناً بالنجاح » . حتى إذا ما جاء عام ١٨٩٣ وكان حينئذ قد بلغ الثلاثين من عمره ، سارت أولى عرباته « سيراً يرضيه » ، ومع أن قوام بنائها قطع وشظايا ، وانتزعت عجالاتها من دراجة ،

فقد استطاع أن يقطع بها ألف ميل ، دون أن تحتاج في سيرها إلى التبريد ، ثم باعها بمائتي ريال .

والتقى بأديسون في ذلك الوقت تقريباً — ولهذا اللقاء أهمية ، لأنه أثر في اتجاه تفكيره من جهة ، ولأنه اتى منه التشجيع فيما يتصل بإنشاء عربته من جهة أخرى ، وقد رفض منصب المدير العام لشركة أديسون في دتروا ، إذ اشترط عليه في قبول المنصب أن يطرح التفكير في عربته . فما أقبل عام ١٨٩٩ حتى أحس في نفسه القدرة على استثمار عربته ببعض الشيء ، فترك منصبه « والتحق بعمل السيارات » ، إذ لم تكن له المقدرة المالية التي تغذى مشروعا بأسره رغم ماله الكثير ، ولذا أنشأ شركة السيارات في دتروا وأقيم عليها رئيسا للمهندسين ، ولكنه لم يملك من أسهمها إلا قدراً قليلاً ، فلم يكتب النجاح لهذه الشركة ، لأن صاحب الفكر المبتكر وصاحب المال لم يلبثا أن دبت بينهما أسباب النزاع : أما فورد فقد أراد أن ينتج عربات جديدة أفضل لتكون خطوة نحو توسيع السوق ، وأما الشركة فلم ترد إلا الربح العاجل ، فصعق فورد لهذا الرأي ، وهو الرجل الذي ملكته فكرته ، وقد دنت سنه من الأربعين عاما خصصها لمجهود انفراد به ليتم عمله الذي ينشده ، ومع ذلك فلم يكن رأى الشركة صائبا من الوجهة المالية ، فلم يسعه إلا أن استقال سنة ١٩٠٢ « مصمما ألا يرتهن نفسه مرة أخرى بأوامر سواه » . ومنذ ذلك الحين حتى يومنا هذا لم يستطع قط أن يبيع المثل العليا التي يضعها أصحاب الأموال نصب أعينهم ، أو يهيج السبل التي يسلكونها ؛ فهو حقا شاهد قوى على أن تحصيل المال لا يصلح وحده حافزا إلى العمل .

وأسس في عام ١٩٠٣ « شركة فورد للسيارات » ، وأول ما بدأ به العمل أن أنشأ سيارة لها من سرعة السير ما يتيح لها أن تجلّى في حلبة السباق على

السيارة التي كانت لها بطولة السرعة في أمريكا ، ثم أسس الشركة على أساس الإعلان الذي اكتسبه من ذلك الحادث ؛ وكان في المؤسسة الجديدة وكيلا لرئيسها ورساما ورئيساً لعمال الآلات وملاحظاً ومالكاً خمسة وعشرين ونصف في كل مائة من رأس المال الذي بلغ مائة ألف ريال ، فكانت هذه الثمانية والعشرون ألفاً هي كل ما دفع للشركة عدا ربحها من بيع السيارات ، ويقول فورد إنه منذ ذلك الحين لم يعوزه المال قط . فلما كان عام ١٩٠٦ كان ماله من رأس المال قد صعد حتى بلغ واحداً وخمسين في كل مائة ، ثم استطاع بعد ذلك بزمان قصير أن يرفع هذا القدر إلى ثمانية وخمسين ونصف في كل مائة ؛ حتى إذا ما كان عام ١٩١٩ ابتاع ابنه « إدسل فورد » ما تبقى من الأسهم بسعر ١٢٥٠٠ ريال عن كل مائة من الأسهم ، وهذا يؤيد للمرة الثانية كراهية فورد لشركائه في العمل إن كانوا من الغافلين . وهو لا يفسح المجال أمام عامة الناس ليساهم منهم من أراد بماله ، وهذه الناحية جديرة منا بأكبر العناية ، فإن حملة الأسهم كانوا قد أقاموا عليه الدعوى يطالبون أن يقسم جزءاً من الأرباح بين المساهمين أكبر مما اعتاد أن يقسمه ، بدلاً من أن يرده إلى العمل مرة أخرى ، ولكن فورد كسب قضيته بأن أقنع القضاة أن حملة الأسهم قد كسبوا من ماله أكبر قسط ممكن . ولم يحرص على أن تظل الشركة وطيدة الدعائم بشركائه إذا كلفه ذلك أن يعمل ليكسبوا لا ليرضى رغبته في الإنشاء ، وحل المشكلة بأن تخلص منهم ، ولم يبق من حملة الأسهم سواه ، إلا طائفة من عماله اشتروا أسهمهم بشروط خاصة فرضت عليهم فرضاً .

وأدار هذه الشركة الجديدة من أول أمرها وفق خطته ، فلم يرد أن ينتج للترف ، وإنما أراد أن ينتج أداة تستخدمها عامة الناس ، ولذلك صمم أن يركز

عنايته في إنتاج ما تتوفر فيه شروط البيع أكثر من سواه ، بأن ينتج أقل ما يمكن من الطُّرُز ، ويبيعها بأقل ثمن مستطاع ، وأن تكون سياراته خفيفة ما أمكن ذلك ، وألا يكون بها مجال للخداع ، وأن تكون جذيرة بثقة أصحابها ، وأعلن أنه يبيع قدرأ مضموناً من الخدمة ، فإذا حدث عطب مهما يكن نوعه ، كان لزاماً على الشركة أن تقلل من خسارة الشاري ما أمكنها ذلك ، فأتاه ذلك بالشارين أفواجاً بعد إذ كان شراء السيارة موقوفاً على الأثرياء يقامرون بالملم فيها ، لأنها كانت في كل لحظة عرضة للعطب ؛ ولم تكن ثمم وسيلة للعناية بالسيارة المعطوبة وإصلاحها .

وقد سار بهذه السياسة عام ١٩٠٩ إلى نتائجها المنطقية ، وقرران يبيع طرازاً واحداً من السيارات ، طراز (T) الذي قال عنه : « إن كل مشتر له الحق في طلاء سيارته باللون الذي يريد على شرط أن تكون سوداء » . ولكن على الرغم من أنه لم يعرض للبيع في الوقت الواحد إلا طرازاً واحداً من السيارات ، فقد كان لا ينفك يغير هذا الطراز ويضيف إليه في كل مرة ما يراه الصانع من وجوه الإصلاح ويدخل تحسيناً في طريقة إعداده ، وجودة في مادته ، وجمالاً في شكله ، حتى انتهى ذلك الطراز إلى أن يُستخدم في بقاء السيارة أربعة وعشرون صنفاً من صنوف الصلب .

ولما استقر رأيه على الشكل الذي يصور فيه طرازه هذا ، عنى بالسوق ليشق طريقه فيها ، وفي ذلك وحده من العمل ما يسد أطماع السكثرة الغالبة من رجال الأعمال ؛ وكانت خطة فورد أن تقوم بالبيع مجموعة مترامية الأطراف من الوكلاء ، بحيث تستغرق الولايات المتحدة بأسرها ؛ وحتم على كل وكيل أن يتخذ لمقامه بناء نظيفاً جذاباً ، وأن يتزود بمجموعة كاملة من الأجزاء البديلة ، وأن يستطيع

إصلاح العطب إصلاحاً يؤمن السيارة من الخطر ، وأن يلم بكل شراء السيارات في إقليمه ؛ ولما كان ذلك كله في طريق الإنجاء أتجه إلى نظام الإنتاج ليعمل على رفع كفايته .

ولقد لقي هذا النظام الإنتاجي من وجوه النقد قدر ما لقيته السيارة نفسها ، ولكنه لقي أيضاً من النجاح ما لقيته ؛ والفكرة الأساسية فيه هي اجتنب التبديد ، فلا تضيع بوصة واحدة من أرض المصنع سدى ، ولا تمضي لحظة واحدة من الزمن هباء ، ولا تتبدد قطعة واحدة من شظية أو ذرة من قوة جسمية أو مجهود عقلي . وركب فورد محركاً كهربائياً في حجلات الآلات لئلا يتقيد في عمله بقيود البكرات والأسطوانات وأشرطة الجلد ، فمن التبذير أن تستأجر المهندسين ثم تدعهم يعملون كالفيلة أو الجمالين ، وهكذا زود العمل بما يلزمه من عدد وأدوات ، بحيث تدفع الآلات القطعة إلى أيدي العمال عند كل مرحلة ، فلا يضطر العامل حتى إلى رفع قدميه إذا أمكن ذلك ولما كان من الإسراف أن يقوم صحاح الجسوم بعمل يستطيع أداءه ذوو العاهات ، استخدم عدداً كبيراً من العمى والصم والعرج ، وكان يأجرهم الأجور العادية ، لأنهم في رأيه يستحقون أكثر مما يستحقه العاديون من الرجال ، فهم يغتبطون بالعمل ولا تضيق صدورهم من تفاهته ، أو مما يبعثه في نفوسهم من الملل ، كما يحدث لهؤلاء الذين يتلفتون حولهم ويتسمعون ضجيج الحياة في الخارج .

ومن التبذير أن تنفق الجهود البشرية في إخراج الفحم ونحته ما دمننا جميعاً في حياتنا اليومية ننتج فضلات قابلة للاحتراق ، دون أن نبذل في إنتاجها وقتاً أو فكرياً ؛ ولذا أخذ ينشئ محطات لتوليد القوة حيثما وجد فضلات لإحراقها — وسوف يدير مصانعه الجديدة في داجنهايم بالفضلات المهملة في لندن ، وعليها

سيكون أكبر اعتماده ... ومن الإسراف أن ترسل السيارات على ظهور السفن (وتدفع عنها رسوم الواردات) مادام يمكن أن تحزم الأجزاء حزمًا محكمًا فتكون أضيق حيزاً وأيسر نقلاً ؛ ولذلك تراه يرسل الأجزاء ليتم تركيبها حيث تباع في أي بلد من بلاد الأرض، وذلك يتضمن إمكان تبديل أي جزء من الأجزاء، أي أنه ينبغي لكثير من الأجزاء أن يبلغ من الدقة جزءاً من ألف جزء من البوصة ؛ ولتحقيق ذلك لابد من ضبط المعايير ، مع أنها في حد ذاتها تبلغ من الدقة عشرة أمثال ما تبلغه الأجزاء ، ضبطاً يبلغ جزءاً من ألف ألف جزء من البوصة تقريباً ؛ ولكي يبلغ فورده هذه الغاية من الدقة ، اضطر أن يعدّ المعايير بنفسه .

ولكنه انصرف بجهد الأعظم إلى توفير الزمن ، فقد كان يقتضيه تركيب السيارة حين بدأ إنتاجه الكبير اثنتى عشرة ساعة وأربعاً وعشرين دقيقة ، فأنقص ذلك إلى ساعة واحدة وثلاث وثلاثين دقيقة ، بفضل دراسته لكل حركة في سير العمل ، وبأن قسم كل خطوة في العمل أقساماً فرعية ؛ وكانت قوالب السبك تقتضيه في صنعها سبع ساعات ولا يمكن استخدامها أكثر من أربعين ألف مرة تقريباً ، فابتكر طريقة تنقج القالب في دقيقتين ، وتصاغ به قطع يتراوح عددها من ثمانين ألفاً إلى مائة ألف ؛ واتبع هذه الخطة نفسها ، ولا يزال يتبعها في كل جزء من أجزاء مصانعه ، فهو ما يبرج باحثاً عن آلات أسرع أداء للعمل أو أقل إجهاداً للإنسان ؛ فلما استثمر طريقة التقسيم في العمل إلى غايتها القصوى ، ابتكر آلات تؤدي الواحدة منها جملة أشياء في كل قطعة قبل ردها إلى العامل ؛ ولما أمكن استخدام الكهرباء استخداماً واسع النطاق في وصل القطع بصهرها ، صمم أن يستغنى عن السبك بكل أنواعه إذا ما أمكن

أعوانه اختراع آلات تقوم في كل خطوة من العمل بصهر القطع بدل سبكها ؛ فأفاد لسيارته قوة وخفة وبساطة ، بتخلصه من السبك لما قد يؤدي إليه من ألوان الخطأ ، وبإطراحه مجموعة الآلات التي لابد منها لأعمال السبك إذا أريد إتقانه ؛ فإن مبدأ فوردي في حقيقة الأمر هو أنه إذا ما بلغ بجانب من العمل حدا مرضيا من السكال فينبغي ألا يدوم ذلك الرضا ، إذ يستحيل على أية مرحلة من مراحل العمل أن تبلغ من السكال في مادتها وإنتاجها حدا لا يقبل التحسين .

ولسكي يظفر مستر فوردي بالحافز الذي ما يفتأ يستحثه على هذا البحث الملح عن أوجه الاقتصاد ، فقد ركن إلى مبدئه الأساسي ، وهو ألا يني في زيادة الأجور وتخفيض الأثمان ؛ فهو يؤمن بالمذهب القائل بأن واجب الصناعة أن تبلغ حدا من النجاح يتيح لعامة الناس أن تبتاع إنتاجها ، لأنه لو بيعت هذه المنتجات في أرجاء العالم كله لانتشر المال بين الناس على أوسع نحو مستطاع ؛ ولقد لجأ غير مرة إلى نقص الأثمان وزيادة الأجور ، لأن أرقام العمل الحقيقية تبرر هذا التصرف ، بل ليتمكن من كثرة البيع التي تنبأ بأن تكون نتيجة لازمة لهذه الخطوة ، فلما حدث مرة أن لم يزد المبيع الجديد زيادة تكفي لدرء الخسارة ، أمعن في خفض الأثمان بدل أن يعود إلى الثمن الأول ، فوصل بذلك إلى النتيجة التي قصد إليها ؛ وهو يعلل ذلك بأن السوط المسلط على ظهور العمال بسبب ارتفاع أجورهم مؤد حتما إلى كسب جديد يفوق ما يلزم لتعويض السكالف الجديدة . ومهما يكن من الأمر فقد حدث هذا كله في وقت اجتاحت فيه الولايات المتحدة أزمة حادة هبطت فيها قيمة النقد ، فكانت القيمة الحقيقية لثمنه الجديد لا تقل إلا قليلا عن ثمنه القديم . وإن ما يسترعى النظر في تصرفه أنه استطاع أن يهبط

بالثمن هبوطاً يحتفظ معه بما انتهى إلى زيادة حقيقية في قيمة الأجور — وهي براعة يراها العالم كله اليوم ضرباً من المستحيل .

والحد الأدنى لما يدفعه فورد الآن من الأجور في أمريكا هو ستة ريالات في اليوم ؛ على أن ستين في كل مائة من عماله يتقاضون أكثر من هذا بفضل نظامه في مكافأة الأجراء ؛ وهو يحدد الأجور في البلاد الأجنبية بحيث تتساوى مع هذه مساواة فعلية بعد تحويلها إلى عملة البلاد التي تدفع فيها . ويقول إن أجر الدقيقة الواحدة للرجل الواحد في مختلف الأقطار يتناسب تناسباً عكسياً دقيقاً مع مستوى ما يدفع من الأجور . وكانت شركة فورد خلال الأعوام التسعة عشرة التي كانت تفتح أثناءها طراز (T) المعروف ، تدفع من الأجور والرواتب ما يكاد يبلغ ألفي مليون من الريالات ، فإذا أضفنا إلى ذلك مكافآت الوكلاء والعمال الزائدين الذين يُستأجرون في مخازن السيارات (الجراجات) وفي محال الإصلاح ، بلغ المجموع ما يقرب من خمسة آلاف ونصف ألف مليون من الريالات ، ولا يشمل هذا أجور العمال في طرقه الحديدية ومناجم الزيت ومزارع المطاط والمناجم التابعة له ، ولا يقل ما تدفعه الشركة فيما تشتريه عن خمسة آلاف مليون من الريالات إلا قليلاً ؛ فهو مصيب إن زعم أنه يخطو خطوة فسيحة نحو سعادة الأمم على اختلافها . فهو في سبيل هذه السعادة ، ولكي يوفر أجور النقل الباهظة ، نشر مصانعه وما يتبعه من محال التركيب في أرجاء الأرض كلها ، وهو يحب أن يوازن بين ما يتدفق في خزائن الشركة من أموال جاء بها العمل وبين ما يقابل ذلك مما ينفق من أجور ورواتب ؛ وهو يؤمن فوق ذلك بوجوب تنظيم العمل تنظيمًا يهيئ للعامل أحسن حياة ممكنة وبعيداً المدن الصناعية الكبرى محنة ، إذ يرى أن الحياة العادية تقتضي أن يعمل الإنسان صيفاً في أرض فضاء ، وأن يلجأ إلى كنف

المصانع وضوئها في الشتاء ؛ وأعد بالفعل جملة مصانع في الولايات المتحدة أسسها على هذا النسق ، ويقال إنه أقام مصانعه في ركنة سكي وفرجينيا عند فوهات المناجم ليستطيع العمال أن ينفقوا في المناجم نصف ساعات العمل فقط ، وأن يكسبوا عيشهم ببقية الوقت بالعمل في الآلات .

ولم يبرح فورد يوسع عمله في نفس الوقت الذي كان ينفذ فيه كل ما يقتضيه هذا النظام من أعمال ؛ وأضاف إبان الحرب إلى صناعة طراز (T) طرازاً آخر من آلات الزراعة للحكومة الانجليزية ، كما اضطلع بصنع أشياء كثيرة صغيرة لحكومة بلاده ؛ ولما كانت هذه الآلات الزراعية تحقق عنده أمانة قديمة جداً ، فقد أنشأها على أساس يخفف عناء الزراعة ويقلل نفقاتها — وهي لا تصالح لأعمال الزراعة وحدها ، بل يمكن استخدامها مولداتٍ للقوة خفيفة ميسورة النقل ؛ وقد أبطل طراز (T) منذ الحرب — ذلك الطراز الذي باع منه خمسة عشر مليوناً — واستبدل به سيارة بنيت على أساس أحدث ؛ وكذلك أخذ على نفسه أن يصنع سيارة فاخرة — سيارة لنكولن — أضف إلى هذا أنه اضطر أمام ما تتعرض له وارداته من المواد الغفل من تأخير يحدث حينما بسبب الحوادث العارضة ، وحينما آخر بسبب القاطنين بالعمل ، أن يشتري خطاً حديدياً (وكان أن ربح الخط لأول مرة بعد أن تولى هو إدارته) ومناجم ومزارع مطاط وآبار زيت ، كما اضطر أن يصنع بنفسه الزجاج والقمش وسائر صنوف المواد التي تتطلبها صناعة سيارته .

والواقع أنه يملك الآن شركة جبارة تبلغ عنان السماء .

وليس من شأن هذا الكتاب أن يبحث مستر فورد من ناحية دعوته للسلام أو إساءته إلى سمعة اليهود وأصحاب الأموال ؛ أو شغفه بالفنون شغفاً جعله يهوى إلى مسترجت — وهو شاعر دتروا الوطني — سيارة في كل عام ، ولبت على ذلك

سنوات عدة ، أو حبه للطبيعة حباً دفعه أن يهني في حديقته أعشاشاً للطير علقها على زنبركات مرنة من الصلب لتستخدمها الأفراخ الصغيرة دون أن تعكر العصفافير صفوها ؛ ولكن ما يمس موضوعنا مسأاً أشد من ذلك كله أنه أنشأ مستشفى كبيراً نموذجياً ، ولا يزال يمدّه بالمال ، أعده خاصة لكي يقاوم أخطاء الأطباء فيما يتصل بمهنتهم ، وأنه يدير مدرسة للصبيان يدرّب فيها التلاميذ على صناعات فنية كثيرة ، وهم يكسبون منذ بداية حياتهم أجراً كبيراً . إنه قدم إلى العالم كل هذا إلى جانب السيارة والآلة الزراعية التي خففت عناء العمل عن ملايين الأفراد ، وقدم كذلك عمله الضخم ، وهو مثل قوى يساق تأييداً للنظام الرأسمالي والفردى ، إذ يوضح ما يمكن أن يؤديه ذلك النظام — إذا اتبع على خير وجوهه وزال عن صاحبه الجشع ، وحلت محله الرغبة الصحيحة في الأخذ بيد الإنسانية . ومع ذلك فقد وجه إلى نظامه الانتاجى أمر النقد على أنه ضرب من الطغيان ، وأنه عنيف يسحق العمال سحقاً ؛ وإنه لطغيان حقاً ، ولكن هذا هو الذى جعله مثالا هاديا ، وأما بقية التهم فالأمر يحتاج إلى شيء من الموازنة ليس هذا مكانه ، غير أن الأرقام التى يقدمها عن متوسط أمد اشتغال العامل لا تدع مجالاً للشك فى أن العمال لا يبذلون مجهوداً جثمانياً يبلغ من العسر أن يعجل بموتهم . ويلوح لنا أن أوجه النقد تضيق حتى تنحصر فى الآتى : وهو أن العمل يستغرق العمال إلى أقصى الحدود ، فإذا فرغوا منه لم يسيغوا إلا أدناً للملاهي ، ولا يكون فى مقدورهم القيام فوق عملهم بما يجعل منهم مواطنين نافعين ؛ ولكن هذا النقد يمكن توجيهه بحق إلى رجال الأعمال جميعاً على اختلاف طبقاتهم وأوساطهم الاجتماعية فى كل بلد من بلاد العالم . وإن هذا ليستوقفنا مرة أخرى لناقى نظارة إلى مشاكل التربية التى تعنى بهذا الجانب ، وإلى طريقة انتفاع الناس بفرغهم .

وإذا أردنا أن نلخص القول فيما عمله مستر فورد وما كسبه بذلك العمل لما استطعنا أن نقطع بحكم له أو عليه ؛ فقد أوتى عقلاً جديراً بالثقة في شؤون المال ، وخيراً لفا أن يجمع من المال ما يستطيع — فسوف يستخدمه لخير غاية ، وسوف ينفقه على نحو يرضيه ويستحق الهمة .

ألفرد لونشتين

نعود هنا مرة أخرى بعد الأمثلة التي بسطناها لجمع الثروة من أعمال الإنشاء لتتدبر نمطاً آخر من جامعي المال ، ولا يجمع إلا لمجرد التحصيل المحض ، فبينما نرى حوافز الاختراع وشحن وسائل النقل يظهران ظهوراً واضحاً في مؤسسات صناعية كبرى مثل « شركة الزيت المثلى » و « الشركة الإمبراطورية للصناعات الكيميائية » و « شركة الصلب بالولايات المتحدة » وما إليها ، نرى إلى جانب هذه الأعمال الإنشائية الضخمة ألقاً من الناس لا يريدون إلا أن يكونوا أثرياء بانتهازهم لسوايح الفرص ؛ ولقد درسنا الأساليب العتيقة في جمع المال ، وضرربنا لها مثلين : المسرهي جرين ، وأسرة روتشيلد ، وأظهر ما يميز هؤلاء الناس اختطافهم للثروة ، فالثروة الموجودة لا تزيد ولا تنقص ، وكل ما يصنعونه أن يجمعوها بين أيديهم ؛ وسنرى الآن كيف تمكن هؤلاء من اختطاف الثروة في ظروف الحياة الحديثة ، فاستبدلوا الطوائر بقوارب السماء التي كان ناتان ماير روتشيلد ينتبذ ركناً من أركانها ، على الرغم مما يرويه اليوم في الحياة من أمثلة جريئة يصح احتذاؤها ، كإنشاء الخطوط الحديدية وسيادة الزيت ، وسنتخذ مثلاً لذلك ألفرد لونشتين الذي لاقى منيته في حادثة وقعت عرضاً أو عمداً ، حين سقطت طائرته وهو يعبر بحر المنش ؛ وهذا الرجل خير مثل يساق للمال المغامر

في هذا العصر ، للمال الذي لا يخلق الثروة خلقاً ، ولا يبتاع الثروة القائمة ، بل يتصيداها من شبكة الوجود ليضعها في قبضته .

ولا يزال موته محوطاً بالغموض ، فقد انتهى البحث المبدئي إلى أن وفاته جاءت قدراً ، ولكن عاد الباحثون بعد موته بأسبوع أو ما يقرب من أسبوع وكشفوا عن جسده الذي فحصه الدكتور لويس ، وهو طبيب فرنسي خبير بعلم الأمراض ، وقرر أن بالجسم مادة سامة . ويظهر أن لونشتين كان مغموراً بأعمال مالية واسعة النطاق إلى حد كبير ، وأنه كان فيها خاسراً ، ولكن ليس لدينا ما يدل دلالة قاطعة على حقيقة موقفه عند موته ، ويجوز أن يكون موقفه إذ ذاك قد أوردته الحتف ، غير أننا لا نرتاب في أنه لم يكن قد بلغ حد الإفلاس ؛ ومن الطبيعي الذي لا شذوذ فيه أن يعقب مأساة موته هبوط في أثمان الأوراق المالية التي كان يحب العمل فيها ، ولكن مجرد القول بموته والسوق تفتابها موجة اضطراب يكفي لتفسير موقفه ؛ وإذن فهذا رجل لاح نجمة فجأة في عالم المال ، يبيع ويشترى في كثرة تصلح لرواية الأساطير .

والأرجح أنه ابن مصرفي صغير في بلجيكا ، ولد عام ١٨٧٤ ، ولما أفلس أبوه سنة ١٨٩٢ مديناً بألف وثمانمائة فرنك (من فرنكات ما قبل الحرب) أعاد الابن مصرف أبيه ، وأخذ على نفسه أن يفي عن أبيه ما تعهد به ، واشتغل وسيطاً في بروكسل ، ولبت بضعة أعوام يعمل شريكاً مع غيره دون أن يمتاز بمواهبه ، ثم أخذ يذيع في الناس دعوة استثمار أموالهم في بلاد الأرض كلها ، وبرع في توجيه المؤسرين من عامة الناس إلى ميادين استثمار جديدة ؛ وسنحت له أولى فرصه العظيمة عام ١٩٠٦ حين كون رأس مال لشركة النور وتوليد القوة في ريودي جانيرو ، ولم يكن استثمار المال في البرازيل معروفاً إذ ذاك ، فلفت أنظار

الناس إليها وكسب مالا كثيراً من الأوراق المالية الجديدة ؛ ثم اتجه بعنايته إلى أمريكا الجنوبية ينشئ فيها المشروعات ، ولكن طرائقه في العمل لم تسلم من النقد المر ، فقد كان من أرباب الملايين قبل نشوب الحرب (وكانت ثروته بالفرنكات) ، ومن الجائز أن تكون الحرب قد عرقلت تقدمه بعض الشيء ؛ ولكنه على الرغم من نهوضه لخدمة وطنه في إنجلترا (حيث ابتاع الجياد لفرسان الجيش البلجيكي) وفي أمريكا ، إلا أنه اتخذ من ذلك نفسه مجالا لكسب ، أضف إلى ذلك أن قيمة الخطوط الحديدية وخطوط الترام وشركات توليد القوة وما إليها ارتفعت في أمريكا الجنوبية لما انتاب أوروبا من دمار وإفلاس ، وأخذت العملة (الفرنكات) الفرنسية والبايجيكية تهوى في أواخر الحرب حتى استولت على أصحاب الأموال جميعاً عوامل الشك والفرع ، وهنا باتت الثروة تحت أقدام الأيقاظ من الرجال ، وكان ألفرد لونشتين من أشد ما عرف الناس يقظة . ولم يبدُ نبوغه المبكرى على وجهه الصحيح إلا بعد الحرب ، حين أخذ يضارب في نطاق فسيح ، مشغولاً أشد الشغف بمشروعات السكر باء المتولدة من مساقط الماء وبصناعة نسج الحرير الصناعي ؛ وكان يطمح أن يصعد في الغنى حتى يصبح ثالث الأغنياء الأحياء ، ولكنه لم يفعل سوى أن دبر المال لهذه المشروعات تدبيراً فدحت نفقاته كلا الجانبين : المشروعات وأصحاب المال ؛ ولا يسعنا إلا أن نرى فيه أنه لم يكن حتى في أزهر أيامه عاملاً فعالاً في العالم الاقتصادي إلا بمعنى الكلمة الضيق المحدود ؛ وقد يكون من آثاره أنه استحث المصارف فخرکہا من رقادها العميق الذي كان يقف حجر عثرة في أوجه الرقي الجديدة ، فلا تسمح لها بتوسيع مناطق نشاطها ، وقد لا يكون هذا صحيحاً ، ولكن الرجل في جوهره كان دُملاً في وجه الأعمال ، بل دُملاً ناتئاً خطراً .

وَيَصُورُ لَنَا بِرِيفَا Privat^(١) لِحَاتٍ مِنْ حَيَاتِهِ فِي أَوْجَهِهَا ، فَيُرَوِّى أَنَّهُ كَانَ يَنْتَقِلُ فِي إِقَامَتِهِ مِنْ فَنْدُقِ كَلَارْدِجْ فِي لَنْدُنْ ، وَكَانَ لَهُ جَنَاحٌ فِيهِ ، إِلَى فَنْدُقِ رِئِزْ فِي بَارِيسَ حَيْثُ كَانَ يَسْتَأْجِرُ جَنَاحًا آخِرَ طَوَالِ الْعَامِ ، وَكَانَ لَهُ قَصْرٌ فِي بَرُوكْسِلَ وَضِيْعَةٌ فُسِيْجَةُ فِي مِلْتُنْ مَوْبِرِي حَيْثُ اسْتَضَافَ أَمِيرَ وِيلِزْ ، وَمَقْصُورَةٌ عَظِيمَةٌ فِي بِيَارْتِزْ ، وَكَانَ يَحِيطُ بِهِ جَيْشٌ مِنْ كُتَّامِ السَّرِّ وَكُتَّابِ الْخَطِّ الْخِثْلِ ، وَلَهُ طَائِرَاتُهُ الْخَاصَّةُ لَخْدْمَتِهِ وَخِدْمَةُ رَسَلِهِ الْخَوَاصِ فِي مَطَارَاتِ كَرْوِيدَنْ وَلُوبُورْجِيَهْ وَبَرُوكْسِلَ وَغَيْرِهَا مِنْ الْحَاطِ ؛ وَلَمَّا انْتَابَ الْفَرَنْكِيْنَ الْفَرَنْسِيَّ وَالْبَاجِيْكَى هَبُوطَ سَرِيْعِ عَامِ ١٩٢٥ عَرَضَ عَلَى هَاتَيْنِ الْحُكُومَتَيْنِ أَنْ يُقْرَضَهُمَا — بِشُرُوطٍ مُعَيَّنَةٍ — قَرْضَا رِبْحُهُ اثْنَانِ فِي كُلِّ مِائَةٍ ، وَيَبْلُغُ مَقْدَارُهُ مَا يَكْفِي لِيُثْبِتَ الْعَمَلَةَ ثَبَاتًا عَاجِلًا ، وَلَكِنْ الْحُكُومَتَيْنِ رَفَضَتَا قَرْضَهُ لِإِسْرَافِهِ فِي الطَّمَعِ إِسْرَافًا لَا حَدَ لَهُ . وَيُظْهَرُ أَنَّهُ قَدْ طَمَحَ إِلَى سِيَادَةِ مَصَادِرِ السَّكْرِ بَاءَ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ ، وَلَكِنْ سَرَّعَانَ مَا أُجْمِعَ فِيهِ هَذَا الطَّمُوحُ حِينَ اتَّفَقَتْ طَائِفَةٌ قَوِيَّةٌ مِنَ الْمَصَارِفِ عَلَى أَنْ تَكُونَ يَدًا وَاحِدَةً فِي مَقَاوِمَتِهِ ، وَبِذَلِكَ طَارَ عَنْهُ شَطْرٌ كَبِيرٌ مِنْ ثَرَوَتِهِ الَّتِي تَجَاوَزَتْ حَدَّ التَّصَدِيقِ ، وَحَاطَلَ أَنْ يَسْتَرِدَّ مَا فَقَدَ فُجَاءَتِ مَحَاوِلَتُهُ أَسْرَعَ وَأَشَدَّ تَهْوَرًا مِمَّا يَنْبَغِي ، وَلَمْ يَوْفُقْ فِي تَدْبِيرِ أَعْمَالِهِ فُجَاءَتِ مُخْتَلِفَةٌ لَا تَتَّفَقُ مَعَ الْمَنْطِقِ السَّلِيمِ ، وَلَا شَكَّ أَنْ قَدَمَهُ قَدْ زَلَّتْ فِي صَفْقَةٍ أُخْرَى خَاسِرَةٍ قَبِيلَ مَوْتِهِ . وَإِنَّهُ لَمَنْ الْعَسِيرُ أَنْ نَقْطَعَ بِرَأْيِ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَعْلَمَ إِلَى أَيْ حَدِّ كَانَ الرَّجُلُ مَقَامَرًا يَلْعَبُ بِالْأَسْوَاقِ لَا أَكْثَرَ وَلَا أَقَلَّ ، وَلَا رَيْبَ أَنْ تَنْبُؤَهُ بِمُسْتَقْبَلِ مَشْرُوعَاتِ السَّكْرِ بَاءَ وَالْحَرِيرِ الصَّنَاعِيَّ يَدُلُّ عَلَى ذِكَاثِهِ . وَيُرَوِّى بِرِيفَا أَنَّهُ كَانَ يَسْتَفْتِي الْمُنْجِمِينَ ، وَكَانَ يَتَأَثَّرُ فِي أَحْكَامِهِ بِمَا يَنْبُئُهُ بِهِ « الْوَسْطَاءُ » فِي تَحْضِيرِ الْأَرْوَاحِ . وَلَقَدْ بَلَغَ مَا يَمْلِكُهُ مِنْ ثَرَاءٍ مُبْلَغًا لَا يَسِيغُهُ إِلَّا الْخِيَالُ ، وَذَلِكَ

(١) فِي كِتَابِهِ « حَيَاةُ أَلْفَرْدِ لُونْشْتَيْنِ وَمَوْتُهُ » .

بسبب انخفاض مستوى الأجور في مناشط الإنسان العادية ، فقامت ثروته عشرين مليوناً من الجنيهات أو ما يدور حول هذا المقدار . وفي عام ١٩٢٨ بلغت قيمة أسهم « شركة الأملاك العالمية » — وعددها أربع مائة وثلاثون ألفاً — واحداً وثلاثين مليوناً من الجنيهات ، ثم تراجعت إلى ثمانية عشر مليوناً ونصف المليون ، وما كادت تذيع أنباء موته في يوليو حتى أمعن ذلك القدر في الهبوط حتى بلغت اثني عشر مليوناً ونصف مليون من الجنيهات .

وإنه ليستوقف النظر ألا تدون حيوات أمثال هؤلاء الرجال جميعاً إلا تدويناً ناقصاً ، فلا نجد شيئاً عن ألفرد لونشتين في الموسوعة البريطانية الجديدة ، ولا في موسوعة الأعلام الصادرة عام ١٩٢٨ . ولسكنى اقتبست عن حياته فيما أسلفت من كتاب صغير ممتاز كتبه عنه موريس بريثا ، ولا يحتمل أن ندرس حياته دراسة تفصيلية ، فبينما تجد توافه الأمور الحظيرة التي تتصل بحياة الأدباء المغمورين — رغم إنتاجهم — موضوعاً للبحث الدقيق ، وترى كل قصاصة من رسائلهم الخاصة التي لا تقدم ولا تؤخر ، جديرة بأموال الهواة المتحمسين ، فإنك لا تجد من يجمع أو يقدّر هذه الوثائق التي يجب أن تنتشر في أرجاء العالم انتشاراً غيراً — تلك الوثائق التي تسجل حيوات من ينشدون الثروات الضخمة ومن يكونونها ، مع أنها أفعال بالخيال وأدعى للعجب ، وأهدى للطريق من أنباء الأدباء ، حتى إذا ما جاء المؤرخ العلمي آخر الأمر ليدون الاتجاهات الاقتصادية في هذا العصر الحديث ، وجلس إلى مكتبه فلن يجد كثيراً مما يشكر عليه هواة الخطابات والمذكرات اليومية ودفاتر الحساب الخاص والمذكرات الشخصية ، في حين تمتلئ يده بما يعنى الهواة بحفظه من الطباعات الأولى والنسخ المخطوطة بقلم المؤلفين وخطابات الحب الذاتية التي خطها ألوف السكتاب الذين لا شأن لهم ولا خطر ، أما إذا أراد شيئاً عن هارمزورث أو زهاروف أو لونشتين فلن يجد بين يديه قصاصة واحدة .

الأشخاص الذين جاوزوا الحدود المشروعة

ومع ذلك فإذا هبطنا إلى الطبقة الدنيا ممن ينشدون الثروة ، ألفينا على الفور سجلاً دَوَّنت وثائقه تدويناً صحيحاً ، وذلك أننا سنجد بين أيدينا وثائق محركاتهم ، وأعني بهؤلاء جامعي المال الذين يسلكون في جمعه سبيلاً غير مشروع ، والذين لم يأخذوا أنفسهم بالقانون فيما يبذلونه من جهد لتحصيل الثراء ، فنفد صبرهم ، أو اشتد غباؤهم ، أو قل لم يواتهم الحظ فلم يوفقوا إلى انتهاج الطارق المشروعة لجمع الثراء الضخم دفعة واحدة ، وأدى بهم الطيش إلى التورط في المواقف الحرجة ، ثم تخلصوا منها بالغش تخلصاً يجرى على السنين المشروعة ، أو ربما لجأوا إلى الغش منذ بداية الطريق . وإنا لنضرب لذلك الأمثلة «أعمالاً» كأعمال جابز بلفور وجمعيته التي أسماها «جمعية التحرير» فظلت مزدهرة في ظاهرها مدى خمسة عشر عاماً بعد إفلاسها ، أو ما اقترفه ويتكررت من صنوف التدليس في شركته «شركة لندن والعالم» ؛ ونحن نضرب هذين المثالين للشؤون المالية التي يجوز حدوثها في المشروعات الاقتصادية ؛ ثم ننتقل من هاتين الحالتين إلى دراسة أمثلة أبسط منها مما يرتكب في خيانة العهود ، كإصدار الأسهم الوهمية — أو إن أردت دقة فقل تزويرها — فكثيراً ما وقع هذا حيناً بعد حين طول المائة العام الماضية ، حتى كلف العالم الاقتصادي عدة ملايين . ولعل أصدق مثل يساق لتصوير هذه الحالة كارثة «هاتري» التي حدثت في لندن منذ عهد قريب ، وهي ختام سلسلة طويلة من السكوارث ، ولسكنها تميزت عنها جميعاً بجرأتها ؛ وتعزى هذه الصنوف من الغدر الدنيء إلى سوء الرقابة على دولااب الأعمال ، وإلى هذه الرقابة السيئة تعزى كذلك بغير شك

هذه السرقة الواضحة التي يطرّد حدوثها ، غير أن خطرها يمكن أن يحسب حسابه ويدراً شره ؛ وما أكثر ما ترى من خزنة المال ومديرى المصارف والموسرين ورؤساء لجان الإدارة من يشعرون باختفائهم عن الرقابة المباشرة ، وربما تدفع العوامل المختلفة فريقاً منهم إلى السقوط أمام هذه الفرصة الظاهرية ، وكثيراً ما يكونون على حق فيما يشعرون ، بل قد يقلت بعضهم فلا تلاحظهم أعين الرقباء ، فهم يختطفون الربح من مظانه ثم يعيدون ما اختطفوا في موعد ملائم ويخفون معالم فعلتهم . وإنا لنحشد في صعيد واحد : المزور ، ومن يلعب بالسوق لعب المجرم ، ومن يلعب بها في جرأة تستساغ على مضض ، ومن يلعب بها لعباً بارعاً مقبولاً ، والجبار الناشئ الذي يضرب في زحمة الحياة ويرجى له النجاح ، ومن يتف في عالم المال كالمغنطيس الجاذب فيعجب به الناس ، ومن يجمع الثروة ويوفق في جمعها ؛ فلنا أن نحشر كل هؤلاء في زمرة واحدة لأنهم يشتركون في ظاهرة واحدة — وهى أنهم استمدوا بقاءهم من العيوب العامة التي تؤخذ على طرائقنا في توزيع القوة الشرائية ، فهم نتيجة النقص في النظام القائم الذي تتحدد بمقتضاه العلاقات الاقتصادية والذي لا يزال في مرحلة التجريب ، وإذن فليس موضع الداء هم الأشخاص المطبوعين على جمع المال وللضاربة وازدراء الشرف ، بل هو نظام التقدير المضطرب ، فذلك وحده المسئول إن كان لا بد من إلقاء التبعة على شئ .

ولكن أمثل خطة للإنسان ألا يلقى التبعة على أحد ، وأن يعلن عفواً عاماً شاملاً ، وأن يمضى في تموير نظم الإدارة ودفع المال ، بحيث تستحيل العودة التي تؤذى العامل والمستهلك على السواء .

٢ - الأثرياء المعاصرون

لقد بيّنا أن توزيع القوة الشرائية جائر ، إذا قورنت هذه القوة بمجهود الإنتاج ، وذلك لما ينتاب عالم المال من تفكك عجيب ؛ فأصبحت الثروة اليوم مالية إلى حد كبير ، فهي سيادة مالية على الإنتاج ، ولم يعد أساسها قائما على إدارة أملاك فعلية ؛ وأصبح « المنتج المالك » مثل هنرى فورد شذوذا لا يدل على القاعدة ، فمعظم الأثرياء أرباب أموال من عامة الناس ، يستثمرون مالمهم في الأعمال ؛ والطبقة العليا من هؤلاء هم الموسرون .

وكذلك وضخما سير النظام المالى فى الأمثلة التى ضربناها ، وظهر أن الشؤون المالية فى رأى من يخلقون الثروة خلقا ، ليست إلا عاملا مربكا ، ولكنهما مع ذلك هى السبيل المطروقة لبلوغ الغنى ؛ فإن وَسْطَ غلاة المضاربين والمغامرين ومديرى الأعمال على اختلافهم بين الإنتاج والاستهلاك فى المجتمع يصرف شطرا كبيرا من إنتاج العالم عن غاية يراها فريق من الناس يتكاثر عدده حقا مشروعا له ، إذ يعتقد أن الإنتاج الضخم الذى ينشئه الناس بمجهودهم المشترك ، أو على الأصح أن القدرة على شراء هذا الإنتاج ينبغى أن يكون جزءا يقابل خدمات معينة بذلها أصحابها لسعادة المجموع ، أو يقابل شيئا يزيد هذه السعادة ؛ ولكننا على خلاف ذلك ، نرى قوة الشراء ممتنعة على هؤلاء ، مركزة فى أيد قليلة . فالقوة الشرائية المحبوسة تجتمع لدى فريق كبير من طبقات الموسرين والأغنياء ، ومعنى سيادة فئة ما على قوة الشراء حقها فى توجيه الحياة الاجتماعية ، فلا يكفى للدراسة الاقتصادية الشاملة أن تقتصر على كيفية اجتماع هذه القوة الشرائية المحبوسة ، بل يجب أن تبحث فوق ذلك كيفية إنفاقها أيضا فذلك أمر له شأن عظيم فى تلك الدراسة .

ولا بد أن يكون لطريقة العيش والإنفاق عند هذه الفئة الناجمة في شؤون المال ، أعنى الموسرين المحدثين ، أثر عميق جدا في حالة المجتمع العامة من حيث العرض والطلب ؛ وأما هل يسيطرون بقوتهم الشرائية أو لا يسيطرون ، وهل يوجهون المجتمع حقا أو لا يوجهونه ، فذلك أمر آخر يختلف عن هذا اختلافا شديدا ، لأنهم لو أنفقوا ماله في ضروب متباينة ، وعلى غير نسق واحد ، لما انتهى الأمر في مجموعه إلى زيادة الطلب في ناحية بعينها دون سائر النواحي .

ولا ينبغي أن نعدَّ جميع الأثرياء نتيجة احتجاز القوة الشرائية بمضاربات المضاربين ؛ نعم إن الثروة الضخمة الجديدة هي من هذا الضرب إلى حد كبير ، ولكن هذا نوع واحد من أنواع الثروة الممكنة التحصيل ، فهناك الموسرون الأقدمون إلى جانب المحدثين ، وهنالك طبقات اجتماعية لها تقليد قديم تشارك المحدثين في استمتاعهم بإنفاق غير مسئول ، ومثل هؤلاء من يغالون فيما يتقاضونه عما نشأ من التقدم المدني الحديث من استخراج الفحم وسائر صنوف الثروة المعدنية التي استكشفت تحت ضياعهم ونحو ذلك . ولا بد ونحن بصدد هذا التحليل الاقتصادي أن نضيف إلى أولئك الأُمراء المملوكية في إنجلترا وهولنده واسكندناوه — التي تكاد تكون الأسر المملوكية الوحيدة التي دعته سلامة التفكير أن تمتنع عن المقامرة في سوق الأوراق المالية التي تطوح بالملك إلى مطارح النفي ؛ وشبيه بهذا الضرب من الموسرين أغنياء العصور الوسطى من أمراء الهند وسائر حكام الشرق على اختلافهم ؛ فهؤلاء أغنياء لم تتماسكهم رغبة التحصيل إلى حد ما ، وهم الذين جروا وراءهم تقليداً خلافاً من أمارات الشرف والألقاب وشارات التعظيم ، فأثروا بها في الأغنياء المحدثين ، إذ خلعوا على كل هذه الألقاب جلالات لولاهم لما كان لها ، ثم دفعوها دفعاً حتى رسخت تقاليدها ؛

وبذلك أضفوا على أعلام الموسرين في هذا العصر صفة الهيئـة الاجتماعية والنظام ، وأغروهم بتماسك أفرادهم تماسكا اجتماعيا ، ولولا أولئك لما وقع شيء من هذا .

وربما تكون الثروة الجديدة عظيمة جديدة بالنسبة إلى الثروة القديمة ، وإن تكن تعوزنا الأرقام الدقيقة لهذا ؛ وقد بحث الموضوع « السير جوزيا ستامب » في كتابه « بعض العوامل الاقتصادية في الحياة الحديثة » في فصل الوراثة ؛ فلقد كان شطر كبير من الثروة ينحدر بالوراثة في الأيام السالفة ، ولذلك كانت هنالك « طبقة » غنية دائمة لها حياتها وتقاليدها ، أما الثروة في المجتمع الحديث فتختلف عنها في القرن الثامن عشر من حيث نظامها وأثرها ، وهي على الجملة أقل ثباتاً مما كانت .

ففي موسم من كل عام تتجدد بعض التقاليد الاجتماعية التي تراها واضحة ، أو تستطيع على الأقل أن تتعقب آثارها في حياة الطبقة العليا من الموسرين في معظم الجماعات الأوروبية ، وهي تصحب انتقال المحاكم أو اجتماع المجالس التشريعية ، أو كانت تصحبها فيما سبق ، ولا تزال تستمد كثيراً من مظاهرها من العصر السابق لإنشاء الطرق الحديدية ، ولا تزال تلك المظاهر محتفظة برابطة واهية تصلها بما يحدث اليوم من الأعمال السياسية والاجتماعية ، واسكنها كانت فيما مضى ضرورية تترتب عليها بعض التبعات ، بل إن في الولايات المتحدة نفسها بعض انتقالات قليلة لفئة الأغنياء من واشنطن وإليها ؛ ولكن حياة الأثرياء في أمريكا أقل جداً في تركيزها لدى جماعة معينة ، وأكثر جداً في فرديتها ، منها في أوروبا ، فلست ترى هنالك ما تراه في أوروبا من رابطة بين حياة الموسرين وبين التبعات السياسية والاجتماعية ، إذ تكاد الثروة الأمريكية كلها تكون حديثة بحثة قائمة على طراز جديد ، لأنها نشأت من الأحداث المالية والصناعية

التي وقعت في المائة السنة الأخيرة دون أن يصحبها شيء من تقاليد التبعة السياسية أو الاجتماعية . ولست تجد هناك موسماً خاصاً تتلاقى فيه الحياة السياسية والحياة العقلية والحياة الفنية كما كان يحدث في « موسم » لندن ، ولا يزال يحدث بها إلى حد ما ؛ كذلك لست ترى هنالك ما تراه في باريس مما يشبه أن يكون هجرة منها في يوليو وعودة إليها في أكتوبر . ولكن هذه التقاليد تتحى شيئاً فشيئاً بصورة واضحة حتى من الأمم التي رسخت فيها منذ القدم ، فيقل تدريجياً إلزام الموسرين أن يجتمعوا في ساحات المحاكم وحلبات السباق كما كان يحدث من قبل ؛ ويميل الأغنياء اليوم إلى أن يرسموا لأنفسهم مناهج حياتهم ، وذلك ما لم يكونوا يودونه فيما سلف ؛ وبعبارة أخرى فإن تماسك الموسرين أخذ في الزوال ، وأصبح لهم اليوم من الحرية والاستقلال الشخصي ما لم يسبق له نظير فيما مضى .

لقد درسنا في الفصول السابقة ^(١) بوجه عام « كيف يطعم الإنسان » و« كيف يكنسى وكيف يسكن » ، ولا يسعنا في هذا الصدد إلا أن نلم الإمامة عجلي بالطريقة التي يطعم بها الأغنياء ويكنسون ويسكنون — ويلهون ، فإن الفراغ وقوة الشراء العظيمة يقتضيان إقبالا غنياً على أسباب اللهو . ويحسن أن نبدأ البحث بالسكن ، فقصة الموسرين المعاصرين من حيث دورهم ترجع إلى منزل الأسرة العتيقة الغنية التي تملك على الأقل ضيعة ريفية كبرى تكون كافية لنفسها بنفسها ، كما تملك منزلاً فخماً في المدينة ، أضف إلى هذا وذلك ضياعاً للصيد ، ومنازل في مناطق الصيد ، وحظائر لتربية الجياد ، وكل هذه تموج بالخدم والأتباع ؛ وكان الموسرون المحدثون يريدون في بادئ الأمر أن ينفغمسوا في هذا اللون من الحياة ، بل إن كثيراً من أوائل المحدثين قد غاص إلى أقصاه في مجتسع التقاليد ،

(١) يقصد الفصول الأولى من كتابه « عمل الإنسان وثروته وسعادته » .

وأبناءؤهم الآن يواصلون تقليد الدار الريفية ويتشبهون به تشبهاً قوياً .
ومع ذلك فالدار الريفية ، حتى حين ، كانت محصورة في أيدي الموسرين
الأقدمين ، أخذت تفقد عزلتها واستقلالها شيئاً فشيئاً ، لما استحدثت من الوسائل التي
يسرت تزويدها بما يعوزها من مؤن ، فلما انقضى عهد الضياع الريفية الحقيقية ،
تكاثر نوع جديد من اللهو ، وهو اتخاذ المزارع ومعامل الألبان وما إليهما ، وهو
ضرب من العبث بموارد النفع يقدون به ما كان يحدث في قصر « البتي تريانو » ؛
ثم أخذ طراز جديد من المنازل الخلوية يحل تدريجاً محل المنازل الضخمة القديمة ،
أعنى قصور النظام القديم ، وهذه المنازل الخلوية أصغر حجماً من القصور ،
وأكثر منها رفاةً وأفضل إعداداً ، فهي توفر العمل والعناء ، ويقل بالتدريج
اتخاذها مركزاً لحياة محلية ، كما يزيد تدريجاً اعتمادها المؤونة من الموارد
الخارجية ؛ كذلك نشأت لدى الموسرين رغبة في السفر إلى الخارج — إلى الريفيرا
الإيطالية والفرنسية مثلاً — وأقصد بذلك الموسرين من الإنجليز والألمان
والأمريكيين ؛ وهناك يبتنون المقصورات الصغيرة الجميلة تسكنها الحدايق ،
فيأوون إليها في أشهر قلائل كل عام ؛ وهم ينشئون اليوم أمثال هذه المنازل الجميلة
في جنوبي أفريقيا وفي فلوريدا وكلفورنيا ، أو حيثما وجدوا مناخاً يمتاز بجماله ،
وبذلك يتبعثر الأغنياء شيئاً فشيئاً ويزدادون ميلاً إلى الأخذ بالمذهب العالمي .
ولم تعد الدار الريفية في إنجلترا — حيث لا تزال قائمة حتى اليوم — مركزاً
اجتماعياً ولا مستقلة بنفسها في سد حاجتها ، فعلى مقربة منها ترى ندوة الجولف
أو ندوة ريفية تتمازج فيها طبقات المجتمع في غير كلفة ، ولم تعد الدار الريفية — كما
كانت فيما مضى — مركزاً لحياة متصلة ؛ وبات الناس اليوم يلتقون زرافات لينفقوا
عطلة الأسبوع ثم يتفرقون ، وزاد إقبال الموسرين على تأجير منازلهم في الريف

والخضر ، فأصبحت على وجه العموم أقل خصوصاً مما كانت ؛ ولكن تلك الصفة الفردية من حيث تخصيص الدار لصاحبها وحده زادت في حالات نادرة ، وذلك حين ينشئها أربابها وفق هوائهم الشخصى مسرفين فى ذلك ، ومعظمنا قد سمع أو رأى مثالا من هذا الضرب الأخير من المنازل التى رجحت فيها النزعة الشخصية فى أمريكا وأوروبا ، فهى ما قد تسميه عامة لندن بالمنازل « المبهرجة » — تشبها لها بالغوانى المبهرجات ؛ أما الثرى الحديث فلا يقيم فى بيت يملكه ، بل يسكن دارا عظيمة يستأجرها ، فإن اتخذ مقصورة للهو فلا تتبعها ضياع ، ويكفيه أن تلحق بها ملاعب الرياضة ، وإلا فهو قانع بالمقام فى فندق فاخر ، وذلك لأن الثروة الحديثة لا تستقر فى مكان بعينه ، بل تنتقل هنا وهناك من حين إلى حين ، فهى لا تمتد بجذورها امتدادا محليا كما كانت تفعل الثروة القديمة ، ولذلك لا تتخذ لها طرازا خاصا من المنازل ، ولعلها مدركة ما قد يطرأ عليها من الزوال .

ولسنا فى هذا الصدد بحاجة إلى وصف مطول لحياة البذخ الحديثة بكل ما فيها من تبرج غير مسئول ، فإن ما يصدر اليوم من الصحف التى تروى أنباء الأغنياء ، وكبرى المجلات الأسبوعية المصورة التى تحمل فى طياتها الإعلان عن الموسرين ، لتصور لنا تلك الحياة فى مناسطها المتغيرة المتجددة ، فترى منهم زرافات يرتدون أنغر الثياب ، ولا يدل ظاهريهم على أنهم حقيقون بالنعمة الجزيلة ، بل إنهم فى الحق لا يستحقون منها شيئا كثيرا ؛ فإن كانوا فى ظاهر الأمر لا يضيعون على الناس سبل الحياة ، فهم لا يجهدون أنفسهم البتة لدرء كارثة قد تصيب النظام الذى كان سببا فى وجودهم ، بل إنهم لا يدرون كيف جاءوا إلى الوجود ، ولا يفقهون من أين يأتىهم الخطر ، فترى شطرا عظيما من الإنفاق فى العصر الحديث منصرفا إلى اللذة ، وإلى اللذة الحسية بنوع خاص ، أو يراد

به مجرد إشباع الغرور ، أو درء ما قد يتهدد الموسر في شخصه من خطر ؛ فإن كان كثير من الأثرياء الحداثين يقنع بخدم أقل ممن كان يتخذهم الموسرون الأقدمون ، فهم يستتبعون حاشية أكبر مما استتبع أولئك ، حاشية لا يستطيع وصفها إلا طائفة من كتاب القصص ؛ أما المسرفون في الغنى فلهم بطانات تضارع بطانات الملوك ، تخدمهم خدمة تنتهى حيناً إلى الصداقة وحيناً إلى الذل ؛ وإنه ليتضح مما يتاح عالمه للباحث في هذا الجانب من الحياة — من مطالعة ما يُنشر من الخطابات ومن الدعاوى القضائية ومن القصة المعاصرة التي تكشف عن هذه الخازى — أن المرأة للمغامرة تلعب فيما يظهر دوراً يتزايد في مآسى الحياة لم تقم بمثله في أى وقت مضى ، وأن جماعات الأتباع المرائين والأذئاب المتطفلين يزدادون على اختلاف صنوفهم ، ازدياداً سريعاً حول معظم القابضين على زمام القوة الشرائية ، هذا إلى أن هؤلاء الأذئاب يستتبعون بدورهم عدداً كبيراً من الأذئاب .

وحقيق بالرواى الحديث أن يعنى بخبراء التجمل والأطباء الذين يعيشون كلاً على الأغنياء ، فأما الطبيب الطفيلي فوسيلة سهلة للحصول على صنوف المبهات والعقاقير التي يهيئها بما له من الخبرة في مهنته ، كذلك باتت حرفة من الحرف أن يعيش الفنان في كنف الأغنياء ، وأن يظفر مع الكتاب والناقد بأعجابهم إذا أنتجوا ثمرات عقلية وفنية تخدر العقول ، وأن يقول رجل الدين ما يفعل بالروح فعل العقاقير ، ثم يحبىء مع هؤلاء صانع الثياب الفاخرة ويوشك أن ينزل معهم في منزلة واحدة .

وننتقل بعد هؤلاء إلى من يستخدمهم الموسر من بَنَاءٍ وَنَقَّاشٍ وَجَمَّانٍ وصانع السيارة ، فهؤلاء لا يذلون للأغنياء إلى حد بعيد ، إنما ينشأ عامل جديد

هو المهارة الفنية ويقظة الضمير الفنى ؛ وأضيف إلى هذه الطائفة الخدم الذين يهيئون الموسر شؤون داره وضييعته ، فى حدود ما يعمل هؤلاء جميعاً تسيير الأمور على وجهها الصحيح ، حيث لا يعود لغواية الرياء وإذلال النفس ما رأيناه من عظيم الشأن ، وذلك لأن هذه الطائفة من العمال تحتفظ لنفسها بالكرامة ، وتشتد هذه الظاهرة فى الفنادق الفاخرة والمطاعم الكبرى ، التى لا تلتزم بتهيئة أسباب الراحة لكبار الأغنياء وحدهم ، بل تهيئها كذلك للأغنياء العاديين ؛ وفى مثل هذه الحال كلها ينبغى أن تكون الخدمة عالية المستوى جداً ، وأن تديرها أيد حازمة صارمة ، فثم عراك عارض لا ينقطع بين الطائشين من أفاذا الأغنياء وبين الطبقة الوسطى من الموسرين التى يمكن حصرها على كثرة عددها ، وكل فريق منهما ينازع الآخر خدمات هذا الضرب من رجال الإدارة والتنظيم ، وهذا الصراع بعينه قائم فيما يستحدث من وسائل السفر الفاخرة المريحة المطردة التقدم ، التى خفضت السكّلفَ خفصاً سريعاً ، بحيث تدلت إلى ما يسد حاجة الطبقة الوسطى ، وهى آمن من الوسائل الأولى على نقص نفقاتها .

وقليل من الموسرين ، بل قليل جداً من الموسرين المغامرين المحدثين ، من يقنع باللذة الحسية محوطاً بالسنة الرياء ، فتراهم يميلون إلى ألوان من النشاط ، فهم يخرجون من مكانهم الآمنة — وبخاصة الشباب الناشئ — ليداعبوا المخاطر ، المخاطر المترفة ، فيشقون الفضاء أو يسبحون على ظهر الماء بطواثرهم ، ويحتازون فى أسفارهم الأنطار المضطربة ، ويصيدون من ضخم الحيوان ما يتخذ على الدهر ، ويعبرون على صهوات جيادهم حقول الزرع إلى حيث كلابهم السلوقية ، وينطلقون بسياراتهم العتيدة انطلاق المستميت ؛ وإلى جانب هذا نفر ترى فريقاً كبيراً منهم يستمرئون المغامرات الخطرة وضروب الرياضة الجريئة ، يقوم

بها من يعيشون في أكنافهم فيشدون أزهم ويرقبون ما يفعلون ، وترى آخرين يستوون إلى موائد الميسر على رؤوس الأشهاد ، يريدون بذلك أن يهزأوا بالمخاطر التي يجوز أن تودي بحياتهم ؛ والميسر بين الأغنياء أشد خطراً على المجتمع منه بين الفقراء ، وإن تكن القوانين فيما يظهر قائمة على نفيض هذه الفكرة ، فليس ثم ما يحول رجل الأعمال الفشيط الذي يتوقف على استقراره مشروع عظيم يتوقف عليه اشتغال ألوف العمال ، دون أن يخاطر بمصلحة العمل والعمال جميعاً أمام أقدار الموائد ، كما أنه ليس ثم ما يحوله دون أن يضمن في المقامرة بعمله في سوق الأوراق المالية ، وبهذا أو ذاك قد ينتقل العمل بين عشية أو ضحاها إلى أيدي سواه ، أو قد يستولى عليه منافسوه ، وعندئذ يديره من لا يركن إلى خبرته ، أو قد يصاب بالحبوط جملة واحدة .

ولا يتم لنا وصف فراغ الأثرياء دون أن نلم إلمامة عجلى بعالمى الرياضة والمقامرة ؛ فحلبات السباق أثراى من آثار الأعصر الأولى ، وهى فى بريطانيا العظمى جزء من تقاليد الملكية ، ولا يزال الملك بما له من الحق الإلهى يقصد حلبتى « أشكُتْ » و « إيسوم » كما كان « ابن الله » من شأنه أن يذهب إلى « المعبد » فى مدينة بكين ليذبح الأضاحى ويفتتح المواسم ، فما أشد الشبه بين هذا وذاك ؛ واحتشاد الناس فى حلبات السباق ظاهرة قديمة جداً كن لها شأن فى تاريخ الإنسان ، فقد كانت فى غابر الزمان عملاً اجتماعياً لا منعرف عنه فى حياة الجماعة ، إذ لم يكن بد من هذا الاستعراض الشامل لأفراد المجتمع جميعاً ولذا كان يعقد للسباق مواسم خاصة قبل فجر التاريخ ؛ ولست أدرى إن كان سباق اليوم قد انحدر إلينا من حفل دينى قديم فى أقطار الشرق ، ومازال حياً ، حتى أدر كفاه فى هذه الصورة التقليدية ، أم تراه أثراً من آثار أسرة ستيوارت ،

ولكنى أجزم فى يقين قاطع أن أسبوع عرض الجياد فى دبلين أثر باق من حفل قديم .

ولقد يكون من الممتع أن نسجل — إذا استطعنا — فى موسوعة « العمل والثروة » التى لم يتحقق وجودها بعد ، تاريخ حلبات السباق وأن نصفها وصفا اجتماعيا — ليقراء من لا شأن لهم بالرياضة .

ولو كان لدينا الوقت والمصادر الصالحة لقصدنا إلى اصطبلات السباق لنتدبر ما يسود فيها من قواعد الترف ، ولنبحث فى مواضع الناس هنالك ، فنجمع المادة اللازمة للإلمام بنفسية المراهنة ، وسنجد فى هذا الباب أيضا أن ما يبدوه الموسرون يسرى أثره ويشيع فى جوانب الحياة الإنسانية كلها .

فهناك فريق قليل من الناس يتخذون المراهنة وسيلة لعيشهم ، وكثيرون من هؤلاء يكسبون من ذلك مالا كثيرا ، فيسكنون المنازل الجميلة ، وينفقون أيامهم فى ظلال الأشجار يستمتعون بشيء من ضوء الشمس وأمامهم الطيور الجميلة وخمائل العشب ، ومن حولهم الجماهير وقد احتشدت لتقضى أيام عطلتها ، وإلى جانب ذلك كله ترى الجياد صاحبة عادية فى مضمارها ؛ وفى هذا العالم الصغير المتلائي تتدفق الثروة تدفقا مما يراهن به المسافرون العابرون حيناً بعد حين ، ومما ينفقه الموسرون فى ذلك عامدين ؛ ومع ذلك فنظامنا الاقتصادى يحتمل هذا كما يحتمل ألوف الألوف من المضاربين والمقامرين ، ولم يحاول أحد قط أن يقدر نسبة ما تنفقه الإنسانية فى المراهنة من فكر ومجهود ، فكم ترى من المسكاتب الفخمة المؤثثة بجميل الأثاث الفاخرة بجماعة الكتابين والمدبرين ، والمليئة بطوائف المضاربين على الآلات الكتانية ، وكل هؤلاء يعملون من أجل هذا النشاط العقيم . وإنه لما يستوقف النظر الدقيق المتأمل احتذاء الناس حذو الموسرين الحداثيين

في عقليتهم وحياتهم ، فليس قبضهم على زمام القوة الشرائية يسيطر تمام السيطرة على الحياة الاقتصادية بأية صورة من الصور ، بل إنهم ليفقدون هذه السيطرة الكاملة حتى في خلق الأنماط والطرز الفنية ؛ نعم إن لهم في ذلك نفوذاً عظيماً ، ولكنهم لم يبلغ من العظمة مبلغ سلطان الأشراف والسادة في فرنسا وإنجلترا ، وصغار الملوك والأمراء في ألمانيا وإيطاليا في القرن الثامن عشر ، فهؤلاء قد أنشأوا نظاماً متسقاً لم تنشأ مثله الثروة الحديثة . وسلطان الأغنياء في هذا العصر (البلوتوقراطية) عبارة عن ضغط القوة الشرائية ضغطاً مبهم العالم ، وربما اصطنع بعض المقاييس المعينة للأناقة ، وربما عمل على توجيه المقامرة وكثير من ضروب الرياضة الغالية ، وقد يستطيع هؤلاء الأغنياء أن يكثروا من الرشاوى وأن يساهموا في دفع الديون عن الساسة الطائشين إذا ما اشتدت بهم الأزمات ، وفي مقدورهم أن يحموا أنفسهم في شؤون الدولة العامة أو في الشؤون العالمية إجمالاً أساسه الجهل والسوء ؛ وأما أثرهم في مجرى التجارة بصفة عامة ، فأشك أن يكون للقوة الشرائية عند الأغنياء المحدثين قدرة توجيهية مثل ما للطبقة الوسطى ، سواء أكان أفراد هذه الطبقة الوسطى من أصحاب الأموال أم من العوامين .

وإذا استثنينا من هذه الطبقة الوسطى أصحاب المال الذين يحرصون في إنفاق ما لهم حرصاً شديداً ، وجدنا أن هذه الطبقة — وهي تكون الجانب الرئيسي الأكبر من المجتمع الحديث — من وجهة نظر القوة الشرائية — على الرغم مما يعوزها من الفراغ ومن اتساع التجربة ، ما يتيح لها أن تشتري بحيث يكون لشرائها قوة توجيهية شديدة ، ولها من المطالب العريضة الهامة ما ينبغي أن نقابله بالتقدير والاستجابة ؛ على أن ما تتميز به هذه الطبقة من نقص الفراغ يكمله التقدم في وسائل الإعلان الحديثة ؛ فعلى القائمين بالإعلان أن يأخذوا تلك الطبقة بالرياء

والإغراء ليحملوها على الإنفاق ، وعليهم أن يهدوا هذه الطبقة سواء السبيل ، إذ هم لا يملكون اليوم اختيار الطريق التي يسلكونها ، وعليهم كذلك أن يبحثوا في الموقف وأن يفترضوا له الفروض ، ثم يرجحوا أقرب الفروض الذي يتبلور فيه الرغبات الغامضة التي تحتلح في نفوس أفراد الطبقة الوسطى الفاجحين ، فلا شك في أن الناجحين من هذه الطبقة هم — دون الأغنياء — عماد الكثرة الغالبة من المسارح ، وهم الذين يستخدمون الإذاعة والسينما ، ويحملون عناء الصحافة الحديثة ، ويقومون بضروب الرياضة كالتنس والجولف ، ويروجون لهذا النوع من الرياضة ، وهم الذين يقنعون بالمقاهى والمطاعم ووسائل السفر العادية بصورتها الراهنة .

وأميل إلى الظن بأن القائمين بشؤون الإعلان هم الذين يحددون ألوان التغيير والبدع التي تطرأ على استهلاك الطبقة المتوسطة الثراء ، ويزيد شأنهم في هذا التجديد شيئاً فشيئاً ، وأرى أن ما أخذت به هذه الطبقة في الماضي من المحاكاة السخيفة والتقليد في حيائها يقل تدرجاً ، فلم تكن للطبقة الوسطى في العصور السالفة مواضع خاصة بها في سلوكها الاجتماعي سوى ما تنقله عن الملوك وطبقة الأشراف والسادة الظرفاء من طرائق ومظاهر ، حتى لقد كان الأشراف والسادة يلعبون دوراً هو في الحقيقة بمثابة الإعلان للتجار ، فكنت ترى أصحاب المتاجر في لندن يفيدون أعظم الفائدة من عرض « الأسلحة الماسكية » أمام محالهم ، أو من كتابة هذه العبارة « بتصريح ملكي » على أبوابهم ، واسكني أشك في أن يكون لها اليوم هذا الشأن ؛ وأما الموسرون المحدثون فليس بينهم — بالنسبة إلى الأقدمين — مظهر متحد ، وليس لهم ما لأولئك من النفوذ أو الرغبة في فرض مقاييس حياتهم على الناس ، فهم لا يحبون أن تكون لهم السيادة والقيادة في عالم الأخلاق ، لأنهم لا يشعرون بتبعة السلوك العام ؛ بل هم يؤثرون أن يكونوا أحراراً آمنين

من النقد ، وأن يختلفوا عن مألوف الناس اختلافا ظاهراً ، وأن يكونوا من الناس موضع الإعجاب ؛ فهم اليوم أقرب إلى أن يكونوا أشتاتاً من أفراد موسرين ، يتخذ كل لنفسه طريقاً في الحياة ، من أن يكونوا طبقة موصولة الأعضاء ، وهم يحركون الحسد أكثر مما يثيرون التنافس ؛ وذئوع صوتهم ، ببعض أعمالهم الباهرة التي ينفقون فيها المال ، قد لا يثير في صدر الرأي من عامة الناس ، الذي حرمة الأقدار العجيبة أن يكون له مثلها ، مجرد الإعجاب وحب الاستطلاع ، بل تثير في نفسه ذلة وعداوة تستعمل حسداً .

ولقد أصبح وجود غلاة الأغنياء ظاهرة تستوجب النقد في النظام الاجتماعي ، فكل الناس يحدقونهم بعيونهم كما يحدقون صنوف الحيوان الضخم العجيب ، ولكنهم لا يكونون لهم شيئاً من الحب ؛ فلا تشعر عامة الناس بشيء من الرضا نحو الملكية بكل ضرورها (إذا استثنينا شعورهم نحو الملكية في انجارتها واسكندناوه) ، وحتى الملكية نفسها لا يقيس لنا الجزم بمدى نفوذها ، فقد اندكت عروشها في روسيا وأسبانيا بين عشية وضحاها ؛ فإذا غضضنا النظر عن الملكية لم نجد إلا قليلاً من الناس ينهض لموازرة الأغنياء ، ولا تدخل في هذا جماعات الطفيليين الذين يلتفون حول كبار الموسرين ؛ ولم يعد عسيراً أن تفرض عليهم الضرائب ، فضرورة الدخل وأنواع الضرائب الإضافية وضريبة المال بعد موت صاحبه ، كل ذلك يحد ملهم وليس في مكنتهم أن يتقوه ؛ أضف إلى هذا أن توطيد مشروعات الإنتاج بتعديل قوانين الشركات وتغييرها وبما يذاع من الإحصائيات الدقيقة ، بعمل بطريق مباشر على حصر مكاسب المضاربين ويمنع ظهور ثروات ضخمة جديدة ؛ فإذا كنا على حق فيما افترضناه من أن أصحاب الأموال الضئيلة الذين يستثمرون ملهم على صورة مفككة إن هم إلا ظاهرة

مؤقتة في مجرى التقدم الاقتصادي ، فنحن فيما يحتمل — أكثر صواباً في تنبؤنا بزوال الثروات الضخمة الضارية التي تزحف زحفاً مخيفاً في ميدان الحياة المعاصرة المضطربة بما فيها من نوازع التحصيل ، كأنها ذيل لموكب ساخر تأخر به الموعد وأرعى الليل عليه السدول فأسرع في المسير .

٣ — ما لطبقة الأغنياء من فوائد اجتماعية مسلم بها

لا نكاد نرتاب في أن الطبقة الموسرة غير المسئولة التي تشغل من الحياة المعاصرة مكانة ظاهرة تفرط في تبديد موارد الإنسان ، وتنتشر نزعات الخيال الطائش ، وتفسد أخلاق الذين كان يرجى منهم الإنتاج ، هذا فضلاً عما يستتبعه وجودهم من إمكان التدخل القوي الأحق في حياة المجتمع السياسية والعقلية بصفة عامة .

ولكن ذلك وجه واحد فقط من وجوه الموضوع الذي يدرس ما لهؤلاء « الموسرين الكسالى » وما عليهم ؛ ويكون بحثنا شديد النقص إذا لم يتناول الوجه الآخر ، فواجبنا أن نعنى كل العناية ببحث ما قد يقال دفاعاً عما نتيجته الثروات الضخمة من حرية الإنفاق وحرية الابتكار .

فلرب معترض يزعم أنه إذا كان جزء كبير من إنفاق الأثرياء المعاصرين تبذيراً ، فليس ذلك صحيحاً بالنسبة إلى وجوه إنفاقهم كلها ، فقد ينتج الأغنياء ببعض إنفاقهم ثمرات هامة لا غنى لنا عنها ، ثمرات لا يلوح أن في مكننتها حتى اليوم إنتاجها بغير هذا الطريق .

وقد أشرنا فيما سبق إلى مثل هذا الدفاع ، حين عالجنا في هذا الكتاب الثاني^(١)

(١) يشير الكاتب إلى الفصول الأولى من كتابه « عمل الإنسان وثروته وسعادته » الذي أخذنا منه هذه الفصول .

تقدم العلوم وفك القيود عن قوة الاختراع ، و بيننا كيف اعتمدت حرية الإنسان العقلية — في كل جوانب قوتها — على فريق يستمتع بالفراغ وحرية الانتقال ، فريق أدق ما يوصف به هو أنه جماعة من السادة المستقلين بأنفسهم ، فأمثال هؤلاء ممن رغب في إشباع استطلاعهم قبل كل شيء ، هم الذين أشعلوا سراج العلم الذي يضيء الآن للإنسانية حاضرها ومستقبلها . نعم إن حركات النقد الفاحص والإصلاح الفكري قامت على أكتاف جماعة من القساوسة الثائرين بنوع خاص ، ولكن خلق أنظمة التفكير الحديثة بعد أن لم تكن ، وجمع الحقائق الجديدة ، كانا يتطلبان بصفة عامة حرية أوسع وقوة شرائية أعظم مما يتيح لأصحاب الثورة العقلية ؛ فها هو ذا روجر بيكون قد نشأ في عصر إجداب وفقر انعدمت فيه طبقة الأثرياء ذات الفراغ ، فصاح صيحته وانطلق سراحه ، في حين استطاعت الجمعيات العلمية التي أنشأها السادة المستقلون في عهد النهضة — وكان عصر أيسر مما سبقه مالا — أن تجري التجارب على ما جمع بالملاحظة ، وطبعت ذلك ونشرته ، فدفعت بالعالم الحديث إلى الوجود .

كان الملوك والنبلاء يكونون الطبقة القديمة من الموسرين ، ولسنا ندري كيف كانت الحركة العلمية في مراحلها الأولى تستطيع أن تنشأ بغير هبات أولئك الأغنياء الأقدمين ورعايتهم ، وقد كانوا أثبت قدماً من أغنياء اليوم ؛ وما زال العباقرة المبدعون حتى يومنا هذا يلجأون إلى الأثرياء الأحرار لتحقيق كثير من المشروعات التي لولاهم لظلت مقبورة ، ومثال ذلك كثير من المستكشفات والمعامل الكبرى ، وما طرأ على الآلات من إصلاح بعيد المدى ، فذلك كله لم يفعله المواطن العادي (صاحب الصوت في الانتخاب) أو واحد من يُصَرَّفون السياسة . وإن الفضل الذي أسداه روكفلر وحده إلى العالم لينهض دليلاً قوياً يدحض كل

هذه الأحكام السريعة التي تذهب إلى أن الثروات العريضة في جوهرها أمراض تفتك بالنظام الاجتماعي ، فينبغي أن نضع هبات روكفلر في كفة لنوازن بينها وبين إفراط الأسر التي تعدله ثراء وتقل عنه ذكاء ، موازنة بالغة الدقة ، ولا ينفرد في هذا روكفلر ، بل نرى إلى جانبه ما يقرب من عشرين رجلا من الأعلام الذين ينهضون كالدعائم في أعمال البحث الحديث ، فليست الثروة دائماً سيئة الأثر ، بل إنها في كثير من الحالات تعجز حتى عن صيانة نفسها .

ولا يقتصر الأمر على ميدان العلم وحده فيما يجوز للأغنياء أن يزعموا لأنفسهم بحق قيمة عملية ، فقد آزرُوا تقدم الفنون وحماية الحرية الفكرية مؤازرة لم تقدر إلى اليوم حق قدرها ، إذ كان الموسرون الأحرار حماة غير رسميين لحرية الكلام ، ولا يزال كثير من أصحاب البحوث النقدية والفلسفية — وهم أقوى أثراً وأقل ذبوعاً من سواهم — يستعينون بفئة من الأثرياء ثراء نسبياً ، ومن العسير أن نتصور كيف كان يمكنهم أن يستقلوا استقلالاً عملياً بغير هذه الوسيلة . ورب قائل يزعم أن أناساً ثرواتهم أقل من ثروات العصر الحاضر يستطيعون إنشاء الجمعيات والمساهمة بمبالغ صغيرة يكون لمجموعها في النهاية أثر فعال ، ولكن الموسر الصحيح الذي أوتي الرشاد والفراغ يستطيع أن يشاهد نتيجة ما دنع المال من أجله ، في حين يستحيل أن يتاح هذا للأغنياء المتوسطين المشتغلين بأعمالهم والذين يساهمون بأموالهم ، هذا بجانب ذلك بخمسة ، لأن هؤلاء يقعون فريسة لـ « كُتَّام السر ومن إليهم من « المنظمين » ، ولا تكاد الجمعية تسلم أمرها إلى كاتم سرها حتى يتعذر عليها عادة أن تنعقد لتناقش الحساب ، وعلى ذلك يتبدد المال الذي يدفعه متوسطو الثراء في هذه المساهمات العاجزة ، كما يضيع ما لهم حين يساهمون به في التجارة مساهمة عمياء ؛ وهاتان الظاهرتان ترجعان إلى علة واحدة ، وهي

محاولتهم أشياء لا يبسطون إدارتهم ورقابتهم عليها ، أعنى أنهم يحاولون في كثير من الحالات أموراً خطيرة الشأن ثم لا يجدون لها متسعاً من وقتهم وخبرتهم ، وعلى ذلك فالجمعية التي تؤسسها الطبقة الوسطى بديل هزيل جداً للجمعية التي يرعاها موسر واحد ذكى .

وإن كان ذلك عسيراً فأعسر منه أن يوجه الساسة أموال الشعب في عناية وذكاء ، فينفقونها في أوجه قد تعود عليهم بالنقد المار أو لا تعود ، ولكنها بغير شك تفقد أصوات الناخبين ؛ ولا يعزى عن الببال أن الجانب السيئ من فراغ الموسرين — جانب الترف والتبذير — هو أبرز جوانبه ، ولكنك ترى مع ذلك كثيراً جداً من الأثرياء يقل فيهم الفضول ويشرفون على أعمال لا مندوحة عنها لتقدم الإنسانية ؛ ويستحيل أن نجزم بالنسبة الدقيقة بين فوائد الثروة الحرة السائدة في هذا العصر وبين ما تؤدي إليه من تبذير محض وضرر للمجتمع ، ولكننا لا نستطيع إنكار الأمثلة الفاعلة ممن ينتشلون قوة الإنفاق من السقوط^(١) .

ولكن إذا أمكن للثروة — كما رأينا فيما سلف — أن يتغير مظهرها في مائتى عام ، إذ تحولت من أملاك عينية إلى أرقام مدونة في قوائم الأسهم وودائع المصارف ، فلماذا لا تمتضى في هذه السبيل حتى تتشكل في صورة أكثر تجريداً من هذه وتتيح فرصة أكبر لضبط قوة الإنفاق بما يفرض عليها من تحفظات وقيود ؟

نحن نزعم أننا نستطيع أن نظفر بكل ما فى الإنفاق الحر من خير وأن نتخلص من بعض شره إذا نشأت طبقة أخرى تنفق إنفاقاً حراً ، غير أن هذه الطبقة لم تتحدد في عقولنا تحديداً واضحاً ، فليس ما يبرر مثلاً ألا تمنح اليوم هبات ملائكية

(١) إذا أردت أن تطالع في هبات الأغنياء فاقراء الفصل السادس من كتاب « أخطار الطاعة Dangers of Opulence » مؤلفه الأستاذ هارولد لاسكى Harold Lasqi .

وشعبية - كما كان يحدث فيما مضى - إلى المحترمين والفنانين وأصحاب القدرة الإنشائية الممتازة ؛ نعم إن قدرة الإنشاء لا تصحبها دائماً قدرة التنظيم والإدارة ، ولكن العالم العزيز الإنتاج الموفور الرفاهة الرفيع الأخلاق سوف يحتمل الأثرياء الممتازين بعقولهم التجريبية ونشاطهم العقلي ، وسيتمين فوق ذلك ضرورتهم له ، بل قد يجاوز ذلك فيصطفى بعض الرجال والنساء ويبيع لهم أن ينفقوا الأموال العريضة فيما يروونه جديراً بالإئناق . ويلد لنا أن نرقب طبقة غنية يأتى ثراؤها عن انتخاب وتعيين جزاء ما يعمل أفرادها ، ولا ينتج عن انصرافهم إلى التحصيل ، أعنى أن يكون الأغنياء أفراداً أعطيت لهم الثروة ولم يختطفوها اختطافاً .

وتستطيع أن تلمح بارقة خافتة لما عساه أن يحدث في المستقبل بشكل أوسع ، في القانون الذى صدر منذ حين يبيع الخمسة رجال هم : المستر بولدوين ، ومستر هيو ماكلان ، والسير جيمس إيرثن ، والسير جوزيا ستامب ، ومستر جون باكان ، حرية عملية لا حد لها فى إئناق مليونى جنيه فى وجه يروونه مؤدياً إلى صالح الشعب الإنجليزى ؛ وصاحب هذه الهبة التى ستميح لنا تجربة لذيذة فى موضوع الثروة ، هو المستر هاركنس من أهل نيويورك ، الذى أدى به التواضع أن يشك فى قدرته على إئناق ماله فى أحسن الوجوه ، فاعترم أن ينيب عنه هؤلاء الخمسة فى القيام بهذا العمل ، وهو ينفق يديه من ماله نفصاً ، ويلج فى أن يكون لنائبه تمام الحرية ؛ وبديهي أن عالم الثروة يستطيع أن يصنع فى المستقبل ما صنعه مستر هاركنس ، فيجيز لرجل معروف أو لجماعة من الأكفاء حرية التصرف فى مبالغ عظيمة من المال .

٤ — فكرة المساواة في الأجر بين الجميع

إن مَثَلَ الاشتراكية الأعلى الذي يوجب أن يأخذ كل فرد في المجتمع أجراً مساوياً لما يأخذه سائر الأفراد ، قد شاع في الأيام الأخيرة شيوعاً عظيماً ، بعد أن أذاعه « شو » في كتابه : « رائد المرأة الذكية إلى الاشتراكية والرأسمالية » ؛ فلم يعد بين الناس من لم يسمع بهذا الرأي ، ولكن لم يثرْ حوله إلا قليل من النقاش ، أو قل لم يثر حوله نقاش على الإطلاق ، وهو رأى لازمٌ للمذهب الاشتراكي إبان القرن التاسع عشر ، وكان قد ذهب إليه رَسْكِنُ في كتابه « إلى هذا الأخير Unto this Last » ؛ ويظهر أن المسيح قد ارتآه كذلك وأراد أن يبشر به في « العمال تحت عريشة الكرم » ومنه استمد رَسْكِنُ عنوان كتبه ، وهذا الرأي أيضاً هو المثل الأعلى الاجتماعي في روسيا ، غير أنه أمل لم يتحقق ؛ فهو قضية خلقية وليس غايةً بيلاجية أو اقتصادية .

وأنت تلحظ في « شو » نزعة صوفية جامحة في عقله الذي طبع صافياً نقادا علمي النزعة ، ولكنه مهووس الفكر ، فهو عقل علمي أنشأته وتعهده طائفة من الموسيقيين وأرباب الفن ، ثم فسد إلى حد بعيد لشدة ميله إلى المزاح ، ولنبوغه المنقطع النظير في التأثير المسرحي ، وهو يمتاز بذكائه المرهف الذي ينجح به الطرب دائماً ؛ ومن الثابت أنه يستحيل على كائن من كان أن يواصل نشاطه العقلي ، فكل إنسان له جانب يسلم به من غير إجهاد لفكره ، ولا يشذ « شو » عن هذه القاعدة ، غير أن ركوده العقلي يتناول آراءه الأساسية ، فهو يكره دقة البحث في مصادر أفكاره ، على أنه يستقي هذه المصادر ممن يتصل بهم اتصالاً شخصياً ، ويتأثر بهم تأثيراً مباشراً إلى حد لم يعهد في أمثاله من نوابغ العقول ،

ولم يستطع قط أن يتحرر من الميول السائدة في القرن التاسع عشر ، نحو التطرف
والمساواة بين الأفراد ، فكانت فكرة مساواة الأجر بين الجميع ، أى المساواة بين
الأفراد في قوتهم الشرائية ، امتدادا منطقيا لدعوى الديمقراطية في القرن
التاسع عشر ، اتسع حتى شمل في تطبيقه الأشياء المادية ؛ فالمساواة في الأجر
— إذا سُدَّت حاجات الإنسان الشخصية الضرورية — معناها المساواة بين
الأفراد في توجيههم لمناشط العالم الإنتاجية ، ولكن التكوين العقلي للشخص
العادى في الوقت الحاضر لا يكفي لحفره لهذه الغاية ، وهو عاجز في هذا عجزه عن
الرقابة السياسية على الأقل .

ونحن نعلم كيف تأثرت اشتراكية ماركس تأثرا عميقا بالمثل الديمقراطية
السائدة ، وكيف أحدثت المساواة التى تنادى بها تعاليمه ازدواجا عجيبا في اتجاه
التجربة العظيمة التى تقوم بها روسيا السوفيتية ، وذلك مع وجود الآراء
الحديثة في التنظيم الاقتصادى ، فكانت النتيجة في روسيا ، وسنكون
في كل محاولة يراد بها تحقيق ما يقترحه « شو » ، أن يعتنق الناس الاشتراكية
المتطرفة في الإخاء ، وفي الوقت نفسه يضعون زمام الإدارة العملية في يد هيئة
تتركز فيها السلطة ، وذلك بسبب الاختراع الحديث والإنتاج الكبير الذى
يتطلب الإدارة الحاذقة . وهذه الفئة تبسط سلطانها بسطا يدعو إلى الريب
من بعض الوجوه ، ثم تزعم أنها تعمل « للخير العام » وبذلك تُخرس ألسنة
النقد كلها ، وتقيد نوازع الابتكار الحرة ؛ وإذن فتنفيذ فكرة « المساواة
في الأجر بين الجميع » لا يتم إلا على يد حكومة طاغية (دكتاتورية) تعطى
المواطنين ما تراه صالحا لهم ، على أن تسوى بينهم في عطاياها على وجه التقريب ،
وقد يكون ما يجره هذا التساوى من فقد التنوع والحرية ، وزوال الابتكار على

الأخص ، ثمنا غاليا جدا له ، بل هو أغلى من أن يشتري به زوال الأثر بآه بترفهم وتبذيرهم من مجرى الحياة الاجتماعية .

وينبغي أن نؤكد في هذا الموضع أنه من الخطأ أن نزع أن الثروة هي « سبب » الفقر ، فذلك في رأينا وهم شائع بين الناس في هذا العصر ، وتؤدي بنا أبحاثنا في هذا الكتاب إلى أن الفقر والغنى غير المسئول نتيجتان للنظام الاقتصادي الباطل المضطرب ، كما أن الدخان والضوضاء والقذارة والبطء تنشأ كلها من السيارة إذا كانت رديئة التكوين ، ولكن الضوضاء لا توقعها عن المسير ، والعكس صحيح ، فيجوز أن يرتفع أحدهما ويبقى الثاني .

ولا يقل عن ذلك خطأ أن نزع — كما يريد مبدأ المساواة في الأجور — أن كل نظام اقتصادي كأننا ما كان سينتج مقدارا من الثروة لا يتغير ، وأن المشكلة كلها هي في تقسيم مجموع الإنتاج الثالث تقسيما متساويا أو غير متساو ؛ فإن العقم الذي يصيب الثروة بتأثير جامعي المال من أمثال حتى جر ين يؤثر في الإنتاج أثرا أسوأ جدا مما قد يقال عنه من أنه لا يفعل سوى أن يسلب ملايين العمل أقدارا من المال لو أضيف بعضها إلى بعض لسكانت في مجموعها ما حصلته حتى من ثراء ؛ فهي جر ين وأضرابها يحولون دون الاستثمار المفيد ، وهم لا يحبسون الثروة وكفى بل يخططون في توجيهها فيحولون دون خلق ثروة جديدة ؛ وما هي جر ين إلا حالة واحدة من الحالات التي تعمل فيها الملكية الخاصة الجامحة على جمود الموارد الطبيعية والمشروعات الاقتصادية ؛ وإنما تقع تبعة هذا على النظرية العلمية للملكية ؛ وفي رأينا أن الملكية المفيدة صورة من صور الغنى ، وأما « أعمال » جاي جولد وأمثاله فتفعل فعل القنابل إذا قذفت في غرفة الآلات ، وفي مقدورنا أن نمنع مثل هذه الأعمال ، وفي إمكاننا خلق الثروة كما أمكننا جمعها ، فمثل ثروة فورد وأديسون من شأنها أن تثرى الجميع .

فهل يستحيل علينا أن نعيد تنظيم شؤوننا بحيث تكون الخدمة شرطاً لازماً للثروة ؟ إن الحقائق التي جمعناها ورتبناها في هذا الفصل وفي الفصول السابقة تميل إلى الجواب بالإيجاب ؛ ومن الطفولة الظاهرة أن نفترض أنه قد تم لنا نظام صالح سواء في النقد أو في الإقراض ، وأمعن في الخطأ أن نزع أننا قد جربنا نظاماً صالحاً في هذا أو في ذاك ، فإن العالم لم يكذب يوماً حتى اليوم في التفكير في المال تفكيراً رشيداً ، فنظرنا إلى الملكية وما نفرضه على استخدامها من رقابة قضائية شيء صبياني محض ؛ وقد أخذت تلوح اليوم تباشير علم يبحث في الدوافع الاجتماعية ، ولكن إباحة حرية الابتكار في عالم منظم لا تزال مشكلة تنتظر البحث ، ولا يزال أمامنا كثير من التفكير وكثير من التجربة وكثير من النزاع والفشل ، فأمامنا آفاق عسيرة من التنازع والفوضى لا نجد فيها ما ينصر القوى الإنشائية بحال من الأحوال ؛ وإنه لو فهم محض أن نخيل لأنفسنا أن في مقدورنا أن نثبت بقفزة واحدة من النظام السائد اليوم بكل ما فيه من عوامل التعقيد إلى حياة مثلى تسود فيها المساواة ، هذا إن فرضنا أننا نشد شيئاً كهذا من الوجهتين الاجتماعية والبيولوجية .

هـ - هل يود الأثرياء المحدثون أن يظل الفقراء على فقرهم ؟

يحمل بنا في هذا الموضوع أن نناقش عبارة وردت في كتاب نشر حديثاً في مسائل النقد ، وأعنى به كتاب الأستاذ «سودي» وعنوانه «المال والإنسان» ؛ وإنه لحادث له دلالة في هذا العصر أن شخصاً ممتازاً في علم الطبيعة كالأستاذ سودي ، الذي بلغ شأنه في هذا العلم أن ظفر بجائزة نوبل عام ١٩٢١ ، تجذبه الحاجة الملحة لبحث موضوع النقد إلى دقائق الأمور المالية ، فبحثها من ناحية

فريدة في طراقتها وقوتها ، وله من قبل هذا بحوث نشرها ، فأصدر كتاب Cartesian Economics عام ١٩٢٢ ، ثم أصدر كتاب « الثروة الحقيقية والدّين » عام ١٩٢٦ ، كما نشر كتاب « تحطيم عصر علمي » ، وبرهن بما كتبه في موسوعة الأعلام على أنه « مشغوف بالشؤون الاقتصادية التي نشأت بعد طوفان الحرب » ؛ ونحن بغير شك نرحب بهذا الزعيم الذي يحاول أن يضع الاقتصاد السياسي العتيق في متحف الحفائر ، ويصططع في نقده أسلوباً عنيف الثورة يبعث القاري على التفكير ، وهو ليس ظاهرة في ذلك ، بل يُعَدُّ طليعة تمهد لما بعدها ، فإن غرفة المومر ومكتب سمسار الأسهم وحجرة لجنة الإدارة سيغزوها نفر متزايد من الباحثين الذين يمتازون بشدة الذكاء وقوة الشك ، والذين يقاومون الخداع والغموض ، ويصوغون آراءهم في عبارات لا تمرّف الرّياء ، مثل : « ما قبل الطوفان » و « المتجسسون الخائنون » وما إلى ذلك ، في جرأة عجيبة ؛ وهم معترمون ألا ينكصوا على أعقابهم قبل أن يعلموا ما يريدون أن يعلموه .

ونستطيع أن نتخيل الأستاذ سودي ينوب عن علم الطبيعة فيقول : « إنا معشر العلماء قد محونا شقاء العمل ولكن الناس لا يزالون يشقون ، وخلقنا وفرة الإنتاج ولكن الفاقة لا تزال جائمة في كل مكان ، فما الذي يحول بيننا وبين الناس ؟ » ثم يقول في حدة : « لمت شعري ماذا تريدون يا لصوص المال ؟ » فإن لم تكن هذه العبارات من قوله فهي لسان حاله .

واسكننا لا نبجث هنا في نفسيته ، إنما نبجث النتيجة التي يعلنها وهي جد خطيرة ، وإن يكن قد عدها نتيجة فرعية إلا أنها أساسية في الواقع ، وفيما يلي عبارته التي قالها في هذا الصدد ، والتي نقصد الآن إلى بحثها ، فهي تقرير جرى لما تنطوى عليه الإنسانية المزدهرة من شرور ، هو يزعم أن السكثرة الغالبة من

أصحاب النشاط إنما تعيش للقوة وتشد الغلبة على إخوانهم من بنى الإنسان ،
وهالك عبارته :

« إن من بين أغراض العلم أن يجعل بعض الناس أغنى جداً من بعضهم الآخر ، وللعلم غرض ثان يخالف هذا أشد الخلاف ، وذلك أنه يحاول بدهائه أن يدك نظام المجتمع البشرى السائد ، وأن يخلص الناس جميعاً من غائلة الفاقة الفاتكة ؛ فبين الناس كثيرون نبهة شأنهم ومات ضماؤهم ، بل قل ذلك عن معظم الأقوياء الناجحين في المجتمع ؛ فلا يبعد على هؤلاء أن يُؤثروا حياة تنعدم فيها المدنية على حياة تجلب لهم الغم ولا تعمل على إسماعهم ؛ وقد اشتهم بعضهم بؤادر الخطر ، فبعد أن كان أصحاب الفن والجمال هم الذين يناهضون وحدهم النزعة الآلية المتزايدة في هذا العصر ، وإن تسكن مفاهضة بغير جدوى ، ارتدت الموجة وعمل العلم على فقر الأغنياء فقراً نسبياً بأن زاد في ثروة الفقير ، فبات من الجائز أن تصادف فسكرة مقاومة الآلات وهجرها والعودة إلى العمل اليدوى واستخدام الرقيق أشياءً بين أرباب النفوذ الذين كانوا أبعد الناس عن تأييد هذه الحركة »
فهو في حقيقة الأمر يضيف مجموعة رابعة إلى المجموعات الرئيسية الثلاث التى قسمنا إليها أنماط الناس ، أعنى المزارعين والبدو والمتعلمين ، أقول إنه أضاف مجموعة رابعة هى الطبقة الجديدة التى تشتغل بالمال ، فهذا نمط جديد غايته الأولى أن يسود ويبطش بماله المكسوب .

رُى كم يصدق التحليل النفسى الذى بسطناه فى هذا الكتاب . للصلة التى تربط الجانبين الاجتماعى والاقتصادى ؟

أحسبنا مضطرين إلى الاعتراف بأنه ليس فى قصة تقدم النظام القائم للمال والاقتصاد — كما كشفنا عنه — ما يرد التهمة الواضحة التى وجهها الأستاذ

سودى ؛ فقد كان النظام القديم السابق للانقلاب الصناعى والآلى غاية فى الإجحاف الصريح ، وكان يتذرع فى ذلك بعذر جميل ، وهو أن المجتمع البشرى لا يمكن بقاءه إلا إذا لبث الناس فى حضيضهم ، وكان رجل الدين يرضى لنفسه الذلة ويعمل على أن يظل الزارع فى وضاعته ، فانصرف فيض لئلا تذ الحياة كلها ، كما انصرفت أسباب السكبرياء والعز ، إلى السادة والأرستقراط والأمرء ، وهم خلفاء البدو الغزاة ، فكان لهذه الطبقة الرفيعة أسمى منازل الحياة ؛ وسقط بين أيديهم من اشتهوا من النساء ؛ ولا يجوز أن نفرض النظر عن الدور الذى لعبته النساء طوال العصور الماضية فى تاريخ البشر ، فقد كُنَّ يُتَّخَذْنَ مِنَحًا وجوائز وحوافز ؛ وكنَّ يرضين بما قسم لهن تمام الرضا ، فيقبلن الحلى والثياب ويهلان للناهب الظافر ، وكانت النساء دائماً طوال عصور الإجداد يستقبلن فى وقار مصطنع ما يمكن اقتناصه فى الحياة من لذة ورفاهة ؛ وهكذا كن زينة المجتمع ، وعلى هذا أنشأ الشباب ، وتبين فى جلاء أن العامل ينبغى أن يظل فى منزلته الوضيعة — فلم يكن ثم ما يدعوا أحدا أن ينادى ببقاء الفقراء فى فقرهم ، لأن ذلك جاء نتيجة طبيعية ؛ وأخذ رجل الدين يحول فى معمعان الإنسانية يتوسط بين أحزابها ، فيغرى الثرى بالإحسان ، ويحمل الفقير على الشكور والاستسلام للقدر ، ساعيا جهد سعيه أن ينزع الأملاك المثمرة من أيدي ملاكها ما استطاع (ولكن هذا السعى اقتصر على رجال الدين الأذكىاء ، حين لم تحل دون مسعاهم القوانين) .

ولقد كان من نتائج التقدم الصناعى الحديث الذى يرتبط باختراع الآلات بأوثق الروابط ، والذى جاء نتيجة الحرية الفكرية فى عهد « الإصلاح » ، أن تبدل العالم المجدب إلى عالم فيه وفرة تكفى الجميع ، ولسكنها وفرة موجودة بالقوة

(لا بالفعل) ، غير أن ذلك التحول لم تلازمة حالة فكرية تمهد الموقف الجديد ،
فقام بناؤه على الأساس الفكرى القديم ، وتفرغت الطبقات المشتغلة به من
الطبقات الأولى التى امتد وجودها على الزمن ، فأما طبقات المتعلمين فقد خلقت
الفرص خلقا دون أن تستثمرها بنفسها ؛ وعلى ذلك بدأ الفصل الجديد من المسألة
البشرية بمنظر الخطف والتكديس ، ولم يكن ثم ما يبرر هذا البدء ، ولكن
ذلك ما حدث ، فورث أصحاب المشروعات الصناعية خصائص الزارع القديم من
حيث حبسه المال وكنزه إياه وتقديره وكثرة عمله ، وكان المغامرون المليون أسبق
منهم إلى ذلك ؛ ثم امتزج الفريقان ، فريق أصحاب المشروعات وفريق المغامرين
الماليين ، أحدهما بالآخر فتكون منهما « الأثرياء المحدثون » كما عرفناهم فى
الفصل الأول من هذا البحث ، وهؤلاء هم الذين مازجوا « الأثرياء الأقدمين »
بل احتلوا مكانهم إلى حد كبير ، فى نفوذهم ومطالبتهم بحق التبجيل والاحترام ،
وهكذا اصطنع الأثرياء المحدثون تقاليد الأقدمين ، وحاكوه فى الزهو والظهور ،
وابتغى وسائل الترف الباذخ للنساء واجتذاب قلوب الغانيات ، واحتقار عامة
الناس ، والغيرة من كل ضروب التنافس والمباراة والمقارنة بينهم وبين العامة —
نقلوا عنهم هذا كله واعتبروه أمراً طبيعياً لا شذوذ فيه ، وماذا يملأ صحف البدع
اليوم فى صفحاتها الكثيرة التى تخصص للإعلان عن وسائل الترف غير رسوم
الأغنياء يتظاهرون فيها بانتصارهم ليظفروا من الناس بالإعجاب ، ويشيروا فى
أنفسهم الحسد ويحركوا الحفيظة فى طبقات العمال بصفة خاصة !
فالحق الصراح أن الموسرين فى العصر الحديث لا يحسون رغبة قوية فى
أن تحسن حال الفقراء — مادام فقرهم لا يجعل منهم طبقة خطيرة — وإلى هذا
الحد نتفق مع الأستاذ سودى ؛ فلا شك أنهم مستعدون أن يقابلوا آلام الناس

بشجاعة باسمه ، بل مستعدون أن يجيبوا حسدهم بشيء من التظاهر الذى يزيد من ثورة الحسد زيادة يجاوز معها مجرد المقاومة ، ولكن هل نكمن حقاً إرادة قوية وراء هذه النتائج البارزة التى نجمت عن النظام المالى السكتيب القائم اليوم ؟ ها هنا نخالف الأستاذ سودى ، ولنسلم بأنه لا يرجى من أغنياء العصر الحديث أن يعاونوا فى إصلاح شؤون الحياة الإنسانية من حيث نظم النقد والمال ، ولنعترف أنهم سيجاوزون ذلك فيقفون فى سبيل ذلك الإصلاح سدا منيعا ، وأنهم سيؤيدون ، بل هم اليوم يؤيدون الحركات الرجعية الجامدة على اختلاف ضروبها تأييداً أحق ، وأنهم سيؤازرون المملكية هنا والعصبية الوطنية والدينية هناك ، لا شيء إلا لينعموا بالألقاب وليظفروا لأنفسهم بالأمن ، ولهميثوا الأسباب لحفلات التتويج التى يحضرونها ، وليبسطوا رعايتهم أينما استطاعوا ، كل ذلك حق ، فلا يرجى منهم أن يكونوا أكثر من جماعة خاملة تستهلك وتقاوم ؛ ولكن أمراً آخر يسترعى النظر وهو : هل ينتظر أن يعلنوا حرباً منظمة منتجة لمقاومة التقدم المطرد فى سبيل حكومة اقتصادية واحدة تسيطر على العالم كله وتقوم على أساس نظرى صحيح ؟

هنا نتفق فى النتيجة مع الأستاذ سودى وغيره ، فإن عقله الصافى الجبار ليرى أن يرى الأرزاء التى تهد العالم هذا ، وأن يشهد صنف الذل والإجحاف ، مع يقينه أن فى مكتبة هذا العالم نفسه أن يكون نشيطاً سعيداً ، وهو يرى أن النية الخالصة لخدمة المجتمع واجبة ، فطبيعى أن يثور ويصول فى حدة من الغضب ؛ ولكنه يجهل بعض حقائق الحياة ، فلم يبلغ علمه بالبياجة وعلم النفس وفلسفة الحياة من الرصانة — إن صح هذا التعبير — مبلغ علمه بالطبيعة (الفيزيقا) ، فهو يرى أن منظر العالم يثير النفس لأنه يتألف من كائنات عاقلة تنصرف بما

يناقض العقل ، وتسلك في الحياة مسلـكاً مشيناً ؛ ولكن الناس في حقيقة الأمر لم يبلغوا إلى اليوم أن يكونوا كائنات جد عاقلة ، وهم لا يعلمون بأن إخلاص النية نحو المجتمع واجب عليهم ، ولا يظنون أن خدمته ضرورة لازمة ؛ فليُعِدْ الأستاذ سودى نظره إلى العالم كـكل واحد ، كما نحاول أن نفعل في هذا الكتاب ، ولينظر إليه باعتبارـه جنساً يتألف من نحو ألف وتسعمائة مليون من الأنفس المنحدروا من أسلاف يشبهون القردة ويقرّبون من الوحشية والأناثية ، ولم يبلغوا بعد من التهذيب حداً بعيداً ، ولكنهم سائرون في سبيل التـهذيب سيرا وثيداً ، وأنهم بشقّون طريقتهم في تعثر وبطء إلى المعرفة والعقل والتعاون الكامل ؛ فإن فعل ذلك فلن يرى الحالة أسخف مما يراها الآن ، ولكنه سيزداد فهماً لعوائق التقدم التي يحاول تذليلها ، وسيدرك وسائل العلاج التي ينبغي أن تكون حقيقة منا بالثقة .

نعم إن فعل ذلك قلّ ضجره وأكثر إصلاحه ، واستطاع أن يرسم لنا منهاجاً أوضح ، واقتصد في نكاته الساخرة التي يرسلها على حساب الناس جميعاً ؛ فهو يستنكر أن يكون الأغنياء عبئاً وعاملاً مربكاً ، أولئك الأغنياء الذين يعوقون سير التقدم بحياتهم ، ويكتفون بحياة الخمول والترف التي يستمتعون بها بفضل الفروض الباهظة التي يفرضونها على المجتمع ؛ ويستنكر نظامنا المعرفي كذلك ، وهذا الاستنكار منه جد مفيد ، لأنه يشير إلى مواضع الإصلاح ، ولكنه يرى إلى جانب هذا تآسراً مدبراً من الأغنياء نحو الفقراء أكثر مما انكشف لنا في هذا البحث ، فهو يسمي تآسراً ما نسميه نحن بالغرائز والتقاليد ، وهو يظن أصحاب المشروعات والسرّاء أعداء للمجتمع ، ولكننا رأينا ما يبرر افتراضنا أنهم أصبحوا وسيصبحون أقلّ عداوة للمجتمع شيئاً فشيئاً ، وهو لا يعلم بأن كثيراً

منهم آليون في عملهم بحيث نستطيع أن نوجه عملهم الآلى وجهات مختلفة ، وأن بينهم فئة صالحة لا تقل عنه رغبة في أداء ما يريد أن يؤديه الأغنياء ، وهو لا يدرك أن ما تعانيه الإنسانية اليوم من حقوق باهظة غير معقولة — كحق حيازة المالكين الأفراد على الموارد الطبيعية الذى يكاد يعم العالم كله — يجوز أن يكون خطوة لازمة لتقدم الإنسان ، كما كان الرق والخرافات البدائية إحدى الخطوات في هذه السبيل ، وأنها قد تكون اليوم على أشدها وسيسهل انحصارها في دائرة ضيقة حتى تمتحى ، فهو يظن مثلاً أن الصراع القائم اليوم لإيقاف التوسع المأمول في شؤون الناس من أجل عيار الذهب إنما يعزى إلى تأمر فئة قوية معتدية فادرة ، ولكنه في رأينا راجع إلى اجتماع الخوف والعادة والخنول التقليدى ، فهذه كلها التقت لقاء أعمر ؛ ويهيب الأستاذ سودى ثائراً بالحكومات أن تسلب السراة على الفور كل صنوف الامتيازات التى تعينهم على كسب المال ، ولكنه إذ يرسل هذه الصيحة إلى الحكومات يعود فيتذكر ماهية تلك الحكومات ، فهو حين يلجأ إليها إنما يلجأ إلى الديمقراطية . وإذن فرأى الصحف اليومية ينهض نهوضاً خفيفاً ليحول بينه وبين الخلاص للمأمول ، لأن تصرف الجماهير لا يفلح في العلاج ، وهنا نراه ثائراً غاضباً ولكننا نلمس عطفاً قويا في غضبته ، غير أن العطف لا يغنى عن الإصلاح شيئاً ، فينبغى له أن يكبح جماح نفسه .

وذلك هو ما دفعنا إلى الإشارة إليه في هذا الصدد ، حتى نرد صيحاته الساخطة لنؤكد الرأى الذى قصدنا إليه ببحثنا هذا . فنحن لا نؤمن بأن نسبة كبيرة من أصحاب الأموال تأتمر على أن يظل العالم على فقره ، فبين الموسرين فئة مضطربة ولكنها شريفة القصد ، فئة يحزنونها ويسوؤوها أن ترى الأمور في

وضعها الحالى ، وكثيراً ما يكون أصحاب الأموال من رجال الأعمال الذين لم يتعودوا
الطريقة العالمية فى تفكيرهم ، ولكنهم آخذون فى اكتسابها .
ولننْخُطْ خطوة إلى الأمام لننظر إلى الأغنياء بصفة عامة ، فرأيُنَا أن قِلَّةً
من الأغنياء ترغب رغبة واضحة مؤكدة فى أن يظل الفقراء على فقرهم ، ولكن
ليس هذا العدد القليل من الطراز القوى الناجح : وعندنا أن انحطاط المرأة
النسبى من عوائق التقدم ، غير أن التعليم آخذ فى الانتشار حتى بين النساء ؛
وأن تغير الحال لا يتوقف على المترفين فى المجتمع الذين يأخذون ولا يعطون ،
نعم لا يتوقف التغير على من يشدون السلطان القوى والغلبة — بل يتوقف على
أشخاص من أمثال أديسون وفورد ؛ ويظهر أن الأستاذ سودى ، كما يتبين من
العبارة التى اقتبسناها لتكون متناً نعلق عليه فى هذا الجزء ، قد غاب عنه طراز
أديسون وفورد من الرجال ، كما فاتته وجود رجال من أمثاله هو ، فمن أين جاءت
عاطفته الاجتماعية ؟ وأنى له هذا الغضب ؟ ولماذا لا يكون من أشياع الجانب
الآخر ؟ حقا إنه يصدر الكتاب بعد الكتاب ليحور آراء الناس — أعنى يغير
أفكارهم وميولهم إزاء هذه الحالة — ومع ذلك فلم يَلُحْ طوال هذا الوقت أنه
فكر فى تلك الفئة العظيمة المتزايدة من الساخطين الذين لا صالح لهم فى بقاء
الحالة الراهنة ، فتصدوا للتربية يعدلون أسسها ليحطوا بجود التقاليد ، وهو
لا يميل إلى معاونة سائر العاملين فى هذا الميدان .

ويرجح أن تكون الطريق المؤدية إلى اقتصاد العالم الجديد الذى يهيمُ
الخير للناس جميعاً ، وعرة عسيرة خطيرة ، ولكن نوابع العقول ستكون فى جانبنا
وإن تقف حجر عثرة فى طريقنا ، وقد نضطر إلى الخوض فى مباءات من الغباء
وإلى مقاومة المعارضين من السراة الحقى . أما فكرة تأمر الكثيرة الغالبة من

أقوى أفراد المجتمع وأثرهم على عرقلة التقدم ، فأضغاث أحلام تراءت للأستاذ سودى فى بعض حالاته السيئة ، ولكنها أضغاث يجب أن نمحوها بالرُّقى لأنها قد تفسدُ فى الذهن وتدعونا إلى العنف والقسوة ، فى الوقت الذى يجب علينا فيه — إن أردنا أن نخدم الإنسانية خدمة صادقة — أن نتحوط ونحذر فى آرائنا فى الإصلاح وفيما نلقيه من التهم .

فإن كان الأستاذ سودى مصيباً فيما ذهب إليه ، وإن كنا نحن المخطئين فى تفسير الحقائق الجارية كما بسطناها فى هذا الكتاب ، إن كان حقاً أن أغلبية القادرين من الأثرياء المعاصرين تنشد القوة والسيطرة فتتعمد إنزال الفقر بالمجتمع الذى ينبغى ألا يعانى الفقر ، إن كان ذلك كذلك فالفكرة السائدة فى هذا الكتاب باطلة ، أعنى الفكرة القائلة باطراد تكوين مجتمع علمى اقتصادى يعم خيره الجميع ، بدل النظام الاجتماعى القائم ، وإذن فلا يعود أمامنا فى الطريق أمل نرجوه ، ولن يقع إلا ما يتنبأ به الماركسيون من حرب تنشب ضد المومنين والقادرين ، ومن بعث اجتماعى وتحطيم لنظام البشرية القائم بأسره ، فى ثورة من الغضب والسخط ، ثم العودة من جديد إلى تشييد البناء على أساس جديد ، وعندئذ نقف بين الأنقاض لا يحدونا من الرجاء إلا ما تبقى ثورة التحطيم .

٦ — الفقراء

لقد عرضنا على القارئ عرضاً سريعاً الصحف المصورة الأنيقة الشائعة مثل « ثوج » و « جرافيك » و « اسكتش » و « بنش » و « الحياة الباريسية » وما إليها ، كما عرضنا أمامه حلبة السباق وصنوف الرياضة بصفة عامة ، وللاعب الميسر فى نديّة ، والجموع المتلائة التى تحتشد فى الحفلات

الرسمية ، والعاهرة الأنيقة ، ومدير الفندق ، والأزياء والقصور ، وأضفنا كل هذا إلى قائمة طرائق الحياة عند الإنسان ، كما ربطنا كل هذا السرب المتألق وحوافزه الدافعة وعمله الذى يؤديه ودواعى ذلك العمل ، بالصانع فى مصنعه ، والمعدن فى منجمه ، والزارع بين كرومه ، والراعى على منحدر الجبل ، والسمك المبتل يجذب شبابه من الخضم المتلاطم ، وبيننا كيف تمتد أواصر هذه الرابطة بين أولئك وهؤلاء إلى دار السك والمصرف والمكتب وسوق الأوراق المالية ، وعلمنا أن عبث الأغنياء وتبذيرهم يجعلناهم زائدة أنتجت الحالة الاقتصادية^(١).

وإذا ما أضفنا هؤلاء الموسرين إلى بحثنا ، امتد بنا المنظر الذى نعرض فيه ضروبه النشاط حتى يشمل ما يربو على ألف مليون من الأنفس الحية ، كل نفس منها تسير فى حياتها وفق صفاتها المعروفة ، فكل لها آراؤها ونظرتها إلى العالم الذى تعيش فيه ، ومع ذلك فالجميع يتفاعلون بعضهم مع بعض فى هيئة اقتصادية واحدة ؛ واسكن أمراً حيويًا شديد الخطر لا يزال بحاجة إلى التفسير والتفكير ، فدوّننا الآن ظلام دامس لا بد من اجتيازه ، وأعنى به ذلك الحشد المتزاحم ممن يعملون فى سخط ولا يلعبون فى مسرح ، وهم المتعطلون الذين لا يملكون شيئاً من القوة الشرائية ، أولئك الذين يجمعون بين الفاقة والفراغ السكتيب الذى لا متعة فيه ، وهم الفقراء الذين يبدون وكأنهم زائدون عن الحاجة .

كيف ينظر هؤلاء إلى الأغنياء ؟ لقد أشرنا فيما سلف إلى أن كل فريق من هذين لا يتوقف وجوده على الآخر بصورة مباشرة ، فلا يتوقف عدد الواحد على عدد الآخر ، وليس صواباً أن نزع أنه لولا وجود الأغنياء ما كان الفقراء ، لأنه سرعان ما يعتقد بعض الناس أن الفقراء رزؤوا بفقرهم لأن الأغنياء سلبوهم

(١) يشير الكتاب إلى الفصول الأولى من كتابه الذى اقتبسنا منه هذا الفصل

حقاً من حقوقهم ، والأمر ليس كذلك ، فالعلاقة بينهما أدق من ذلك جداً وأشد تعقيداً .

إن ما يؤخّر بين ذوى الفراغ الباذخ على اختلاف صنوفهم هو القوة الشرائية ، فهي صفة مشتركة بينهم غالوا فيها غلوا كبيراً بحكم مواضعات الملكية أو بحكم ما بين النواحي المالية للحياة الاقتصادية من تفكك في عملها ؛ ونستطيع الآن بالمقارنة أن نبحث في أمر طبقة كبيرة لا تزال فيما يظهر تزداد عدداً ، وهي تتألف ممن لا ينتجون أو لا ينتجون إنتاجاً كافياً ولهم قوة شرائية زهيدة أو ليس لهم منها شيء ، فلا شك أن الحياة الاقتصادية تعطى هنا وتسبب هنالك ، ولكن ليس معنى ذلك أخذاً من فرد وعطاء لفرد آخر ، وليس علاج الأمر أن نُفرغ ما عند الغنى لنعطيه كله للفقير ، فليست عيوب الحالة الاقتصادية من اليسر بهذا الحد .

إن الفقراء لم ينقطع وجودهم في العالم قط ، ولا يقتصر الفقر على الإنسان ، بل هو ظاهرة شائعة بين أجناس الحياة وأنواعها وأقسامها جميعاً ، وربما يدهش بعض القراء لهذا القول العجيب ، ولكن السكينة الغالبة من الحيوان والنبات تعيش حقاً في فقر شديد ، فلا تملك قوتاً مدخراً ، أعنى أنها تعيش من يدها إلى فمها ، والإنسان وحده بين الكائنات الحية هو القادر على اجتنباب الفاقة ، وربما استطاع أن يقي كثيراً من النبات والحيوان شرها ؛ وأما سائر الأنواع كلها فتعجز حياة توشك أن تكون دائمة الإشراف على الموت بسبب الجوع ، فإذا أتاحت الفرص السعيدة لنوع منها وفرة في الغذاء حيناً ما فإنه لا يلبث أن يتكاثر ويتضاعف عدده حتى يبلغ شفا الجوع مرة أخرى ، ولا يخفف من هذا القانون إلا أن يجيء نوع جائع آخر ، كبيراً كان أو صغيراً ، مفترساً أو متطفلاً ، فيعتمد

في غذائه على هذا النوع المتكاثر اعتماداً يؤدي إلى نقص زيادته حتى يقل عدده عن موارد طعامه ؛ فلا بد لكل نوع من الأحياء أن يلتهمه نوع آخر وإلا تكاثر حتى ينشب بين أفرادها تفرع مميت على القوت فيموت الجانب الضعيف منه ؛ وإذن فلا بد لكل نوع أن يحيا حياة دائمة الخطر أوفي فاقة متصلة ، لأن الحياة لا تعرف إلا أحد أمرين : إما الجوع وإما العدو المفترس ؛ وفي مكنة الإنسان أن يستميل قلوب الكائنات الدنيا كلها تقر بباً ويحملها على كبح غرائزها ونقض طبائعها ، إن أطعمها .

« إن يمتنع وجود الفقراء بينكم » هذه عبارة لم يتردد أحد في التسليم بها على أنها قول سماوي صادق باستحالة زوال الفقر ، وإن أحداً لا ينكر أن الفاقة لم تزل ولا تزال تتبع الحياة في سيرها ، فما حياة المتوحش والهمجي إلا حياة فقر شديد ، حتى إن المتوحشين ليهجرون عاجزيهم ليقضوا على « أفواه لا تفيد » هجراً يفوقون فيه نابليون في وحشيته ، وهم يفعلون ذلك وبين أيديهم الثروة موجودة بالقوة (لا بالفعل) ، وهم يوقنون بقر بها منهم ، ولكنهم لا يستطيعون استثمارها . ولو أوجزنا تاريخ العوز الذي أصاب العالم خلال العصور للملأنا به مجلداً مؤلماً عبوساً ، ومن المتعذر أن نعلم نسبة الأنفس التي هلكت جوعاً في مختلف عصور التاريخ ، أو التي قضت نجبتها لعجزها عن مقاومة الأمراض التي انتابتها لقلة الغذاء أو لتعرضها للحرى والخطر ، وأنا أزعم أنها نسبة كبيرة جداً بغير شك ، فلست ترى على وجه البسيطة إلا قليلاً من البلدان جاوزت سبعين عاماً في العهد الماضية دون أن تصيبها مجاعة جائحة ؛ ولبت الناس حتى منتصف القرن التاسع عشر يحجوبون بين مدائن أوروبا الغربية وهم في حاجة ماسة عاجلة إلى الخبز ، ولا يزال الناس في الصين والهند والروسيا يتضورون جوعاً إلى يومنا هذا ؛ وأما

الحالة السائدة في إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة - أعنى ندرة الجوع الشديد - فشاذة تولدت من العصر الحديث .

ولم ينمُ الشعور بأن وجود الفقر عار يحلل الموسر والحاكم - اللذين ينبغي أن يعالجا الأمر بعض الشيء - إلا في العصر الحديث ، وأعتقد أن الرأى الذى ساد حتى بدء القرن التاسع عشر ، كان يلقى التبعة على الفقراء أنفسهم إلى حد كبير ، فكان الحسن يقذف إليهم بفتات الخبز وخلق الثياب ويأذن لهم بالنوم فى ملاحقات منزله ويتشبث تشبثاً قاسياً فى أن يظهر لنفسه بعرفان الجميل ، فهو يؤدى صنيعه هذا على أنه فضل منه ، وأما شعوره بأنه إنما يؤدى واجبا محتوما عليه فشعور ضئيل ؛ وحتى قانون الفقراء الذى صدر فى عهد اليصابات لم يقصد به إلا مقاومة المتسولين المتجولين ، فهو وسيلة لصيانة النظام الاجتماعى ، ولم تكن غايته الأولى تخفيف الشقاء ؛ وكانت الصدقات التى تعطى على أبواب الأديرة قبل « عهد الإصلاح » تسلياً أعمى بهذه الحقيقة الأبدية ، حقيقة الفقر .

ولكن الاحتجاج المكبوت لم ينقطع طوال العصور ، فقد كان فى مصر قبل الأنبياء العبرانيين بزمان طويل أدب يستنكر اعتداء الأغنياء ويثن من ظروف العمل والاستدانة ، ولكن ذلك كان فيما يظهر احتجاجاً موجهاً إلى أنماط من الناس أو إلى أفراد ، أكثر منه إلى النظام نفسه ، فكان الموسر الشرير يستثير الفقراء ولا تكنك لا تسكاد تصادف من استنكر ثروة الموسر الخيّر (وما أندره !) أو استنكر وجود الفقراء .

وأعتقد أن حماية الإنسان بل حماية الحيوان الكبير من الموت بسبب الجوع ومن قلة الغذاء قلة ظاهرة ، ولم تصبح واجبا عاما إلا فى منتصف القرن التاسع عشر وأواخره حين ذاعت الآراء والمشاعر الإنسانية ، بعد أن كان الغريب

النجيل ، والسائل العجيب في أسأله ، والحسان الهزيل موضوعات المراح البرى .
عند المصورين الهازلين منذ أقل من مائة عام ، ومنذ ذلك الحين أخذ التقدم يطرّد
لتخفيف الفاقة ، وبذلت البلاد المتمدينة كلها مجهوداً جباراً متزايداً لوقايه الناس
من الموت بسبب العرى وقلة الغذاء ولإنقاذ من تردى منهم في هوة العوز وتردم
إلى الحياة ، وللأخذ بيد من زلت أقدامهم فهووا في حبال الفقر الذى كان
يعتبر فيما مضى ضرورة لا بد منها لسير نظام الأجور سيراً حميداً ، فأصبحت تعدّه
اليوم شراً لا يكفى أن تخف وطأته بل يجب أن يقاوم حتى يزول .

فإذا جاء اليوم الذى يصاغ فيه « علم العمل والثروة » في قالب موسوعى ،
فإن ذلك العلم سيعيد النظر فيما نتبعه اليوم من أساليب البحث في الطبقة التى
لا تملك من قوة الإنفاق إلا مورداً متقطعاً أو مورداً يتناقص شيئاً فشيئاً
أو لا يملك من تلك القوة شيئاً ، وسيكون من واجبه أن يلقى نظرة شاملة على
حياة الذين لا ينتجون إنتاجاً كافياً ، ولا بد له أن يوضح بحته بالصور الشمسية
ليبين كيف يعيش الفقراء في الشوارع الخفية المعتمة في أمريكا وأوروبا ، وفي
الأحياء الفقيرة في مدائن الصين والهند ، وينبغى أن يثبت صوراً للوسائل التى
تتخذ لتخفيف الجماعات وللبعثات الطبية التى تغزو الأكواخ والخيم والأخصاص
في القرى ؛ ولزام عليه ألا يقنع بعلاج البطالة في البلاد الصناعية ، بل يعدو ذلك
فيرسم منظراً شاملاً للفقر في أرجاء العالم كله ، ولا بد أن يبين لنا في تفصيل دقيق
سوق العمل ومكاتبه التى تتخذها الجماعات الراقية ، وأن يشرح قوانين « معاش
السكولة » و « إعانة البطالة » ، ويسجل قوانين معالجة الفقر التى تختلف باختلاف
الدول في نزعاتها وتفكيرها الاقتصادية .

والحقيقة الكبرى السكمنة وراء ما نشاهده من وسائل تخفيف الشقاء التى

ألمعنا بها على هذا النحو ، هي أن المجتمع الحديث قد أخذ شيئاً فشيئاً يعترف ويسلم بما عليه من التبعية نحو كل فرد من أفرادهِ فيمده بمحد أدنى من المسكن والطعام والثياب ، بغض النظر عما يبذله الأفراد من نشاط الإنتاج ، فهو لا يلزمهم بالعمل في مقابل ذلك ، ولعل هذا أسوأ جوانب هذا اللون من ألوان التخفيف ، فلا ريب أن هذا التعهد من المجتمع عقيم مخيف شائن — فهو حث على التشرّد إذا سميناها باسمه الصحيح — ولكنه مع ذلك يعين على الحياة واستمرار البقاء ، وتلك حالة لم يسبق لها مثيل قط ، وهي ثورة على قانون الحياة ، لأن الهزيمة في سائر أجناس الأحياء معناها الموت ، سواء أنشأت الهزيمة عن عجز أم عن جد عاثر ، فكانت الحياة حتى هذا العصر تزيد من مقدرة أفرادها ، أما الآن فما معنى الهزيمة في المجتمع الحديث ؟ معناها الخمول ، الخمول التعسّس الدنيء .

ولقد تمكن المجتمع من إمداد المعوزين بسبب الزيادة الهائلة في مجموع الإنتاج البشرى في الظروف الحديثة ؛ ولسنا نشك إلا قليلاً في أن يضع مئات من الملايين الذين يبذلون نشاطاً اقتصادياً ، في مقدورهم الآن أن يهيئوا الطعام والثياب والمأوى لسائر أفراد الجنس البشرى — أعني المتشردين الذين لا ينتجون — بحيث يعيشون في مستوى زرى وضيع ، ولكنه يحفظ بقاء الحياة ؛ ويبقى لأوائك العامة بعد ذلك فيض يكفل لهم ضرباً من الحياة الموفقة السعيدة نوعاً ما ؛ وواضح أن الطبقات التي تنتج إنتاجاً متقطعاً والتي تنتج إنتاجاً ضئيلاً والتي لا تنتج قطعاً ، تزداد نسبتها إلى مجموع المجتمع في الظروف الحاضرة التي تعمل على تركيز الإنتاج وصيانة المتعطلين ، فيتزايد عدد الذين يفقدون عملهم ولا يعود لهم في الحياة الحديثة عمل ولا نفع ، وكلما اتسع نطاق الانقلاب الصناعي اتّجى المنتج الصغير وقلت الأيدي اللازمة لكل صناعة من الصناعات ، ولم تبلغ بعد نسبة المتعطلين الذين

يعيشون كلاً على غيرهم آخر حدودها الممكنة ، ويجوز أن تمضى هذه الطبقة في الزيادة ؛ وقد بالغ بعض الكتّاب فيما كتبوه عن « سرعة تكاثر غير النافعين » لأن من يفقدون عملهم لا يتحتم أن يكونوا أقل مهارة من كثير من العاملين ، وليست زيادتهم على الحاجة نتيجة عجز فيهم أكثر منها استغناء أدت إليه الظروف ، ومع ذلك فالواقع يجابهنا بأن هذه الطبقة الدنيا المضطربة التي تربك البناء الاقتصادي قد تمضى في اتساعها ، ويجوز أن تمضى في ذلك الاتساع حيناً من الدهر حتى تشمل العالم بأسره تقريباً .

ولن يمضى وقت طويل قبل أن يصبح دولاب العالم الاقتصادي شبيهاً بجسم عليل أسرف في النمو فأفرز في دخيلته نوعين من العصاراة الضارة ، فهو من جهة أنتج الأثرياء المحدثين الذين لا عمل لهم على وجه العموم ، فهم « متعطلون مستهلكون » كأنهم وفرة في دم الجسم ، ومن جهة أخرى يعمل على ازدياد طبقة مخيفة هي بمثابة الدم السكير ينمونوا سريعاً ، وهؤلاء هم « المتعطلون المغاسون » ، وهذان الفريقان المتزايدان لا يتوقف أحدهما على الآخر ، فيجوز أن يزول أحدهما ويبقى الآخر في ازدياد مخيف ؛ وقد أسلفنا الإشارة إلى طرق ممكنة قد تؤدي إلى زوال الموسرين غير المسؤولين ؛ وأما المشكلة العظمى فهي بغير شك مشكلة « الفقراء المحدثين » فهم خطر محقق قد يبدو من المتعطلين الذين سلبوا أعمالهم .

ماذا تصنع الإنسانية لهذه الطبقة ؟ وماذا تصنع هذه الطبقة للإنسانية ؟

٧ — التناقض بين وفرة الإنتاج والعوز

الشراء الجمعي

سنلقي نظرة إلى هذا الموضوع من وجهة أخرى ، فليس هينا وليست مشاكه مما يُفَضُّ بميسور الحلول ، فهناك عدة مؤثرات تعمل في آن معاً ، والحل البسيط المفرد لن يعالج إلا مؤثراً واحداً منها ، فليس الفقراء طبقة ولسكنهم شئت لا يكاد يربط أفرادها شيء مشترك سوى ضعف قوة الشراء .

فأنت ترى أولاً أثر التنازع على البقاء ، وهو طبيعة أزلية عامة ، إذ كان من جرائه الفشل بمعناه الصحيح ، فمن الناس من هم دون المتوسط بشكل قاطع واضح ، ورتوا أجساماً هزيلة ، أو عقولاً ضعيفة ؛ ومن الشرور البياجية أن يبقى هؤلاء الضعفاء وينسلوا ، وإن كان في العالم ثروة تكفل لهم حياة هائلة فثم دعوة يطارد ذبوعها تنادى بوجود زوال هذه العالة بضبط النسل على وجه من الوجوه ، كالتعقيم الذي ثبت إمكان حدوثه ، وليست المشكلة هينة كما قد يتوهم الذين لم يجيدوا دراسة علم الأجناس ، ولسكن على الرغم من تعقيدها فلا يجوز اليأس من إمكان حلها حلاً حاسماً ، ويظهر أن الزيادة المطردة في المعارف الجنسية والعلوم والنظم الطبية والضبط الصحي كافية لمعالجة هذا الجانب البياجي من مشكلة الفقراء .

ومما يلاحظ أنه منذ ظهور المجتمع ، لم تنقطع قط تلك الظاهرة التي لازمت وجود الإنسان ، وهي أن يكون بين الناس من يختطف لنفسه نصيب الأسد ، ومعنى ذلك أن التعارض بين من يملكون شيئاً ومن لا يملكون لم ينقطع ؛ فبين الفقراء فريق نشأ من امتناع المساواة الاجتماعية الذي كان سائداً فيما مضى ، وهو فريق يمكن حشره في زمرة الضعفاء على وجه الإجمال ، ولقد لبث عدة

أجيال يقضى حياته المحدودة متصلاً « بالسادة » نورث الضعة ، وربما امتزج التقليد بالوراثة في كثير ممن هـووا إلى هذه الفئة التي كانت علة فقرها أن لم يكن من الطعام ما يكفي الجميع ، فجاءت متأخرة أو دُفِعت جانباً ، فلم تندمج في الحشد المتزاحم حول جفنة الأرز .

كذلك نرى اليوم ضرباً ثالثاً من الفقراء أفقرتهم الصدفة وحدها ، وهم الفقراء الذين انحدروا من أصلاب لا تقل عن أسلاف أية طبقة أخرى ، ومن العسير أن نعتقد بأن الكثيرة الغالبة ممن يشتغلون بالأعمال الحقةيرة ، أو من لا يجدون عملاً ، أو أن سكان الجهات المقفرة البعيدة عن الأقاليم الراقية في مدينتها ، كلهم أخطأ أشخاصاً ممن يعملون وينجحون في مراكز النشاط الاقتصادي ؛ نعم إن في تلك الفئة ذوى العاهات والضعفاء ، ولكن هؤلاء جزء منها ولا تتألف منهم الفئة بأسرها ، وأما سائر الأفراد فقد ولدوا في ظروف سيئة إذ نشأوا في إقاليم يتدهور أو بين صناعة تتقلص ، أو أظلمتهم حكومة فاسدة في أمة رجعية ، أو كان آبائهم أو أجدادهم في حالة من اليسر في أوطانهم لم تدفعهم إلى الهجرة إلى أرض جديدة يزدهر فيها الأمل كالتي هيأت اليوم لمزومهم وجيرانهم النازحين فرصة امتنعت عليهم في أوطانهم ؛ هذا إلى أن موضوع التعليم لا يزال أكثر عناصر الحياة اضطراباً ، فها هنا أسرة طيبة تحمي في إقليم رجعي لا يطابق أن تقوم على أرضه مدرسة جيدة أو ينهض مصنع حديث ، وهنالك ترى أحسن صنوف التعليم والتدريب والعمل مفروضة على أفراد الطبقة الوسطى جميعاً ، فـكون الرجل في إحدى الجماعات الحديثة أمياً محدود الأفق عاجزاً عن اقيام بأية مهنة جديدة سيئ التغذية غاضباً نائراً صدوقاً عن الحياة ، وكون غيره حسن التعليم متفائلاً مفيداً ، قد لا يتوقف البتة على صفاتهما الموروثة ، فالعوامل التي رسمت

للرجلين أقدارها أوسع وأقصى من أن يكون لهما يد في اختيارها ، ولئن استطاع الأفاضل الممتازون أن يتغلبوا على أشد الظروف قتلا للهمة ، فقد دفعوا على وجه الإجمال ثمن توفيقهم ، ولا تنقض حياتهم القضية العامة التي فرضناها ، وهي أن الطبقة المتوسطة الأساسية من بنى الإنسان لا تُغَرَّ بَلْ ولا تُتَقَي فيما يجرى من زيادة البطالة في أرجاء العالم كلها ، وهذا الضرب من الفقراء — فقراء الاضطراب الاقتصادي — لا يُحَرِّم قوته الشرائية نظرا لصفات شخصية ، ولكن على اعتبار أن الأفراد مجرد وحدات في جماعة ، لا تقوم المفاضلة بينهم قط على أساس الاختيار .

وجلى أن من أسباب ذلك — إن لم يكن السبب الوحيد — أن شؤون الإنتاج تدار قبل كل شيء لصالح أصحاب المشروعات وأصحاب الأموال لا من أجل الطبقة الوسطى ، فالكسب أشد ما يؤثر في الحالة الاقتصادية ، وكل اقتصاد في الإنتاج يدعو إلى قلة العمل المطلوب يستتبع بصفة عامة وبذات النسبة قلة الأجور المدفوعة قلة تتناسب مع مجموع الدخل ، فإذا لم يكن الكسب هو الغاية الأولى ، وإذا أعيد وضع الأمور على هذا الأساس بأن تقل ساعات العمل كل يوم ، أو أسابيع العمل كل عام ، أو أعوام العمل في مدى الحياة ، لما دعا الأمر إلى ما يحدث اليوم من طرد العمال من أعمالهم ، وخلقت الصناعة قوة شرائية جديدة تنشرها في المجتمع كما كان شأنها فيما مضى ، بدل أن تمحى في قطف زبدها مَرَكْزَة لصاحب المال وصاحب المشروع .

ولما كانت الثروة المركزة قيمة أن تتسرب في مجار خاصة من الترف والتبديد ، عَمَّ شعور راسخ في أرجاء العالم بأنها أقل نفعاً للجماعة من توزيع قوة الإنتاج توزيعاً أوسع نطاقاً ، ولا بد أن يكون اقتصاد الإنتاج الذى يؤدي إلى

تحديد العمل ضاراً في نهاية الأمر بالصناعة نفسها ، لأن معناه في كل الحالات ، إذا امتنعت أدوات الترف ، إنتاج كثير لمجتمع ضعيف الشراء ؛ والواقع أننا نواجه حالة صناعية لا تنفك تزيد من الإنتاج بفضل اطراد التقدم ، غير أنها ما تنى في الوقت نفسه تضيق الإقبال على هذا الإنتاج ؛ ويلوح أن ذلك هو جوهر المسائل الاقتصادية الحاضرة ؛ ففي العالم من القمح والصلب والفحم والنحاس والمطاط والزيت أكثر مما نتطلب ، كما أن لدينا أكثر مما ينبغي أن يكون من السيارات والحوامى وآلات الحياة والمذاييع ، وهناك إلى جانب هذا حشد من الناس يتزايد ، لا هم بذوى العاهات ولا هم أحط من سواهم لنتص طبيعى فيهم ، بل هم نفر ساءت ظروفهم بمحض الصدفة ، ولا يستطيعون شراء هذا المقدار المتراكم من السلع المخزونة .

وتهبط الأثمان ويقل الإنتاج ، ولكن ذلك لا يحل الإشكال لأنه لا يفعل سوى أن يزيد من عدد العاجزين عن الشراء . ويحدثنا رجال الاقتصاد أنه لو استطاعت معجزة أن تجعل كل فرد يستيقظ من نومه فيرى بين يديه أسهماً صحيحة تدر له مائة جنيه كل عام لانقلب العالم كله ، حيناً من الزمن على الأقل ، خلية منتجة تؤجر على عملها أجراً عالياً ، ولزال ما ينتابنا اليوم من فقر وإعياء . وتشغل مشكلة رد القوة الشرائية لهؤلاء الفقراء الجدد — هؤلاء الفقراء المحدثين الذين أوجدتهم الاضطراب الاقتصادى — عدداً عظيماً من جبابرة العقول العبقريّة ، ولكن نتائج أبحاثهم يعوزها الإجماع والتثبت ، على أنهم متفقون جميعاً في الفكرة العامة .

وتؤكد إحدى المدارس الفكرية أن الإنتاج الذى يضع السكسب نصب عينه هو أس البلاء ، وإنه لسكذلك بالإضافة إلى أسباب أخرى ؛ وتلك هى

الفكرة الأساسية للمذهب الاشتراكي ؛ ولكن القضاء على الإنتاج الذي يعمل للكسب لا يمكن أن يتم بين طرفي عين وانتباهتها ، لأن الحياة الاقتصادية الحديثة كلها قائمة على هذا الإنتاج الكسبي ، وأما المجهودات المشروعة التي تبذلها روسيا السوفيتية لإنشاء حياة صناعية على أسس جديدة بضربة واحدة ثورية سريعة ، فلا تفعل سوى عرضها المشاكل المعقدة التي يقتضيها مثل هذا العمل ، فطبقة الزراع كلها على اختلاف درجاتها مجمعة على مقاومتها ، مع أن هذه الطبقة ما تزال هي السائدة في النوع البشري ، وكذلك لا تُرضى هذه الأسس فريق المغاسرين ، وهو أقل عددا من طبقة الزراع ، ولكنه أكثر منهم نشاطا وأشد تأثيرا ؛ ولقد بينا كيف نستطيع أن نخفف كثيرا من وطأة التقلب الذي يطرأ على مشروعات الأعمال إذا أخضعنا تدريجا مالية الأعمال لرقابة علمية ، ولكن ذلك الإخضاع بطيء كثير التعقيد ، وهو يفسح لنا الأمل للخمسين عاما المقبلة أكثر مما يفسحه للغد القريب ، ولن تنقطع إبان ذلك إضافة عدد جديد إلى المتعطلين . ومن وسائل العلاج المؤقتة تحديد ساعات العمل ، وتخفيف الضغط عن سوق العمل من كلا طرفيه ، بمنح المعاشات للكهول ورفع سن مغادرة الدراسة ، وزيادة الأجور زيادة مقصودة على غرار ما يصنع فورد ، بحيث ترفعها فوق مستوى التنافس ، بل إن هذه الوسائل العلاجية لأدوم من أن تكون مؤقتة ، فيستطيع العمال الذين يزاولون أعمالهم أن يبتكروا حاجات جديدة إذا ما ارتفع مستوى عيشهم ؛ وهذا قد يستخدم عددا من المتعطلين فيعملون في صناعات جديدة ويصبحون بدورهم شارين ، وبذلك يعود الطلب إلى الزيادة ؛ ولكن مثل هذا التدبير لا يكفي وحده لوقف ما يجري اليوم من قصر الصناعات المنظمة الدقيقة على عدد من العمال يتناقص ، ولكنه يزداد كفاءة فيزداد أجرا ؛ فضلا

عن ذلك فإن روح التنافس الدولى التقليدية تقوم فى وجه تطبيق هذه التدابير تطبيقاً قوياً رغبة فى تقليل ساعات العمل وسحب الأيفاع والسكرهول من ميدان العمل ، إذ كثيراً ما يُحتجُ بمثل هذا الاعتراض المميت : « هذا التصرف من شأنه أن يضعفنا أمام المنتجين الأجانب » . ومما حذَّ تقدم العمال فى انجلترا حالة العمال فى الهند ومصر والصين ، إذ ليس هنالك حتى اليوم سلطة عالمية تهيم على ظروف العمل باعتباره مشكلة واحدة تشمل أرجاء العالم كله .

وترى مدرسة فكرية أخرى تلج فى النداء بمذهب معناه من الوجهة العملية توزيع القوة الشرائية بين المتعطلين فى صورة مُنقَّعة من الأشغال العامة ، فينبغى أن تفرض الضرائب على الطبقات الموسرة سواء بالطريق المباشر أو غير المباشر ، فتتضخم العملة لنتمكن من تجديد شامل للأدور كلها ، وإعادة تخطيط المدن والريف ، وإنشاء الطرق والجسور والموانئ والمتنزهات والمدارس والمستشفيات الجديدة ، فلن يحاول أحد أن يدبر لنفسه كسباً من هذه الأعمال ، لأن الكسب هنا المجتمع كله ؛ وما دمننا قد سلمنا بأن المجتمع الحديث يجب أن يعين فقراءه ليبلغ بهم حداً معيناً من الرفاهية ، فواجبه إذن — هكذا يقولون — أن يهيئ لأكبر عدد ممكن منهم العمل وقوة الشراء بمثل هذه المشروعات العامة العظيمة ؛ وإن يقف الأمر عند حد المشروعات نفسها ، بل سوف تكون هذه المشروعات بمثابة الحافز لغيرها من الأعمال ، وبذلك يزداد مجموع الثروة فى المجتمع ، وتستمتع القوة الشرائية التى يظفر بها من تستخدمهم الدولة على هذا النحو عودة النشاط الصناعى بصفة عامة ، فإذا زاد العمل حصرت الدولة نطاق أعمالها ، وإذا قلَّ أضافت الدولة نشاطاً جديداً فيما تقوم به من أشغال وزينات عامة . تلك هى الخطة التى وضعها فُستَرُ وكاتشِنجِر فى كتابهما « سبيل الوفرة » الذى

نشرته شركة أمريكية، وستصدم هذه الاقتراحات كلها عقول من ورثوا النزعة الفردية المتخلفة من عهد فكتوريا . نعم ! إنها ستصدم أساطين الاقتصاد صدمة عنيفة ، واسكنها ستصادف قبولا ، على أنها نتيجة طبيعية ، عند الأنماط الجديدة من رجال الأعمال والمصارف والموظفين العموميين ، الذين تربوا تربية علمية ، والذين يلوح أنهم يزحزحون رجال الأعمال من الطراز العتيق المطبوعين على الشراة في تحصيل المال ، عن تملك زمام أقدارنا الاقتصادية في خطى وثيدة ثابتة ^(١) .

ولسنا ندري حتى اليوم في شيء من التفصيل إلى أى حد سار العالم الذى نعيش فيه فى توزيع الطعام والمرافق بين المنتجين المتعطلين ، وإلى أى حد سار فى توزيع القوة الشرائية فيما يعطيه من معاشات وإعانات ، ثم إلى أى حد نركن إلى المشروعات العامة فى إنقاذ البطالة ، فلا يزال أمامنا جمع الحقائق وتنظيمها ؛ غير أن ما لدينا من الحقائق اليوم فيه ما يدهش له الكثيرون . ولننذكر أنه إذا أمكن أن يقال شيء دفاعاً عن التسلح فذلك أنه يوزع مقداراً كبيراً جداً من القوة الشرائية بين مهرة العمال والرجال المحنكين الصالحين الذين لولا ذلك للبشوا محرومين من العمل ؛ فلو أننا أخذنا بنزع السلاح من العالم نجاة لجاز أن تزيد مشا كل العالم الاقتصادية زيادة عظيمة ، ما لم تقم على الفور مشروعات واسعة لبناء المساكن وإنشاء وسائل النقل وتبديل عنيف فى معدات الحياة فى المدن . وإن التفكير فيما عسى أن يفهم من نزع السلاح أعقبة من أغرض العقبات التى تحول دون زوال الحروب ، وسبب من أسباب كثيرة تجعل الرغبة

(١) يستطيع القارئ المشغوف بهذا الموضوع أن يتوسع فى هذا الجانب بمطالعة مطبوعات (Pollac Foundation) وعنوان الدار : Newton 58. Mass., U. S. A. ، وقد يجد كذلك أن كتاب ف . هندرسن وعنوانه The Economic Consequences of Power production ملهم وباعث على التفكير .

السلبية في السلام عديمة الجدوى ، فلن يقتدر الناس على وقف الاستعداد الحربى إلا إذا نشأت لهم بدل ذلك مشغلة أخرى .

فالظاهر إذن أن زيادة الأعمال الإنشائية العامة أو ما تشبه العامة في أنحاء المعمورة كلها شرط لازم لنشر السلام في العالم ، وللتحكم في البطالة والفقر وحصرهما في دائرة أضيق ، فلا يقف الأمر عند حد استطاعة الإنسان أن يرسم لنفسه عالماً جديداً وأن يخرج به إلى حيز الواقع ، بل إن ذلك واجب وإلا سحق الاضطراب السائد حياته وما فيها من دوافع ؛ فإما العمل والثروة وإما حلول الكارثة ، وهذان وحدهما وجهاه حياته . ولا بد للنظام القائم أن يتحور فيتمخذه صورة المشروعات الجمعية المنظمة وإلا اندكت قوائمه ، ونحن لا نخبط في هذا القول خبط عشواء ، واسكنه نتيجة واضحة مؤكدة للحالة التي بسطناها بين يدي القارئ .

ولقد صاغ أمرىكى معروف من رجال الأعمال هذه الآراء التي نقترحها في عبارة يزيد معناها لو تناولناها بالشرح ، إذ قال : إن النظام القائم الذي يسوده حافز الكسب والذي تواضعنا على تسميته بالنظام الرأسمالى قد تولد عنه الإنتاج الكبير ، وهو أقدر نظم الإنتاج ، وعليه أن يحل مشكلة « الاستهلاك الكبير » ، ولا تسكاد هذه العبارة تحمل في ذاتها معنى أكثر مما تدل عليه لفظة « التعمق » التي استعملها المرحوم اللورد ميلشت ليعارض بها فكرة « التوطن » ، ولكننا لو أضفنا إليها الفكرة التي تجرى مجراها من حيث المعنى ، أى فكرة الشراء الجمي للمواد اللازمة للحياة في عصور السلم وعهود الحرب على السواء ، لألقيناها خضبة جمة الفائدة باعثة على التفكير وسنرى فيما بعد كيف عمل شراء الأسلحة شراء جمعياً في نصف القرن الأخير على زيادة شراء الأسلحة ، وليس هنالك سبب ظاهر يمنع أن تتخذ فوراً طريقة شبيهة بهذه في تجارة أدوات العمارة والنقل

في نطاق أوسع ، حتى نعالج هذا الكساد المربك للحياة الاقتصادية ، ولقد كان بناء الكنائس في العصور الوسطى ، كما أشرنا فيما سبق ، صورة من الشراء الجمعى ، وفي مقدورنا أن نحول تجديد الطرق (كما يحدث الآن في بريطانيا العظمى مثلا) وتجديد نظام النقل كله تجديدا شاملا إلى مشروعات جمعية مشتركة ؛ ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل نستطيع فضلا عن هذا أن نتمد إعادة بناء مدن كاملة فنمدها بالوسائل الصحية والمرافق العامة الحديثة ، وأن نمضى في تجديد الآلات الصناعية العالمية وأن نخلق كل وسائل الاستثمار في الريف خلقا جديدا بحيث يدر محصولا وصحة وسعادة ، فإن كنا نستطيع أن نشيد السجون الفخمة والملاجئ من مواردنا المشتركة ، فلماذا لا نبني لعامة الناس أحياء فسيحة للسكن حتى نحول دون أن يكونوا من الساخطين المجرمين ؟ إذا كنا نهيم للتأديب وسائل الراحة فلماذا لا نعد وسائل الراحة الوقائية ؟

وليس ثم ما يدعو إلى انتقال ثورى عنيف لنبلغ هذه الحالة الاقتصادية الجديدة ، فقد جُرِّبَتْ فعلا فكرة الشراء الجمعى في معاونة المنتجين الخاسرين ، وإذن فليست بالفكرة المبتدعة ، وهذا نفسه ما حدث في البن البرازيلى والقمح الكندى حين ألقى على عاتق الجميع خطر الخسارة ، الخسارة الحقيقية التى تنجم عن السوق المكتظة ، فهذه أمثلة للشراء الجمعى يقصد بها إلى إنعاش السوق ، فإن لم تكن أمثلة جد موفقة فقد يمكن أن يتم شراء جمعى كهذا لفائدة المجموع ، وحينئذ لا نتعرض لخطر الخسارة ؛ وأما ما يتبع الآن من أساليب الشراء والتوزيع فهو فى حقيقة الأمر مرن إلى الدرجة القصوى وقابل لتعديل لا حد له يسير به نحو التقدم ، ولكن مثل هذا التعديل يتطلب لإتمامه تغييرا عظيما جدا فى الروح التى تسود دوائر المال والصناعة ، ونهضة عامة فى ذكاء المجتمع وقوة

فكره ، ويكاد ذلك يتضمن بالضرورة بعض التدابير المعينة لتضخم العملة ، وهو خطر على الجماعات كلها إلا ما كان منها غاية في حسن التعليم والنظام ، وهذا أمر مرهون برفع مستوى التعليم في كل هذه الشؤون .

ولا ينبغي للقارئ المبتدئ في أبحاث الاقتصاد الحديث أن يتصور أن في اقتراح استخدام الناس استخداماً جمعياً لإعادة تشييد المدائن وما إليها من المشروعات العظمى شيئاً جديداً ، أو أن فيه ما يخالف الآراء الرجمية ؛ وهنا أعود إلى كتاب « بعض العوامل الاقتصادية في الحياة الحديثة » لمؤلفه السير جوزيا ستامب فأراه يقتبس قولاً من الأستاذ « لثاني » ووافق عليه وهو : « إذا استثنيت بناء أو بناءين في لندن وجدت هذه المدينة بحاجة إلى إعادة البناء من أقصاها إلى أقصاها ، ولم يحدثنا كاتب من كتاب الاقتصاد حتى اليوم كم نفق على تجميل المدن ، وما إذا كانت المدينة الجميلة باباً من أبواب الاستثمار أو ضرباً من ضروب الإمبراف » ؛ وأنقل من هذه الصفحة المشرقة التي خطها السير جوزيا ستامب إلى صحيفتي اليومية فإذا بي أطلع بها نبأ بأن في بريطانيا العظمى مليوني متعطّل ، يتقاضى معظمهم إعانة ليعيش عيشة شقية بلا عمل ، ثم أشير بعد هذا إلى رسالة من الأستاذ « مايلز ووكر » وهو أستاذ في الهندسة الكهربائية ومخترع ممتاز ، أنشأ مع بعض أصدقائه مشروعاً — وهو مشروع معقول جداً لو غرضنا النظر عن نفسية المجتمع الذي ينشد الكسب في عمله — مؤداه أن يستخدم المتعطّلون في سد حاجات المتعطّلين ، ولا نحسب أحداً يزدرى رأياً رآه مراقب شركة من شركات الخطوط الحديدية الكبرى في إنجلترا ، ورآه رجل ظفر بجائزة نوبل في الطبيعة ، وذهب إليه الأستاذ مايلز ووكر : نقول إن رأياً رآه أمثال هؤلاء لا يمكن أن يُعدَّ سبحة في عالم الخيال ، وأنه نظري ، لأن هؤلاء جميعاً من رجال

الواقع الذين يعدد آرائهم ، وهذا تفكيرهم ؛ فمن رأى هؤلاء الثقات أن معالجة البطالة وسائر ضروب الفقر ممكنة ، وأن ذلك ليس بمجرد قول نظري بل هو رأى عملي مستقيم . فإذا أعدنا النظر في مناشط الإنسان لا ينبغي أن نهمل هذا الرأى .

٨ — محاولة روسيا السوفيتية محو الفقراء والأغنياء على السواء ^(١)

تحاول روسيا السوفيتية في الوقت الحاضر أن تعدل توزيع الثروة بحيث يسير وفق طرائق الإنتاج الحديثة ، وهي تسير في محاولتها سيراً جريئاً حقاً ، ولقد سبق لنا أن درسنا بعض جوانب هذا المجهود الجريء الذى يبذلونه في شؤون الإنسانية ، فلا نزاع في أنه مجهود يدفع بنا إلى الأمام ؛ ففي روسيا فكرة حديثة جداً تنشأ غاية من التنظيم أعلى وأدق مما شهده العالم حتى اليوم ، وهو نظام يفرض على الناس فرضاً في إقليم فسيح من الأرض لا يزال جوهر الثقافة الجارية فيه مشوباً بروح الثقافة في العصور الوسطى ، ولا يزال كثير من نظم الصناعات الأساسية الهامة عند مرحلة بدائية ، ولكننا لا نستطيع حتى اليوم أن نجزم

(١) كتاب « مشروع الخمس سنوات في الاتحاد السوفيتي » لمؤلفه G. T. Grinko مرجع ثقة ، وهو رسمى إلى حد كبير ؛ وكتاب « مشروع روسيا في خمس سنوات » لمؤلفه Michael Forbman واضح مبني على الطريقة العلمية في الحيداد ، شأنه في ذلك شأن سائر مؤلفات هذا الكاتب ، وهو يهدى القارىء سواء السبيل ؛ وهناك كتاب غاية في الجودة عنوانه : « المشروع السوفيتي للسنوات الخمس » لمؤلفه H. R. Knichbocker ، فإذا أراد القارىء المادى أن يطالع صورة واضحة للحياة الإنسانية خلال مراحل هذه التجربة الفريدة في إعادة البناء الاجتماعى ، نغير ما يقرؤه كتب Maurice Hindus ، وهي : « الأرض المحطمة » و « اقتلاع الإنسانية من جذورها » و « الحبز الأحمر » . وهناك كتب كثيرة غاية في الجودة واللذة ، كما نجد سيلاً جارفاً من مؤلفات كتاب سطحيين من الطبقة الدنيا عن مجهود روسيا ، ولن نحاول هنا أن نحكم على مؤلفات هؤلاء الكتاب ولكننا نشهد ببراعة أولئك الذين أثبتنا أسماءهم لأننا انتفعنا بهم نفعا جزيلاً .

كم أصاب هذه المحاولة من التوفيق — وإنها لمحاولة تجرى في وجه العداوة التي تبديها الحكومات الأجنبية ، وفي جو من عدم الثقة يشيره العالم أجمع ؛ وكان لازماً في كل مرحلة من مراحل السير أن يواجه المتحمسون المغامرون الذين قبضوا على زمام روسيا بعد ما أحدثته الحرب الكبرى (١٩١٤ - ١٨) من إعياء وفوضى اجتماعية ، صعوبة ناشئة من عجز الناس عن الفهم الصحيح ومن فساد الهيئـة الإدارية .

ولقد بحثنا في المطلب الثامن من الفصل الرابع^(١) محاولة روسيا أن تتحول بخطوة واحدة من الزراعة اليدوية إلى الإنتاج الزراعي الحديث في فسيح ضياعها ، ولكننا لم نذكر حينئذ إلا قليلاً جداً عن التقدم الصناعي في روسيا السوفيتية ، غير أننا تذكرنا بكثير من الوسائل التي رأيناها ممكنة لترقية ظروف العمل القائمة في دول المحيط الأطلسي ، وإنه لمن العسير أن نجزم إن كانت روسيا السوفيتية تغامر في إقدامها وتسير سير البطولة الملهمة أو أنها متهورة متمتة ، فلم يشهد التاريخ مثل هذا التقدم السريع ، إذ حاولت أن تخلق نظاماً اقتصادياً شاملاً يجعل ما يربو على مائة مليون من الأنفس تاجراً واحداً في بيعه وشرائه ، على أن يسير ذلك جنباً إلى جنب مع نظام سياسي هو من أشد النظم السياسية اضطراباً ، ودون أن يكون لديها شيء من وسائل المدنية الراقية ، وبغير أن تبيح حرية النقد والرأي ، بل إنها في الحقيقة تستخدم من وسائل الإرهاب حتى يومنا هذا أشد ما عهدناه وحشية وغلظة ؛ إنها تحاول أن تمحو الشراء الفردي الذي ما يزال عاملاً سائداً في مدنية العصر الحاضر ، وما يزال متبعاً في كل السلع إلا أدوات الحروب والطرق الرئيسية وشؤون التعليم وفي قليل غير ذلك من الحاجات المشتركة ،

(١) يشير الكاتب إلى الفصل الرابع من كتاب « عمل الإنسان و ثروته وسعادته »
« فليراجعه من شاء » .

فأساليبها الاشتراكية عقيمة ، كما يقول نيكرو بركر ، ونظامها طراز جديد من الدولة الرأسمالية^(١) ، إذ جعلت الدولة كلها شارية وبائعة ، فتشتري الآلات وتستورد حاجات العيش على صورة جمعية ، ومهما يكن لهذا الجهد من نتائج فلا بد من التسليم بأن هذه التدابير التي تتخذها تحوى دروساً قيمة وأمثلة ونُذُرًا ؛ ويسير النظام الاقتصادى فى العالم كله سيراً وثيداً ثابت الخطى شطر الغاية التي تنشدُها حكومة روسيا فى حماسة وتسرع وغلظة وسوء ، على الأقل فيما نراه من تناقض اقتصادى بين زيادة الإنتاج ونقص قوة الاستهلاك ، ذلك التناقض الذى ينشأ من نظام الرأسمالية ؛ فإذا أمكن لدول المحيط الأطلسى أن تمضى فى سبيل ممهدة مطمئنة تجاه الغاية المشتركة ، أعنى تجاه إعادة تنظيم الحياة الاقتصادية على خطة مرسومة مدبرة يزول فيها حافز الكسب ويملا مكانه حافز الخدمة ، وتوزع فيها السلع على أنها ضرورات مشتركة أكثر منها منحة صناعية ومالية ، نقول إذا أمكن لهذه الدول أن تسير فى هذه السبيل كان ذلك لحسن حفظها لا لجدارتها .

ومن أعسر ما يصادف روسيا السوفيتية من مشا كل هو أنها اعتبرت تقدمها الاجتماعى نظاماً عالمياً قبل أن يسلم الجميع بضرورة رقى الحياة الاقتصادية على أسس عالمية بعشرين سنة ، مع أن ذلك التقدم كان فكرة أكثر منه خطة ، وليس تاريخه المؤلم إلا سلسلة من تصرفات خطيرة هدامة إلى حد كبير ، تصرفات كانت تحدث كلما بدا فى الطريق حائل مباغت ؛ ولقد ألقت روسيا نفسها منذ بداية الأمر نابية لا تنسجم مع بقية العالم الذى تم فيه الانقلاب الصناعى ، كما وجدت نفسها مع سائر الحكومات كلها عدوة صريحة ، وذلك لانخفاض

(١) انظر أيضاً كتاب Gide and Rist وعنوانه تاريخ المذاهب الاقتصادية (١٩٢٢)

مستوى التعليم بها انخفاضاً لا يكون معه مجدياً في تأثيره ، ولما كان ينتابها من انحطاط صناعي بلغ غاية قصوى ، فافتضى ذلك بالضرورة ضمن ما اقتضى من النظم المعقدة الشاذة إقامة السدود بين عملتها الداخلية وبين عملة العالم الخارجي ، فلقد عملت داخل حدودها على تضخيم عملتها تضخماً يؤدي إلى رفع الأثمان ، ومن العسير أن نرى كيف نظفر بزيادة في إنتاج الدولة أو في إنتاج الأفراد بغير هذا التضخم . ولما كانت عناصر التجديد التي تتضمنها تجربة روسيا يشوبها شيء من تعصب الجود ، نشأت متاعب لا تنقطع في الدعاية الاجتماعية والسياسية خارج حدودها بما تبذله من مساع لتحميل على الأقل بعض سكان العالم الخارجي أن يعطفوا على أهم آرائها ؛ ومن المعقول أن تمضي في دعايتها ، بل إن وجودها نفسه ليس إلا مظهراً من مظاهر الدعاية ، وطبيعي ألا تنفي الحكومات التي تأخذ بمذهب الوطنية أو الإمبراطورية بما يؤدي إليه من تفكك بين الدول ، والتي ترى في مجهود روسيا ما يهددها سواء فيما تضربه من الأمثلة أو فيما تذيعه من الآراء ، نقول إنه طبيعي ألا تنفي هذه الحكومات عن مقاومة روسيا مقاومة متصلة ، وما أشبه روسيا بالوليد المعتسر ، فهي تسير إلى الأمام سيراً متعثراً لما يعترض سبيلها من وسائل الدعاية ؛ إنها تسحق العمال الناقمين وتقتل الموظفين الضعفاء عاجزين ، وإن الآلام والتضحيات الحزينة الهائلة التي يعانها الشعب الروسي ، وما ترتكبه الحكومة المنهوكة من ضروب الخطأ والغلظة والجفاوة والقسوة ، وما تؤدي إليه الدكتاتورية المسيطرة فيها من صنوف المظالم والغضبات القاتلة ، لا ينبغي أن ينسبنا كثيراً من عظيم مجهوداتها وأعمالها ، فإن روسيا رغم كل هذا ترفع لواء التعاون العالمي الحزن ، وتقف في مسرح الإنسانية موضع الأمل والرجاء ؛ نعم إنها تفعل ذلك رغم جهودها ومقاومتها وعراكمها المضني ، ورغم

ما يعتورها من جنون الوهم وخبل الاضطهاد وحكمها حكماً إرهابياً لا ينقطع .
ومما يعقّد موقف روسيا زيادة سكانها زيادة سريعة في الوقت الحاضر ،
فإذا أخذنا بإحصائياتها الرسمية وجدناها تضيف إلى سكان العالم ثلاثة ملايين
وثلاثة أرباع المليون من الأنفس في كل عام ؛ فعلى الرغم من أن نسبة المواليد
قد هبطت بها من ٤٦ر٨ في كل ألف (قبل الحرب) إلى ٤٠ ، فإن نسبة وفياتها
قد هبطت من ٣٠ر٥ إلى ٢٢ر٦ ، وربما فهمت دلالة هذه الأرقام على وجه أدق
إذا طالع القارئ الفصل الثالث عشر^(١) ، ومن الحق أن نتغاضى عما تعنيه هذه
الأرقام من أن مستوى الحياة العائلية قد ارتفع .

فإذا تناولنا بالبحث مناشط الإنسان وجدنا الملايين السكثيرة من الزارعين
الذين يحيون حياة العاقبة في روسيا ، والعمال الذين لا يطعمون طعاماً كافياً ويسكنون
في دور رديئة في دورها المقفرة — وفي روسيا من هؤلاء الزارعين والعمال ما يبلغ
مائة وخمسين مليوناً — موضوعاً جديراً بالعناية القصوى ؛ فهما يكن من أمر
رداءة طعامهم وسوء سكنهم في الوقت الحاضر فإن الإحصائيات الهامة التي
أسلفناها تبين أنهم أنظف وينالون من العناية أكثر مما كانوا عليه في عصور
القيصرية ، ولا يجوز لبحثنا هذا أن يغفل هذه الملايين .

وكما أن واجبنا في هذا البحث أن نصور الزارع وقد تحطمت حواجز فرديته
على مناعتها ، لتنشأ رحاب فسيحة للدولة ، وأن نصور أسرته وقد — انفصلت أوثق
صلاتها — تدخل في دار من دور المجتمع ، فواجبنا كذلك أن نصور العمال في مصنعهم
الحديث الذي اشترت معداته كلها من أمريكا وأقيمت في أرض روسيا ،
ينصتون إلى العبارات الحماسية التي يلقيها فيهم وكيل الحزب الاشتراكي ليحفظ

(١) يشير إلى الفصل الثالث عشر من كتاب «عمل الإنسان وثروته وسعادته» .

في صدورهم بروح الأمل ؛ إنهم فقراء لا يصلحون لهذا العمل الجديد ، ومع ذلك إذا أخطأوا أنحى عليهم باللوم القارص وسيموا عقاباً لا يعرف الرحمة رغم ذلة نفوسهم ؛ إنهم يلبسون ثياباً لا تستر الأجسام ويأكلون أردأ الطعام ، ولا يزال الفقر مخيماً على كل شيء في روسيا ، ولكن الناس مع ذلك يعملون لم ينتزعوا من عملهم ولم تصبهم الهزيمة ولم يسيروا إلى غير هدف كما يفعل المتعطلون المتزايدون في مدنات المحيط الأطلسي ، إنهم يستمدون القوة من حماس يرفرف عليهم ، ولا يعضد أن يُلهَبَ هذا الحماس حيناً بعد حين فيكون آملاً يملأ الصدور .

وفي مقدور الدول الغربية ، وهي أشد ارتباكاً من روسيا ، أن تحل مشكلة الركود الصناعي المعقدة حلاً متقطعاً آناً بعد آناً ، ذلك الركود القائم في غمر من الثروة ؛ ولقد تكون للدول الغربية اضطرابات ومشاكلها المحلية في السياسة والاجتماع ، ولكنها مع ذلك لا تمضي بكليتها في ثورة اجتماعية كالتي تنبأ بها ماركس ؛ ولقد ذكر أن الموقف الذي اتخذته هذه الدول الغربية من كفاية نفسها بنفسها رداً على محاولة روسيا في هذه السبيل ، نقول إن هذا الموقف سينهض سداً منيعاً يحول دون التجديد الشامل المنظم ؛ فالروسيا في أمس الحاجة للتعاون مع دول الغرب والأخذ عنها ، أما هذه الدول وإن تكن بدورها بحاجة إلى الأخذ عن روسيا في شيء كثير ، فلا ينبغي أن تنقل عنها كثيراً مما بها ، وأعني به سوء الظن بتضحيات روسيا ؛ نعم نستطيع أن نترسم خطاها فيما يمكن فعله لإشعال الحماسة وما تؤدي إليه تلك الحماسة من أثر ، ونستطيع كذلك أن نكون فكرة عما ليس في مقدور الحماسة أن تؤديه بغير وجود فئة متعلمة منظمة لنفسها بنفسها من الدائنين والموظفين والقائمين بأمر الصناعة .

لقد أتينا في المطلب الثامن من الفصل الرابع^(١) على وصف التجديد العنيف

(١) الفصل الرابع من الكتاب الذي ترجمنا منه هذا الباب

الذى أصاب الزراعة في روسيا ، ولا حفظنا ما يحدث من عسر إذا أردنا تحويل الزراعة إلى زراعة آلية حين يكون الزارعون غير مدرّبين على الإنتاج الكبير ومزولة الآلات ، ويظهر هذا العسر بصورة مجسمة في المحاولات التي يقوم بها ذلك « الفرد الأكبر » — أعني الدولة السوفيتية — ليخلق من التربة ، إن صح هذا التعبير ، قوى صناعية عظيمة حديثة ولايستورد من الآلات إلا الحد الأدنى ؛ وقد صور مراسل المانشستر جارديان في موسكو (٢٣ مايو ١٩٣١) صورة مؤثرة للحالة القائمة هنالك في محاولة روسيا حديثاً محاولة جبارة أن تسبق فورد في فورديته من حيث إنتاج الآلات الزراعية في ستالنجراد ؛ فينبئنا كيف يزاول الناس الآلات على نحو زرى ، وأنه قد وقع ستة آلاف حادثة من حوادث العطب في ثلاثة آلاف آلة مدى عشرة أشهر ، ومع ذلك فلم يبلغ المحصول حتى اليوم جزءاً من اثني عشر جزءاً من الغاية التي يمكن بلوغها ؛ وهو يقتطف العبارة الآتية من رئيس المجلس الاقتصادي الأعلى حين قصد إلى ستالنجراد ليمسح عن علة أن مشروع السنوات الخمس لم ينتج نتائج المرجوة ، ويرى السبب في أنه لا يتم من الآلات الزراعية إلا ثلاثة آلاف ليست بالغة الجودة ، مع أن التقدير أن يصنع من هذه الآلات سبعة وثلاثون ألفاً ؛ إن في كثير من التقارير الروسية صراحة عظيمة ، وهاك ما كشف عنه رئيس المجلس الاقتصادي ضمن كثير من المشكلات الأخرى :

« . . . الحساب ممتنع امتناعاً باتاً ، ومباني المصانع مليئة بالمنتجات المهملة ، والفناء مكثف بالأوساخ والمنتجات التالفة ؛ وحضور العمال مهمل الرقابة ، ورؤساء العمال والمهندسون لا يستقرون في مراكز أعمالهم ، وتدور الآلات وتقف بغير رقيب ، والعناية الواجبة بالإعداد لا وجود لها ، والمسؤولون عن مجرى الإنتاج

الصحيح في الفروع الجزئية لا يباشرون أعمالهم . . . » .

هذه عبارة قالها رجل من أخلص أعوان ستالين وأجدرهم بالثقة ، وسنستطيع بعد حين قصير حين نقاول بالبحث تنظيم الحكومة والإدارة في الدولة الحديثة أن ندرك أن هذا التبديد والفوضى في الوسائل التي ترتبها روسيا أمر لا مفر منه . وليست فضيلة البلاشفة الوحيدة هي اعترافهم الصريح بالعسر والفشل ، بل إن من شمائلهم كذلك الجرأة والشجاعة العظيمتين في سرعة تغيير الوسائل إذا ما تبين فشلها ؛ ففي ٢٣ يونيو سنة ١٩٣١ خطب ستالين في مؤتمر من رجال الاقتصاد في موسكو وأعلن بدء مرحلة جديدة في تجربة روسيا الكبرى ، فقال إن سير التقدم قد تعثرت خطاه حين امتنع تدفق المتطوعين من المزارعين في الأعمال الصناعية ، وبصفة خاصة في أعمال الخشب والفحم والبناء والنقل وصناعات الحديد ، وعلى ذلك يجب أن يلتزم الريف بتقديم ما يكفي للصناعة من الأيدي العاملة ، وذلك على أساس نظام من التعاقد بين المنشآت الصناعية والمزارع الجمية ؛ وانحى باللائمة على رجال الاقتصاد الذين « يألمون حنيناً إلى الأيام الخوالي الزاهرة حين كان العمال يتطوعون لأعمالهم » وأنذرهم بوجوب الاعتراف بأن الظروف الجديدة تتطلب وسائل جديدة . ثم مضى قائلاً بأن واجب الاقتصاديين أن يتحققوا أن تسخير العمال ليس كل شيء ، فلا بد أن يرتبط العمال بالمشروعات التي تعاقدوا معها ، كما يجب أن نواجه « مجرى العمل » بنظام من الأجور متفاوتة لكي نزيد من قدرة الإنتاج ؛ مع أنه لم يكذب يكون هنالك حتى ذلك الحين اختلاف بين ما يكسبه مهرة العمال وغير الماهرين ، وعلى ذلك لم يجد العاجزون ما يحفزهم إلى تحسين مواهبهم ، ولم يعد هذا الشر محتملاً بعدئذ ، فتطلبت الدولة السوفيتية من العمال الجد في العمل والنظام والتنافس ،

ولم يعد في حدود المستطاع أن ينفذ نظام الأجور القائم على احتياج العامل ، بل تحتم أن يؤثر العامل تبعاً لما يؤديه من العمل جودة ومقداراً ، بحيث تراعى في ذلك الدقة ، لأنه من الأزم الواجبات خلق طراز جديد من « المهارة الفنية المنتجة » . وأعلن ستالين أنه لا ينبغي لرجال الاقتصاد أن يخشوا مواجهة الحقيقة ، وأنهم يجب أن يسلّموا جهرة بأن نظام تجزئة اليوم إلى مراحل ثلاث لم ينجح في كل مكان ، وقد اتبع كثير من المشروعات نظام اليوم المتصل ، ولكنه لبث على الورق ولم يمهّد له تمهيداً كافياً ، فواجب تلك المشروعات أن تتذرع بالجرأة وتلقى بهذه الإصلاحات المسطورة على الورق وأن تعود مؤقتاً إلى نظام اليوم ذي المرحلة الواحدة ، كما فعلت مصانع الآلات الزراعية في ستالينجراد ، وألا « تعالج الصعاب باللين » فتلقى العبارات الرنانة والوعود الحماسية العقيمة ؛ هذا فضلاً عن وجوب اتباع نظام « الرجل الواحد » في الإدارة في كل مكان ، ووجوب انحلال الأعمال الضخمة إلى وحدات صغيرة ، فبدل أن يقوم بالإدارة مجلس ينبغي أن يعهد بالإشراف إلى مدير واحد فقط في كل جزء صغير من العمل ، وأن تقع عليه التبعة كلها في إدارة شؤونه . . .

وحسبنا ما ذكرناه عن المشاكل الداخلية في التجربة الروسية ، ولنبحث الآن كيف أثر اختلاف وجهة نظرها عن بقية العالم في علاقاتها الخارجية .

في كل قطر أجاز التجارة مع الجمهورية السوفيتية ترى هيئة شرائية تمثل « الفرد الأكبر » المارد ^(١) ، ويكون لها حق المفاوضة في الديون وفي الأمر ببيع المحصول ، فهي الممثل التجاري « لشركة روسيا غير المتحدة » .

« ولشركة روسيا غير المتحدة » خزانة مالية واحدة في معاملة الأجنبي ، ونظامها النقدي الداخلي تحميه الحواجز المنيعّة لئلا يختلط بنظام النقد في العالم

(١) يقصد روسيا باعتبارها كتلة واحدة في الشؤون الاقتصادية .

الخارجي ، ولـكن حاجتها لا تنقطع إلى المال من الدول الأجنبية لشراء الواردات الضرورية الهامة ، ومما يبعث على الدهشة ما تبذله من مجهود في تدبير السلع وبيعها مقابل ذلك المال ؛ ويصف وليام وِيت (وهو من أول العلماء الذين أوفدتهم جامعة أمربكية — هي جامعة بنسلفانيا — ليدرس روسيا عن كثب) المجهود العظيم الذي تنفقه روسيا في إنتاج صادرات يمكن بيعها لتستبدل بها حاجتها من الآلات ، فهناك حملات تُعَبِّأُ لجمع النفايات — كالمطاط القديم وجذازات الحديد مثلاً ، وهو يروى « أن هيئة البلدية في موسكو قررت ألا ترد الأمانات المدفوعة على زجاجات الخمر إلا إذا أعيدت القوارير الفارغة ومعها سداداتها » — وذلك لأنهم وجدوا سوقاً خارجية تباع فيها السدادات المستعملة ، « وخصصت جوائز لكل من يقترح صنوفاً جديدة من المنتجات التي يمكن تصديرها ، وكان بين تلك الجوائز أحياناً واحدة هي أشد ما يرغب فيه الناس ، أعنى الرحلة إلى الخارج » ، وهي كذلك تبعث البعوث لاستكشاف البحر الأبيض والتفقيب فيه عن أعشاب بحرية تستخرج منها مادة اليود ، هذا إلى إجراء التجارب في القوقاز لزراعة الشاي لعلمهم يستطيعون أن ينفقوا ما يستوردونه من الصين ، أضف إلى ذلك أنهم استبدلوا ما ينبت من القطن في التركستان بالقطن الأمريكي ، وترى « الفرد الأكبر » لا يفتأ يتخذ التدابير لرفع نسبة ما يتقاضاه من المال خارج بلاده فيصدر الحاصلات كالقمح ، بل يصدر كذلك المصنوعات القطنية التي هي من ألزم الضرورات لشعبه داخل حدود بلاده ، وعلى الجملة فإن أهل روسيا يقاسون العناء في جو من الأمل والحماسة ؛ ولـسنا ندرى حدا يقف عنده هذا العناء .

إن كل قطر رأسمالي يَنَشُقُّ على نفسه فيما يتعلق بمعاملة هذا « الفرد الأكبر » ، فهناك من صنوف السلع ما تَنَفَّقُ سوقه في روسيا ومنها ما يؤدي

الإنتاج الروسى إلى كساده ، أما الأولى فهي طبعاً ما تتفق مع مصلحة السوفييت وأما الأخرى فهي ما تنشأ عن الرغبة في منع التجارة ؛ ويشير « الفرد الأكبر » حراً بشعواء من أجل هذا ، ويبدى كثيراً من العلائم التي تدل على شدة الضغط ، ولكنه ماض في طريقه ، فإن كان نظام المصنع عنده وثيد السير ، فمحصوله الزراعى يفوق التقدير ، ولو وفق إلى الكسب من وراء ذلك كما يرجو ، لأصبحت روسيا قطراً مُصدراً يؤدي بصادراته إلى كساد المحصولات الزراعية والصناعية في الأقطار التي يقوم اقتصادها على أساس الكسب ؛ هذا إلى أنها ترفع بذلك مستوى الرفاهة داخل حدودها كما تقضى على البطالة . ذلك هو الهدف الذى تقصد إليه روسيا بمجهودها ، فحتى لو فرضنا أنها لن توفق إلى قصدها كل التوفيق فنجاحها الجزئى قيم أن يحدث في بلادها تعديلاً واسع النطاق في النظام الاقتصادى القائم في سائر أنحاء العالم ، وهذا التعديل قيم بدوره أن يتجه شطر التجديد الشامل في وضع الأساس ، وذلك يستلزم من ناحية أخرى توجيهاً في الإشراف إما طوعاً وإما كرهاً ، فلا بد أن يزيد كل فرد من القائمين بالمشروعات تعاونه مع الآخرين ، وإلا اضطر إلى هذا التعاون اضطراراً ؛ وهنا نعود مرة أخرى فنشير إلى حاجتنا إلى مستوى عال من التعليم في المجتمع حتى يمكن التعاون الواسع النطاق في العصر الجديد^(١) .

٩ — الإنسانية بين الإصلاح والفوضى والثورة الاجتماعية

لننظر الآن إلى أى حد دنونا من النظر الشامل لمناشط الإنسان ، فالمنظر

(١) في كتاب « ستالين » لمؤلفه Isaac Don Levine (١٩٣١) يجد الفارى* تهرما واحداً لمشروع الخمس السنوات في الوقت الحاضر ، وتحليلاً للشخصية العجيبة التي تكمن وراء هذا المشروع .

الذى صورناه من قبل قد شمل العالم أجمع ، ولكنه لا يزال ناقصاً ، فلم نُلقِ حتى الآن نظرة مباشرة لحكومات الإنسان ، أو لثقافة الإنسان ، ولم نُغنِ إلا قليلاً فيما بحثناه حتى الآن بالفروق بين أعمال الرجال وأعمال النساء في الحياة الاقتصادية^(١) ، فلقد غرضنا النظر عن الجنس والمرتبة وكثير غير هذين مما كان في العصور القديمة موضعاً للتقديس والولاء ؛ فهذا المنظر الذى صورناه على هذا النحو من البساطة إنما يعرض مجموعة عظيمة متباينة مهوشة مضطربة لما يحوى العالم من إنتاج وتوزيع واستهلاك ، وزراعة وتغذية ، ومصانع ووسائل للنقل وأسواق للسلع ، ومتاجر وحوادث ، وأسواق للأوراق المالية ، ومصارف ممثلة بآناس مغمورين بالعمل ؛ وكل وجه من هذه الأوجه الاقتصادية يُوجّه طائفة من الدوافع المعقدة ترمز لها ونعبر عنها بالمال في معظم الأعمال العادية من الحياة الاقتصادية ، كأن المجتمع قد خاطب الفرد قائلاً : « افعل هذا تكسب مقدار كذا من المال » . لقد نظرنا إلى المال من هذه الوجهة كأنه من الحياة الاقتصادية بمثابة الدماء والعصارة الحيوية في عصرنا هذا ؛ فشؤون المال ونظام المصارف ودور المسكوكات وخزائن المال بمثابة الغدد والأعصاب التى تسيطر على عصارة الحياة أو تزيد منها أو تنقصها وتنقيها ؛ ولقد تناولنا بالبحث فوق ذلك كيف يسير النظام القائم وكيف يعمل المسكون بزمامه على نحو مفكك ، حتى رأينا أن أهم ما ينتابنا من عوامل الشقاء هو التطرف في تركيز الثروة والإسراف في تكديسها في أيدي أقلية لا تنفع بل تحول دون التقدم ، أقلية حصلت على المال فاحتجزته في قبضة يدها ، وهو من جهة أخرى زيادة مروعة في جميع الكائنات البشرية المنهوكه التى لا تجد من الطعام ما تقتات به ؛ فلسنا نستطيع أن نقارن الحياة الاقتصادية لكائنات

(١) وهذه كلها موضوعات يفرد الكاتب لكل منها فصلاً خاصاً في كتابه « عمل الإنسان و ثروته وسعادته » .

بشرية يبلغ عددها اليوم ١,٩٠٠,٠٠٠,٠٠٠ بحياة جسم حى سليم ، ولو اعتبرنا تلك الحياة جسماً منظماً لوجدناها علىيلة ، والواقع أنها أقرب إلى أن تكون جسماً يفاضل ليبدو فى الوجود ، ولكن تعوزه القوة والعزيمة ؛ وبديهي أنه جسم بحاجة إلى العلاج ، بل إلى العلاج العنيف ، ولعله بحاجة إلى عملية جراحية .

لقد بدأنا هذا الكتاب وقصدنا أن نعرض فيه المفاشط المفتجة ، فلما دقت دراستنا واتسع مداها ظهر التباين بين الأغنياء الذين استولوا على المال وبين الفقراء الذين لا يملكون منه شيئاً ، وعندئذ فقط ، ظهر هذا التباين على الرغم من الخطة التى رسمناها لهذا البحث ، تلك الخطة التى قررنا بها أين يقع هذا التباين من المنظر الذى نصوره ، فاضطررنا تدريجاً إلى الاعتراف بأنه فى خلال خمسة وعشرين قرناً أو ما يقرب من ذلك توارت نظم الحكم القديمة وألوان الاستعباد والاستبداد التى كانت مسلطة فوق البشر ، وأخذ يحل محلها تدريجاً سلطان القوة ، وذلك لأننا استبدلنا المال بأساليب العنف السابقة ؛ وكانت آخر خطوات هذا التحول ، وهى التى وقعت فى الثلاثة القرون الأخيرة ، أسرع فترات التحول ، حتى أصبحت أغلال المال تمتد من الأحراش إلى قمم الجبال ، وأصبح الأثرياء اليوم حكاماً أقوياء يسيطرون على البشر ولا يرعون مصالحهم ، ولقد بات القلم (وإلى جانبه دفتر القسائم المالية (الشيكات)) أقوى من السيف ، وأصبح سر القوة فى القدرة على التنبؤ بمجرى أثمان السلع ؛ ويجوز ألا يكون المؤسّر هو الحاكم الفعلى فى العالم ، ولكننا لا نستطيع أن نتصور إمكان حكم بغيره ، إذا استثنيت روسيا السوفيتية ، وعلى ذلك ترانا لا نتناول بالوصف دولاً باقتصادياً عالمياً وضعت له خطة وبلغ من الكفاية حدا يصون معه الحياة البشرية ويوسع من نطاقها ، بل أراى أصف أطرافاً متشابكة متفاعلة من الحياة

الاقتصادية لم يوضع لها تخطيط من قبل ، ولم يدركها النظر قبل وقوعها ، ولكنها مرتبط بعضها ببعض رابطاً قوياً ، وقد نمت في القرن الماضي نمواً سريعاً أشد السرعة ، عجيبة أشد العجب ، غير أنها اليوم تسير نحو اضطراب مخيف لم يسبق له مثيل قط ، فلسنا نعالج نظاماً اقتصادياً كما ترى ، ولكنه أزمة حسابية في حياة الإنسان ؛ أما ما كنا نرجو له أن يصبح نظاماً اقتصادياً عالمياً فيتهده الخطر في دور المسال اليوم ، ولا زلنا يحدونا في أعمالنا الأمل والإيمان بأن العالم لا يزال يرحب له أن يتمخض عن نظام اقتصادي حقيقي ، ولكننا لا نستطيع أن نجزم بهذا الأمل وذلك الإيمان جزم اليقين .

إن التحليل الذي أسلفناه في الفصول السابقة للدوافع الاجتماعية وللنظام الذي يسود العالم من حيث الإقراض ، يتيح لنا الآن أن نصف العوامل الرئيسية في الأزمة العالمية الحاضرة في عبارة سهلة ، فلقد ازدادت قوة الإنسان وقدرته على الإنتاج زيادة جسيمة خلال المائة السنة الأخيرة ، وتحطمت فواصل المكان على نحو ممكن الناس من أن يكونوا أقرب وأسرع تفاعلاً بعضهم مع بعض ، ولكن لم يحدث إلى جانب هذا تعديل كاف في نظام النقد وفي نظام الملكية حتى ليجد الناس عند كل حنية من حنايا الطريق عثرات من الحواجز التي تعترضهم ، وهم ينوءون تحت عبء الديون التي ما تنفك تزداد قيمتها ، كما يقف في وجوههم من الحوائل ما يعوقهم عن بلوغ الموارد الطبيعية بصفة عامة . إن إنتاج الثروة الحقيقية وتوزيعها على أساس يمكن أن يقال إنه أساس علمي ، يعرفه تركيز الثروة المالية في أيدي طبقة قليلة متباينة من أناس طبعوا على حب التحصيل والسكر ، وأعنى بهم الأغنياء المحدثين الذين لا يقيمون المشروعات إلا فيما يعود عليهم بالثروة ، تلك الطبقة التي لم تُبدِ حتى اليوم ما يدل على

إدراكها لما عساه أن ينجم عن هذه الحالة الراهنة المضطربة القلقة من النتائج والأخطار .

لقد جازفنا في الفصل الثامن بتقسيم تقريبي لطبقات الإنسان ، نعتقد أنه جليل النفع ، فبيننا في وضوح بأن الأساس الفكري الذي تقوم عليه طبقة الأغنياء وأصحاب النفوذ كما نعرفهم اليوم إن هو إلا أخلاط من أفكار وميول أنتجتها عقول ساذجة بدائية إلى حد كبير ، وإذا استثنيت قليلا من الأغنياء ، وجدتهم لم يفعلوا إلا قليلا لخلق الثروة التي بين أيديهم ، فقد جمعوها جمعا ؛ وحيثما يتسع نطاق العمل أو يلتقي زعماء المال بعضهم مع بعض يبدو اللصوص والحق ؛ ولا شك أن فكرة الأعمال الإنسانية موجودة إلى جانب فكرة التحصيل ، وهي تنمو شيئا فشيئا ، ولكن لا يغيين عنا أنه إذا لم يكن للشؤون البشرية غاية تقصد إليها فإن فكرة الإنشاء تزول ، على الرغم من عوامل المقاومة القوية الداخلية الموروثة ؛ وكل خطوة نخطوها نحو السيطرة على الحياة الاقتصادية سيطرة تقوم على وضوح الفكر وصفاء الذهن وتعني بصالح البشر عامة ، فهي خطوة موجهة ضد هذه العوامل الدنيئة التي لا تقتصر على الأغنياء من أصحاب السلطان وحدهم ، بل تراها في أنفسنا أيضاً وفي كل من له اتصال بالموضوع ؛ وهذه الخطوات تتم عادة على نحو زري غامض بطيء ، مع أن الموقف الحاضر في حالة تستوجب علاجاً سريعاً لا تنجزه هذه التدابير الشائنة البطيئة الغامضة .

إن طبقة كبرى من الفقراء الزائدين على الحاجة في المدينة الغربية ذات النظام الكسبي لا تنفتأ اليوم تزداد زيادة سريعة ، والنسبة بين هذه الطبقات وبين مجموع الناس ترتفع ارتفاعاً مطرداً يحتمل جداً أن يقف حائلاً منيعاً دون الوسائل العلمية التي يراد بها تخفيف ضغط هذه الطبقة . إن ثم نزاعاً ينمو نمواً مستمراً بين

حاجات هذه الطبقة وحاجات الأثرياء ، وحاجات هؤلاء أقل تبصراً وابتكاراً من حاجات أولئك ؛ وتميل غباوة الأغنياء أصحاب النفوذ إلى مقاومة المساعي المبذولة لتخفيف عناء المتعطلين ومعارضة صرف الإعانات وما إليها إلى الفقراء ، كما تميل إلى عرقلة كل محاولة لتقصير مدة العمل في الأسبوع ، ولزيادة عدد من يحالون إلى المعاش ، ولضروب القيود التي تفرض لمنع استخدام الأيفاع والنساء والكهول ، مع أن ذلك يجوز أن يستنفد كثيراً من هؤلاء المتعطلين ؛ أما غمض الشعب في روسيا فيحدوه الأمل كما يؤكد معظم الباحثين ، ولكن يلوح لنا أن أغنياء الأغنياء المحدثين يطعمون في تحطيم ذلك الأمل ، وسيعمد هؤلاء الأغنياء الحقى إلى روح الوطنية ينفثونها لبلوغ مآربهم ، نعم سيعمدون إلى التنافس الدولي الذى يقوم على كواهل العمال وعنائهم ، وسيتخذ الأغنياء من ذلك ذريعة يهرون بها صنوف القيود والحرمان التي يفرضونها على الطبقة الدنيا فرضاً يميلون إليه بالغريرة ، مع أنه حق لا حكمة فيه . إن مقاومة الأغنياء ، الذين جاءتهم الثروة بالصدنة أو بالمغامرة ، لإصلاح شؤون التبادل وتعديلها إصلاحاً علمياً ، نقول إن هذه المقاومة للإصلاح سوف تستمر على مرأى ومسمع من الطبقة المحرومة من عملها ، وسيعمل ذلك على ازدياد العداوة الطبيعية القائمة بين من يملكون ومن لا يملكون ؛ فلن تنفك دور السينما ، والصحف السيارة ، وسائر الوسائل المتزايدة تعرض أمام أبصار من لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً صوراً جلية واضحة تبين لهم تفاوت الحظوظ بين الأفراد ؛ هذا إلى أن العقيدة التي كانت تذهب إلى أن خضوع الفقراء لطبقة الأشراف الأثرياء والسادة مفروض بالقدر ، أقول إن تلك العقيدة تنبذها العقول شيئاً فشيئاً ، على الرغم من أن الفئة الخاملة من الموسرين المحدثين تبذل كل وسعها للاحتفاظ بها ، وبذلك يزدون من الأسباب التي تستلزم زيادة الميل إلى الحرب بين الطبقات .

فهل يمكن أن تتمخض الثورة في النزاع القائم بين فريق الأثرياء والفقراء ، عن فئة قوية لها من الإرادة والذكاء ما تشرف به على النظام الاقتصادي الحديث .
المعقد ؟ إن هذا سؤال لا بد منه حيال ما يتهددنا من تنازع الطبقات .

وليس من المعقول بغير شك أن ينتظر من أناس حرهم الأغنياء ذوو السلطان دقة المعرفة والتعليم ، وليس لهم تجربة يعلمون بها كيف تدار الحياة الاقتصادية ، أن يفهموا قوى الإنشاء في الدولة الحديثة أو أن يعطفوا عليها ؛ إن الفقراء ، والسوقة منهم على نحو أخص ، قد ورثوا كما ورث الأغنياء بعض آثار النفسية الزراعية الضيقة معدلة بعض الشيء ، ويحتمل ألا يكون رد الفعل عندهم في جوهره رغبة في الإصلاح بقدر ما يكون مقاومة حمقاء يوجهونها نحو الأغنياء ، كما يوجهونها نحو أساليب الإنتاج الحديث وآلاته ، ونحو نظام المجتمع ووجهة سيره ؛ فلسنا نتوقع منهم أن يراجعوا أو يصلحوا نظاما لم يتح لهم قط أن يفهموه ، لأن ذلك فوق مستطاعهم مادام تعليمهم على حالته الراهنة ، ليس فيه آراء عن الإنشاء أو الإدارة للأسباب التي أسلفنا الإشارة إليها ، وعلى ذلك فهم أميل إلى إظهار الرغبة في عرقلة النظام القائم وتحطيمه جملة واحدة ، منهم إلى الرغبة في إصلاحه ، إنهم يحميون على هامش الوجود حياة قدرة مضطربة شائنة ، وتلك في رأيهم هي النظام القائم ، ولذا تراهم يصرحون « بأن أية حال أخرى خير من حالتهم الراهنة » — وفاتهم أن نظاما أخرى كثيرة قد تكون أسوأ من النظام السائد .

فإذا نجحت روسيا السوفيتية وازدهرت حالها ، بل لو تمكنت من دوام وجودها واستطاعت أن تبدو في مظهر من النجاح المعتدل ، ستزداد هذه الرغبة في الثورة التي لا بد من وقوعها في شعوب المحيط الأطلسي ، ويجوز أن تشتد المقاومة

نحو أصحاب الأملاك لما يستولى على الناس من دعر ، قد يحدث هذا وقد تخف هذه المقاومة بفضل بصيرة نافذة يؤتاها بعض الأثرياء فيرون ضرورة الإصلاح والتضحية الاقتصادية العظيمة ، ولسنا ندرى إلى أى حد سيرضى الأغنياء وأصحاب السلطان أن يفتحوا أعينهم ليروا حقيقة الأمر ويأخذوا بزمام الأمور ، وإلى أى حد سيقنعون بالمقاومة والتعصب ، نعم لا نستطيع أن نتكهن بهذا أو ذاك إلا بعد وقوعه ، وعلى الأمر الواقع منهما سيتوقف كل ما قد يحدث من رقى أو انحطاط . ولا سبيل إلى الشك في أن الإصلاح سيلقى بعض المقاومة ؛ وليس لدينا الإحصائيات التي ندلنا إلى أى حد بلغ الموسر الحديث من التهذيب وإلى أى حد لا يزال عند الآراء البدائية : فأما الساذج من هؤلاء الموسرين فسيكتفى بالتعصب والمقاومة حتى يثور سفلة الناس وهم كثيرون ، وما دامت هذه الفئة الساذجة موجودة بين الموسرين فلسنا نرتاب في أنها ستكون سببا فعالا في إثارة الفوضى والشغب في العالم بعد استثناء روسيا ، ونحسب أن ذلك سيدوم لبضع عشرات من السنين : فسيندفع الموسر المأفون إلى استخدام امتيازاته كلها التي يستمتع بها في المجتمع ، من قضائية وإدارية وحزبية ، وسيدفعه إلى ذلك حرصه على ماله المجموع لعله يصون هذه الأكداس الوضيعة بين يديه ، وسيمضى في استخدام نفوذه كله ليضغط على عوامل المقاومة ، إلى أن يحجى اليوم الذي تسود فيه روح الخدمة العامة والنظام السياسي الصحيح ، وعندئذ لا يتمكن من بلوغ مأربه ؛ ولكن إن حدث هذا فلا يلبث أن يطفو على سطح المجتمع فئة من اللصوص الذين لا يختلفون عن هؤلاء الموسرين السذج في شيء ، وسيلجأ أولئك اللصوص إلى وسائل العنف المرذول ، وسينشدون حاكما قويا يبسط سلطانه على الناس ويتزعم الشباب وينظم صفوف المعارضين الناقمين وما أكثرهم ،

فضلا عن الحق من الموسرين ، وسيعمد أولئك الطغاة مع من يتبعهم من الملايين إلى تقويض النظام والقانون اللذين تكونا على مر الدهور ؛ وهنا سيجد العاقلون المصلحون أنفسهم بين أسنة من نيران الغفلة والخرافة والفرع وتخاصم الطبقات ، ولسكنهم سيجاولون وهم في جحيم هذه العوامل أن يقيموا دعائم العلم الحديث ؛ ونحن إذا أنكرنا رأى الأستاذ سودى بأن الموسرين يميلون إلى الشر بصفة عامة ، فلن نستطيع أن نفكر أن كثيراً من الأغنياء والمغامرين الأشداء يتصف بالجلول ، وينجم عنه الخطر الشديد كما كانت الحال في أسرة رومانوف الزائلة .

ولن يسعنا إلا الاعتراف بأن المدنية المادية قد يصاب سيرها بالجلود بل بالتقهقر خارج حدود روسيا البلشفية تتهقرا لا يقل خطرا عما حدث بين عامى ١٩١٤ ، ١٩١٨ بل يزيد ؛ ولئن كانت ثقة الناس بالعدالة العامة ، أعنى بالقانون ، تنمو فهي تنمو نمواً بطيئاً تُدرك خطاه ، فإذا زالت هذه الثقة انحطت الحياة الإنسانية عما هي عليه الآن ، فإن لم يفرض القانون احترامه على الناس يصبح الخارجون عليه أبطالا ، والناس إذا لم يروا فى القانون سبيلا إلى السعادة جنحوا إلى تحطيمه ، فإن حدث هذا جاء يوم تسطو فيه على الأثرياء عصابات من اللصوص تستدر عطف الناس ، وساد الحكم الدكتاتورى وكثير من يزعمون أنهم منوطون بتخايص الشعوب ، وعندئذ ترى اللصوص والساسة من طبيعة واحدة ، ويتعذر قيام حكومة ثابتة منزنة ، وصيانة الحرية العامة فى الرأى والابتكار .

ولقد قام فعلا فى مختلف أنحاء العالم دكتاتوريات قد لا تكون مشروعة ، قامت بسبب العداوة بين الطبقة العليا من الأغنياء الجاهلين ذوى النفوس الوضيعة ، وبين الطبقة السفلى من غمار السوق الجاهلة الوضيعة ؛ والمجهود أن الأغنياء وأصحاب السلاطن من المحدثين والقدماء على السواء ، هم الذين ينشدون الدكتاتورية

الحرية لأنفسهم ولبلادهم ، ولم يشذ في هذا إلا روسيا التي سارت في اتجاه آخر ، إذ استبدت بالسلطة عامة الناس (أو قد يكون ستالين اسماً يصح أن يطلق على هذا السكان العجيب — أى على عامة الناس) ، وتستند الدكتاتورية في كثير من الحالات على نظام معين كالفاشية في إيطاليا والاشتراكية في روسيا ، وفي حالات أخرى ترى الدكتاتورية صورة من السطو العرّيح ، فإن ما يتبعه ستالين من التشدد في إبعاد منافسيه وناقديه يحصر الرقابة الحزبية في روسيا حصراً يحولها استبداداً فردياً في وقت قصير ؛ وفي الصين نظام اسمه «كومنتانج» يحاول بكل فروعه وذيله أن يكون معقول الدعائم ، وأن يستند إلى أساس فكري وطني إنشائي تجاه اللصوص المغامرين وتجاه الاستثمار الأجنبي الذي لا يعرف الرحمة .

وفضلاً عن هذه المظاهر الكبرى لعدم المساواة ، وما نراه من السيطرة على أم ومناطق بأسرها ، فإن هنالك تحويراً ظاهراً شاملاً يجري في أرجاء العالم كله ويتناول وجهة نظر الناس إلى الإجماع ، وأساس هذا التحول شك يتسع مداه (عند الجماعات التي انتزعت منها أملاكها) في النظام القضائي القائم من حيث الروح والغاية ، ولا يرجع ذلك إلى زيادة في إجحاف القانون ، بل إلى نقد الرجل العادي الذي ازداد حدة وقل استسلاماً ، والواقع أن القانون لم ينحط ، بل تقدم ، عما كان عليه ، غير أنه لم يتقدم بنفس السرعة التي سارت بها زيادة الشك والقلق ، فترى الرأي العام لا يؤيد ما يترتب على القانون ، لأن عامة الناس لا تفهمه ولا تشترك فيما يطرأ عليه من ألوان التعديل ؛ ومما يلاحظ أن القانون لا يقوم بدعاية يثبت بها أنه سائر مع العصر الحديث ، مع أن هذه الدعاية واجبة ؛ نعم واجب القانون أن يستبعد أردية القضاة وشعورهم المستعارة وثيابهم المزركشة

ويخرج من أبنيته القوطية الخادعة ووقاره المصطنع ، وأن يبرز أعماله في وضع النهار ؛ واجب القانون أن يسير الأفكار الحديثة السائدة في المجتمع ، وأن تكون مشكلاته التي يعنى بحلها هي نفسها المشكلات التي تقع في الحياة السائرة ؛ ومن العبث ألا يعلن القضاء عن شيء يتمتع جمهور المعاصرين سوى الحوادث الجنائية . إن عامة الناس تفقد شيئاً فشيئاً إيمانها القديم بأن النظام الاجتماعي كما يمثله القانون في مصلحتها ، وكذلك تفقد ثقتها في قيمة المال وفي أمانة المصارف وفي ضمان أي ضرب من ضروب الادخار والاستثمار ، وقصارى القول إن الناس يتخلصون من أوهامهم فيما يتصل بالنظام الاجتماعي ، تلك الأوهام التي لبثت تلعب بعقولهم طوال العصور حتى يومنا هذا ؛ فما أشد وما أسرع ما يتعرض له الناس من فقد الثقة واضمحلال الحياة الشريفة المطمئنة بسبب المظاهر الحديثة لاضطراب النقد والإقراض ؛ ويميل قلب قيمة النقد بعامة الناس إلى العقيدة بأن الحكومات تستطيع الغش بل تريده ، وحينئذ يحاول كل إنسان الغش والساب كلما مكنته من ذلك شجاعته وقدرته ؛ وبين الناس رأى يذيع ، مؤداه أن استهزام المرء لضميره ضرب من الغفلة ، كما تشيع بينهم ضروب الخاتلة ، وعلى الجملة ، فإن المثل الأعلى للأخلاق الاقتصادية قد تقوضت أركانها .

كان لزاماً علينا ، ونحن نبسط هذه الصورة الشاملة لحياة العالم الاقتصادية والاجتماعية ، التي ما تنفك توسع من نطاقها ، أن نتناول هذه الدلائل والأعلام التي تدل على فساد المجتمع ؛ ونحن نضيف إلى الصورة التي صورنا فيها الأثرىاء المحدثين بأنفاهم وتبديدهم إنفاقاً وتبديداً أقرب ما يكونان إلى الحق والانحلال ، عددًا عظيمًا من المناجم والمصانع التي تغلق أبوابها ، والمزارع التي تقفر من محصولها وجوع العمال المتعطلين الذين يزدادون شيئاً فشيئاً ، والذين يتسكعون في أركان

الطرقات ساخطين غاضبين ؛ فهؤلاء قد وثقوا بأصحاب الأملاك راجين أن يسلك هؤلاء بالحياة سبيلا قويمه ، ولكن أصحاب الأملاك قد خيبوا رجاءهم ، أضف إلى هذا أن عصابات الإجرام يتكاثر عددها ، وأن عوامل النظام تفقد مالها وما فيها من ثقة ؛ هذه هي العلائم الظاهرة التي تدل على تحوير عميق يجرى في رؤوس مئات الملايين من البشر ، وبدهى أن شعور الناس بضرورة خضوعهم أخذ في النقص ، وأن إيمانهم بوجوب الحياة الشريفة قد زال ، كما أن شعورهم بالإخفاق الذي أصابهم بغير حق يزداد شدة ، ورغبتهم في اختطاف اللذة وأسباب الهناء قبل أن تغلت من أيديهم تشتد وتقوى ؛ وقد لا تكون هذه التغيرات هي كل ما حدث أو معظمه ، ولكنها هي التي تثير أشد عوامل القلق . ولقد طفت على أرجاء الأرض موجة عصف بالعقائد وأسباب اليقين والثقة التي كانت فيما مضى ركيزة تنهض عليها الأعمال التقليدية الثابتة في نظام المجتمع ، والتي كانت سببا في دوام ذلك النظام ، وواجبنا أن نوازن بين ما أصاب الأخلاق الاجتماعية من تدهور بسبب الحالة الاقتصادية والنقدية والمالية ، وبين ما تم من الأعمال الإنشائية العظيمة في المائة السنة الأخيرة ، فقد تكون هذه الظواهر مخاضا لأبد منه قبل أن يتولد انسجام عقلى لا نستطيع أن نتنبأ به الآن ؛ فإن ملايين العقول التي نراها اليوم حائرة مضطربة جشعة مفكرة غاضبة ثائرة متهمه طامحة ، وإن هذا الخضم الزاخر من ألوان الشقاء ، قد يجتازه الإنسانية يوما ، وقد تمجوه موجة لا نكد اليوم ندرك كنهها فضلا عن أن نسبر غورها ؛ وهما هي ذى السنين والصحافة والإذاعة اللاسلكية ترحب بكل من يستخدمها ممن يأنسون في أنفسهم القوة والشجاعة في استخدامها أمام هذه العوامل القوية . لقد باتت لدينا كل الوسائل من الآراء والمعارف التي تعيننا على توجيه مئات الملايين من العقول

شطر الوفرة التي لم تستثمر بعد ، وشطر استخراج ما يمكن استخراجه من ثمار الحياة الشهية الجلية التي تقع من قاب قوسين ، وفي مقدورنا أن ندفع تلك الموجة المطهرة دفعا حتى تمحو ما يلاقيه الناس من بؤس ، ولست أشك في أن العالم في فجر عصر تمتاز فيه رغبات الإنسان وحوافزه وتعاون ، ويشذب بعضها بعضاً ؛ وإن هذا ليم في قوة عنيفة لم نعهدها قط من قبل .

وسنبحث في الفصل السابق للأخير وجهات التربية في المجتمع الحديث^(١) ، وعندئذ نكون أقدر على وزن العوامل التي تعمل في هذه الأزمة الخلقية التي تنتاب المجتمع . ويجوز أن نكون فكرة أصدق من رأينا الآن في وجوه الإصلاح العميق التي يتطلبها الموقف الحاضر ، وربما تبين لنا كيف يمكن لإصلاح مئات الملايين من العقول أن يتم في زمن وجيز في الظروف الراهنة . ويجب قبل أن نبلغ ذلك الفصل أن نتناول بالبحث نظامين آخرين من النظم التي تسبب اضطراب الحالة العقلية : أولهما التغيرات العظيمة التي تطرأ على علائق النساء بالرجل وعلاقة النساء بالمجتمع ، وثانيهما المشاكل الحزنة التي تنجم عن المسائل التي أثرتها والتي نشأت عن اصطدام التقدم المادي بتجزئة الإنسانية أجزاء سياسية وجنسية ، وبهذا تتم أطراف بحثنا . وسنرى في جوانب الإنسانية كلها ، عند انتقالنا في البحث من جانب إلى جانب ، حقيقة مشتركة تسودها جميعاً ، وهي ازدياد القوة البشرية واتساع مداها ازدياداً عجيباً لا يمكن التنبؤ بما يؤول إليه ، وما ينتج عن ذلك من صراع بين الأساليب القديمة والأساليب الجديدة ، وما ينجم عن بقايا الأفكار العتيقة من خطر ؛ إن الحالة الحاضرة وليدة الماضي وهي تتحول في طبيعتها تحولاً

(١) هو فصل عقده السكاتب للتربية فليراجعه من شاء في كتاب « عمل الإنسان وثروته وسعادته » .

يقع على مرأى منا ؛ فالعداوة بين الأثرياء والفقراء فيما مضى تشبه العداوة القائمة بينهم اليوم ولسكنها مع ذلك شيء يخالفها ، فقد كان أثرياء العالم القديم سادة حقيقيين كما كان فقراؤهم عبيدا أرقاء ، ولولا سيادة الأثرياء واستعباد الفقراء لما ظهرت مدنية العالم القديم ، إذ يظهر أن هذا النظام لم يكن منه بد ؛ أما أغنياء العالم الحديث فلم يعودوا ضرورة لازمة للإنتاج ، ولم يعودوا يشرفون على إدارته ، وأصبحت روابطهم بالفقراء معقدة ملتوية ؛ وهما هي ذى سبيل التحرر والخلاص . قد استفارت أمام البشر ، تلك السبيل التي لم يكن ليحلم بها الإنسان قبل أن يبسط سلطانه على القوة وأنواع المادة .

المراة

ما تؤديه المرأة من أعمال العالم

١ — إلى أى حد ينبغي أن نضع فكرة الجنس فى هذا العرض موضع النظر؟

٢ — النساء كعاملات ومنافسات للرجال ؛ احتفاظ الرجال بزوجاتهم وأسراتهم وعلاقة ذلك باستخدام النساء ؛ الطبقة التى لا جنس لها من الوجهة الاجتماعية .

٣ — الاختلاف الفطرى فى الصفات الجسمية والعقلية بين الرجال والنساء .

٤ — الأمومة واعتماد النساء على الرجال بسببها .

٥ — بعض النتائج الخلقية لما يجرى به العرف من انحطاط المرأة وحرمانها ؛ إذعان المرأة وريائها ؛ البغاء ؛ تجارة الرقيق الأبيض ؛ « الرقيق » .

٦ — قوة النساء بالإغراء وبما يبتئن من روح الطمأنينة ؛ أثر المرأة فى تحديد الإنفاق .

٧ — هل يلزمنا المرأة ضرب خاص من التربية فى طور الشباب ؟

٨ — إمكان أن يكون للنساء عمل خاص فى المجتمع الحديث .

ما تؤديه المرأة من أعمال العالم

١ - إلى أى حد ينبغي أن نضع فكرة الجنس

في هذا العرض موضع النظر؟

لقد انتهينا حتى الآن من استعراض ضروب النشاط الإنساني إلى مرحلة لها من الشمول قدر لا بأس به ، فصورنا هذا العمل الذى يتعاون فيه أفراد الإنسان كما يتعاون النمل على بناء الجبل ، ووصفنا العمال مشتغلين بأعمالهم ودرسنا ما يدفعهم من حوافز ودوافع ؛ ولكن الصورة مع هذا كله لا تزال على درجة قصوى من البساطة ، فلا يزال أمامنا أن نبحث الحكومات ورجال السياسة ؛ هذا إلى أننا لم نصِفْ إلى الصورة بعدُ أعلام الأوطان المختلفة ، ولم نصور الجمارك وشككات الجنود ؛ نعم إننا فيما صورنا قد أهملنا ما بين الدول من تنافس وحروب ، ولم نتناول بالدرس بعدُ تعداد هذا الجمع البشرى الخاشد وما يطرأ على سكان الأرض من زيادة ؛ كلا ولم نذكر شيئاً عن الجرائم والسجون ؛ وأما التربية فعلى الرغم من إشارتنا إليها إشارة متصلة فيما سبق ، إلا أننا لابد أن نوضح موضوع المدارس والكليات وما يستخدمه العالم من كتب دراسية^(١) .

هذا إلى أننا لم نسطر حتى الآن فقرة واحدة عن ذلك النشاط الإنساني الخالص ، وأعني به علائق الجنسين ، وهو ما سنتناوله الآن بالبحث .

إننا حين أشرنا إلى التحول الدائب الذى يطرأ على استقلال المنزل فيبديل به اشتراك الناس في أداء المرافق ، تحاشينا أن نبحث كيف أثر ذلك في تغير العلاقة

(١) يبحث الكتاب هذه الموضوعات في فصول مستقلة من كتابه : « عمل الإنسان وثروته وسعادته » .

المبادلة بين المرأة والرجل في شؤون الدار ؛ بل إننا في الباب الثامن الذي عرضنا فيه صنوف الإنسان عرضاً شاملاً لنتخذة أساساً لدراسة حياة الناس الاجتماعية وتأثيرهم بعضهم في بعض ، لم نعتد على أنفسنا سبيل البحث بفكرة أن بين فصائل الزارعين والرعاة فريقاً من الإناث ، بل إننا كذلك لم نفرق في طبقة المتعاملين بين الذكور والإناث ، ولقد كان في مكنتنا حينئذ أن نبرر ذلك التبسيط في طريقة البحث بقولنا إن المرأة على وجه العموم ، فيما يتعلق بالغايات الاجتماعية العامة التي قصدنا إليها من ذلك الباب ، تلازم الرجل من طبقتها ، فزوجة الزارع تقاسمه وجهة نظره إلى العالم ولها ماله من حقوق في حدود طبقتيها الاجتماعية ، وبقدر ما تسمح لها أنوثتها بذلك ؛ والمرأة المسيطرة في طبقة الرعاة تتفق كذلك في كل الأمور الهامة مع ما يختلج في نفس زوجها من أفكار .

نعم لقد كنت في الباب الثامن^(١) أتحدث حديثاً عاماً ، ولكنني سأحاول هنا أن أسوق الحديث والتفكير في تعميم أقل قليلاً من ذلك ، فأضع في اعتباري أن كل ضرب من ضروب النشاط الإنساني له جانبان ، وأن المرأة تختلف عن الرجل في تفكيرها ونشاطها بعض الشيء ، بل قد يكون اختلافها هذا راسخ الجذور بحيث يستعصى على الزوال ، لا فرق في ذلك بين المرأة في أكواخ القبائل المتوحشة أو في قصور الملوك وأصحاب الملايين . ولقد كانت عنايتنا فيما سلف من البحث منصرفة إلى النتائج المشتركة بين الذكر والأنثى في الحياتين الاقتصادية والاجتماعية ، ولكن هانحن أولاء نسلم بأن المأساة البشرية ربما كان يمثلها ، وقد يظل يمثلها إلى الأبد ، مجموعتان من الممثلين لا تغني إحداها عن الأخرى ، وربما لعبت كل منهما دوراً لم يكن منه بد لتمام القصة ؛ ولقد ترى

(١) الفصل الذي عقده الكاتب لدراسة طبقات المجتمع .

نمطين من الحياة يفتشان في نسيج هذا العالم ، عالم العمل والثروة ، يتألف كل منهما مما يقرب من تسمائة وخمسين مليوناً من الأنفس ، ولكل فريق منهما ميولٌ تخالف ميول الفريق الآخر ، وغايات تبين غاياته .

ونحن كما ترى نتحوط في التعبير فنقول « قد وربما » ولا نقطع بوجود التباين بين الفريقين ، فنحن نسأل أنفسنا ثم نرجح في الإجابة عن السؤال أن يكون بين الجنسين حقاً بعض أوجه الخلاف في الميول والغايات ، ولكنها على كل حال فروق طفيفة بين كائنات أشد ما تكون شبيهاً وقرابة ؛ فهي اختلافات يكمل بعضها بعضاً وليست مما يبعد بالنفور فربقاً عن فريق ، وهي تشير إلى ما بين الجنسين من نهاية مشتركة ؛ فلست أشك في أننا سننظر إلى آخر الدهر نرى أشياء تتقنها المرأة دون الرجل ، ونشهد أعمالاً تحسن المرأة أداءها أكثر مما يحسن الرجل ، وأن النساء سيلبثن إلى آخر الدهر أشد من الرجال رغبة في أشياء معينة ، كما سيظل الرجال أشد رغبة منهم في أشياء أخرى ؛ ولست أشك في أن شطراً عظيماً ، إن لم أقل الشطر الأعظم من أعمال الإنسان ، ينقسم اليوم وسيبقى مقسوماً إلى الأبد قسمين : أعمال يختص بها الرجال ، وأخرى يفرد بها النساء .

ولكن دعني أسأل أولاً : إلى أي حد يؤثر اختلاف الجنس في كيان الرجل أو المرأة ؟ ترى هل يكون الذكر ذكراً والأنثى أنثى حتى أطراف الأنامل ؟ إن مخلوقات كثيرة لا يذهب فيها اختلاف الجنس إلى أبعد من التناسل وما يتصل به : فسمكة الرنكة يلين « بطروخها » أو يتصلب وذلك بمقدار ما فيها من الصفات الجنسية ؛ كذلك ليس في ذكر النعام ما يدل على ذكوره دلالة بينة ولا في أنثاه ما يشير إلى أنوثتها إشارة واضحة ، ولسنا نستطيع أن نفرق بينهما من حيث تركيب الجسم أو اختلاف النزعة إلا حين يحين دور الحضانة أو الرضاعة

ورعاية الصغار ، ومع ذلك فـكل ما بين ذكر النعام وأنثاه من ضروب الخلاف إنما تكون في تخصص الأنثى دون الذكر بما يتصل بشؤون النسل ؛ وليس يبدو في فصيلة البشر من علائم التباين الجنسي بقدر ما يبدو منها في كثير من ضروب الماشية ، ولم ينفرد كل من جنس البشر من سلف يختلف عن سلف الآخر كل الخلاف عقلاً أو جسماً ؛ فإن كان الرجل مثلاً أقدر من المرأة في الضرب والجري وأشد منها احتمالاً للعمل الشاق ، فالمرأة فيما يلوح أقدر من الرجل في السباحة وأسرع منه حفظاً للتوازن في ركوب الدراجة ، وأطول منه صبراً على مواصلة العمل الخفيف ، وما نظن أن هنالك كثيراً مما يؤخذ عليها إذا كان الأمر قيادة سيارة أو طيارة ؛ وها هو ذا غزو الإنسان لمصادر القوة وتغلبه على شقاء العمل يزيجان عن عاتق المرأة كثيراً مما كان يعترض طريقها في الحياة الاقتصادية ، فاصطناع الآلة الذلول قد هباً للمرأة أن تقف مع الرجل موقف الغد المنافس في كثير من الصناعات التي كان ينفرد بها الرجل من قبل ؛ وما يطرأ على الشؤون المنزلية من تحول مطرد نحو الاشتراكية يزيد في انتزاع المرأة شيئاً فشيئاً مما كانت تزرح تحته من خضوع موروث منشؤه عكوفها على الأعمال المنزلية ؛ وضبط النسل يحصر دائرة تخصصها القديم الذي كان يميز بين جنسها وجنس الرجل ، وهكذا نرى الجنس البشري الذي لم تكن تفرق بين جنسيه فروق جنسية عميقة ، لا يزال ماضياً — فيما يلوح لنا — نحو الإمعان في حصر دائرة الخلاف الجنسي بين الفريقين .

٢ — النساء كعاملات ومنافسات للرجال

احتفاظ الرجال بزوجاتهم وأسرانهم وعلاقة ذلك باستخدام النساء

الطبقة التي لا جنس لها من الوجهة الاجتماعية

لنستعرض الآن في إيجاز شديد عمل النساء ، وبصفة خاصة عمل المرأة باعتبارها عاملة صناعية تقف مع الرجل كتفاً إلى كتف وتنازله في ميدان التنافس فقد كان يسرى بين الناس قبل الحرب ادعاء محتمس ، أو قل كان يشيع بين الطبقتين الوسيطة والعليا ، على الأقل من أهل الدول الغربية ، قول بأن النساء عاجزات عن أداء أعمال الصناعة العادية ، وبأنهن إن كن قادرات على القيام بشؤون الدار ، فليس في مستطاعهن أن « يكدحن لكسب العيش » ، فقد كان يُظن أن الطاهيات ، مثلاً ، يعوزهن الذكاء الذي يتطلبه إصلاح الآلة المعطوبة ، وأن خادومات الدار اللأئي ينفقن النهار صاعدت هابطات على سلم الدار ، تنقصهن القوة اللازمة للصعود على سلم مركبات الترام ؛ فلما كانت الحرب العظمى وتصدى النساء لمثل هذه الأعمال في نجاح تام ، لم يسع الناس جميعاً إلا أن يبدوا حيال ذلك دهشة وإعجاباً ، بل لعل النساء أنفسهن قد تولت هن الدهشة كسائر الناس مما أبدى من مقدرة ، وجرت أنهر الصحف بهذا الشعور وألفت فيه الكتب ، ومع ذلك فلم يكن ذلك جديداً في انجلترا ، إذ كان من بين نساها قبل الحرب ما يدنو من خمسة ملايين يعملن خارج دورهن ليسكنين الأجور ، وكان من هؤلاء ما يربو على مائة ألف امرأة تعمل في صناعات التعدين . ولكن مثل هذا الخطأ في الحكم ، وهذه الآراء التي تشيع بين الناس عن النساء بالجملة من غير تدقيق ، هما اللذان يجعلان من العسير أن تقدر ما يمكن

للنساء أن يعملنه ، أو ما هن قائمات بأدائه فعلا من الأعمال ؛ فما أحسب أحداً يستطيع أن يتناول موضوع المرأة بالبحث دون أن ينتابه في البحث شعور قوى يفسد حكمه ، ودون أن ينحاز إلى الدعاوى والأوهام ، فشكل أطراف الموضوع تعانى من المواضع التقليدية التي تميل إلى صوغ الحقائق في قالب روائى ، بل إن النساء أنفسهن يضعن سلوكهن في هذا القالب الخيالى ويضعه لهن الرجال في قالب خيالى آخر ، أما أن يثبت الباحث حقائق الموضوع عارية صافية ، فما أندر ذلك ، ولذا فليس بين أيدينا إلا معلومات بترء ، وإلا إحصائيات ناقصة ، بحيث لا نستطيع أن نوازن بين هذه وتلك لنخلص إلى بعض النتائج .

ومع ذلك فحياة المرأة الصناعية ماضية في طريقها رغم مقاومة هذه المواضع التي جرى بها العرف ، ولم يشهد التاريخ عهداً رضى فيه الرجال أن تعمل نساؤهم ليكسبن مالا ، لأن قبول الرجال لهذا معناه ارتجاج في المركز الاجتماعى لرب الأسرة وتهديد لسلطانه بالزوال ، فالأغنياء يأبون إباء قاطعاً أن تعمل نساؤهم ، مدفوعين إلى ذلك بخليط من طيب الدوافع وسيئها ، بل إن الفقراء أنفسهم يعارضون أن تغادر النساء دورهن ليعملن خارجها ؛ ولم يتهماً للفرد العادى أن يتبين مقدار ما يستطيع النساء أن يعملنه في دور الصناعة إلا حين اصطبغ العمل الصناعى بلون الوطنية ، بحيث أصبح النساء في المعامل فخراً لأمتهم ، بعد أن كان يعود عليهن ذلك بالخزى الذى لا تبرره الأسباب ؛ أما وقد انقضت الحرب واهبى ما كانت تبعثه في النفوس من فتنة ، فقد عدنا مرة أخرى إلى مرحلة لا يدرك فيها أحد ، فيما يلوح ، بل لا يريد أن يدرك على نحو شامل دقيق ، إلى أى حد استخدمت المرأة في الصناعة . وماذا يعمل النساء وكم يأخذن من أجور وبأى الشروط يعملن .

ونستطيع أن نقسم النساء من حيث أعمالهن قسمين رئيسيين : نساء يعملن في الدور وما يتصل بالدور ، وأخرى انتزعن العمل إلى العالم الخارجي ؛ أما الطائفة الأولى فتشتغل في كل أنحاء الأرض بأعمال وصناعات منزلية وبشؤون زراعية مما يتصل بالمنزل ، ومنها تتألف السكينة الغالبة من نساء العالم ، فهي تشمل ربة الدار الأمريكية بما تستخدمه في منزلها من مولدات الحرارة وآلات التبريد وما لها من نادر يفتي يعتصم به ، كما يشمل الزوجة البدائية ، التي إلى جانب طهي الطعام وتربية الأبناء ، تبنى الأكواخ وتفتح الأرض وتغزل وتنسج وتنشئ السلال وتصنع آليات الخرف ، ويدخل في هذه الطائفة كذلك هذا الجمع الحاشد من أرقاء المنازل وخادماتها ؛ فيكاد نساء الهند أجمعن يدخلن في هذا الفريق ، وبين نساء الهند هؤلاء بضعة ملايين من الزوجات تزوجن قبل أن يبلغن سن الزواج ، فهن محض عبيد لأزواجهن وحيواتهن ، بل عبيد كذلك لنظام صارم من العادات والخرافات ، حتى أصبحت أوجه حياتهن في صميمها سلسلة مخيفة من القذارة والضعف ؛ فالوف الألف من هؤلاء النسوة لا يجوز لهن أن يغادرن الدور ، حيث ألقى بهن في أكواخ معزولة ليحمان أجنة وكفى ؛ والكثرة الغالبة من النساء العاملات بين جدران المنازل لا يتقاضين عن أعمالهن أجوراً مالية ، مع أن ذلك ممكن أحياناً ، وحتى إن نُقِدن الأجور فما أضالها من أجور . ورغم ما تراه في أمم الغرب من آلات للتنظيف والطهي ، فلا يزال معظم العمل المنزلي عتيقاً في ظروفه ووسائله ، قد تقدمه الزمن قروناً وقروناً ، وهو عمل رتيب ممل يعزل القائمة به كأنما يزوجها من بيتها في غيابة السجن ، وإلقاؤه على عاتق المرأة مشوب بالتفرقة بين الجنسين ، ويغلب ألا يقوم به النساء عن شغف كما أنهن لا يؤخذن بالتدريب على أدائه ، فما تكاد تسمح لهن فرصة الإفلات

منه حتى يغادره ؛ فلئن جاز أن تكون المرأة حيواناً مستأنساً ، فلا ريب في أن لها روحاً تستعصى على الترويض ، وهي كالرجل تكره أن تعمل أو أن تفرض عليها القيود ، وها نحن أولاء نشاهد ربّات المنازل يشترين الخبز ولا يعددنه ، ويبعثن بما يراد غسله من الملابس إلى مغاسل عامة ، كما نرى ابنة الطاهية تؤثر على الطهي وظيفه في مقهى ، والمُدْرَسَة الشابة الذكية تأبى الزواج إباء قاطعاً ؛ ويحدثنا أولو الأمر في روسيا البلشفية أن المرأة أشد من الرجل إقبالا على الزراعة الجمعية ، وأن النساء هن اللاتي يُصَوِّتَن في الانتخاب من أجل اكتساح القرى واحدة بعد أخرى بهذه الزراعة الجمعية ، وهكذا سرعان ما تمسح الغريزة التي يظن أنها أعمق غرائز المرأة إذا ما تهيمات وسيلة للفرار من رعاية الدار ، وإذا أخذنا بالأرقام الرسمية ألفينا أن أكثر من ثلاثة عشر مليوناً ونصف مليون من النساء الروسيات كن يشتغلن بتلك الزراعة الجمعية في شهر مارس عام ١٩٣١ ، وكان يقال حينئذ إن ذلك العدد في ازدياد مطرد ، وإنه ليمبدو أن نسبة النساء القابعات في دورهن آخذة في النقصان في أرجاء العالم أجمع .

وبديهى أن هذا النقصان في نساء المنازل مؤد إلى زيادة أولئك اللاتي يخرجن بأعمالهن من الدور ، غير أننا نستثنى من الفريق اللامنزلى من النساء العاملات ، طائفة نكاد لا نشك في تقلص عددها ، وهن أولئك الفقيرات اللاتي يُسَخَّرْنَ في أسخف الأعمال بأجور ضئيلة ، فهن طائفة مُسْتَعْلَة من النساء تراهن قابعات من العالم الصناعى في زواياه وحواشيه ، يشقن بأعمال كريهة ضئيلة الأجور بحيث يأبى الرجال أداءها ؛ نقول إن هذه الطائفة من النساء العاملات في نقصان مطرد ، لأن قوانين المصانع وما يتخذ من إجراءات في سبيل الحالة الصحية العامة تمحو هذا الضرب من العمل في البلاد المتحضرة ، فالأعمال القذرة

مثل كشط الجلود ، تناولها التنظيف والتطهير ، وبعض الأعمال الأخرى مثل تعبئة زجاجات الجعة ، التي كانت تُؤدَّى فيما مضى في سراديب غير صحية ، باتت تُنجز اليوم في مصانع جافة أجيّدت تهويتها ، ويستعان على أدائها بالآلات في كثير من الحالات .

ويرى موظف كبير في مصلحة العمل بوزارة الداخلية الإنجليزية أنك لا تعود ترى اليوم إرهاب النساء والإجفاف بهن ، وأقصر القول هنا على الأمم المتحضرة الحديثة ، إلا في خدامات المنازل حيث يرسخ في نفوس قليل منهن أثر من الرق ، فتعوزهن جرأة النفس ليمتخلصن من سيداتهن الطاغيات . ولما كانت الحياة الصناعية تنشر رواتقها في بعض البلاد المتأخرة التي تخلو من اتحادات العمال ومن القيود القانونية ، فإن الاستغلال لا يزال قائماً ، حتى لتروى Dame Adelaide Anderson في تقريرها على استخدام الأطفال في دور الصناعة في مصر وصفاً لحال القطن التي يخنق هواؤها بالغبار الضار ، ومع ذلك ترى الأطفال من بنين وبنات في سن السابعة يزاولون أعمالهم تحت عذبات السياط ؛ ولا يزال النساء في اليابان يقمن بتزويد السفن بمؤناتها من الفحم ؛ ولكن الرقابة الدولية على مثل هذه الحالات تزداد ازدياداً مطرداً ، ولولا ما ينتاب العالم من مشكلات تهدد في قوائمه هذا ، لرجونا لأحفاد أحفادنا أن يعيشوا في عالم تطهر من كل ما يشوبه من استغلال همجي لمنكوبات النساء في شؤون الصناعة .

على أن ما نراه اليوم من النساء اللامنزليات ، وهن النساء العاملات الحديثات على صورتهم الصحيحة ، إن هن إلا وليدات قوانين التعليم ونقابات العمال واصطناع الآلة لتخفيف عناء الأعمال ؛ فإنه إذا ما خفَّ العمل وهان بإحدى الآلات على اختلافها ، من آلات الخراطة إلى آلات الكتابة ، أقبل عليها

النساء يؤدين بصفة عامة ضروب العمل التي تقل فيها التبعة ، مما يتهيأ عمله بهذه الآلة الجديدة ؛ ونستطيع أن نقارن النساء بالرجال في هذا فنقول إنهن يضررن الرسائل على الآلات الكاتبة ولكنهن لا يملينها ، ويرعين آلات المصانع ولكن لا يعددنهن ولا يصلحنهن ، ولا يُحسِّنُها ولا يَخْتَرِعُها ، وهن يتقاضين ، كقاعدة عامة ، نصف ما يتقاضاه الرجل من أجر أو ثلثية أو شيئاً يتراوح بين ذلك ، إذا أديا عملاً متشابهاً إن لم نقل عملاً بعينه في كلتا الحالتين ؛ هذا إلى أنهن في سن الشباب ويعوزهن حسن التنظيم (يقدر السير جوزيا ستامب أن نصف النساء العاملات في الصناعة في إنجلترا لم يبلغن الثالثة والعشرين) .

والحاجة إلى تنظيم النساء العاملات ظاهرة ملحوظة في أرجاء العالم كله ، ففي اليابان حيث يوشك عدد الرجال في المصانع أن يساوى ما بها من نساء — إذ يربو كل فريق عن المليون قليلاً — نرى في النقابات ثلاثة رجال مقابل امرأة واحدة ، وفي إنجلترا اثنان وثلاثون في كل مائة من « العمال المشتغلين بأعمال مفيدة » كما تسمى نشرات الإحصاء عمالنا الذكور — قد شملهم التنظيم ، أما الإناث وعدد العاملات منهن في أشغال مفيدة أقل في مجموعه من عدد الرجال ، فلم ينخرط منهن في نظم العمال إلا خمسة عشر في المائة . والعلة في امتناع هؤلاء العاملات عن الاشتراك في النقابات ليست فيما يبدو كرهاً لها ، بل هي قلة أجورهن واعتبارهن العمل ضرباً من التسلية يقضين فيه سنى الشباب ، إذ يعد الفتيات هذا الزمن الذي ينفقنه في المصانع مرحلة انتظار تسبق الزواج ، فهن أحوج إلى كل بنس من أجورهن ، إما ليجمعن بذلك مهورهن ، وإما لينفقن على الملابس والمظاهر التي تتيح لهن دائرة أوسع في اختيار أزواجهن ، فلما ارتفعت أجور النساء إبان الحرب وقل احتمال زواجهن ، تقاطرن على النقابات أفواجاً ، ولكنهن

بعدئذ عدت إلى موقفهن الأول ، ولم يحفلن بما يتناول عالم الصناعة من طرائق التنظيم .

ويزعم الزاعمون أن تدفق الفتيات في أعمال الصناعة قد دفع ظروف العمل خطوة نحو التمدن ، ولقد يجوز أن يكون ضعفهن المستهدف للخطر هو الذى حرك العاطفة في صدور أولى الأمر في العهد الفكتورى ، فأصدروا أول ماصدر من قوانين المصانع ، ثم احتدت تلك العاطفة أمام المنافسة الخارجية العنيفة ، حتى أصبحت مرحلة لها ما بعدها في سلسلة أخذت تتتابع كأنما هي أطوار من وحدة بيلجية ، هي ضمير نشأ وجعل يتطور ؛ ويلوح لنا أن وجود النساء في المعامل قد رفع مستوى النظافة والمعاملة وأسباب الرفاهة بها ، فما كادت ظروف العمل للنساء تخلص من تلك المنزلة التي كانت من الضعة بحيث تبعث على اليأس من إصلاحها حتى اشتدت رغبتهن في صبغ الحياة بصبغة خاصة ، وأقبلن على أسباب المرح وحوافز الخيال ، وكان لهن نظرات في موضوع أخلاق الإنسان وسلوكه ، فكان لكل ذلك أثر حاسم في محيط الصناعة ، فكانن قد اكتسبن أمامهن القدرة وغلظة التعامل ؛ وربما عزونا بعض هذه الإصلاحات إلى ارتفاع الحياة بصفة عامة في نصف القرن الماضى إلى حد ما ، ولكن دخول المرأة في الصناعة هو القوة الدافعة التي انتهت إلى هذا التقدم .

ولكن ما موقف النساء اليوم في الصناعة ، وكيف ينظر إليهن ؟ الأرجح فيما يلوح أنهن لا يزلن عاملا صناعيا هاما — وقد ترجع أهميته إلى تزايد عددهن — ولكنهن لا يستقررن في أعمالهن مدى الحياة ؛ ونحن في ظروف الحياة الحاضرة لا نتردد في أن نؤثر لصالح المجتمع أن تعمل الفتاة عملا كأننا ما كان بعد مغادرتها المدرسة حتى يتم زواجها ؛ ولكن هل كونهن مؤقتات في أعمالهن سيكون معناه أنهن

لن يشتغلن قط إلا أخط المراكز في الصناعة ؟ لسنا نشك في أن النساء كجنس ، يعوزهن طموح الرجل ، كما تعوزهن رغبته الشديدة في البحث العقلي ، الذي لا يقصد إلى غاية عن البحث في ذاته ؛ فهن لا يقصدن إلى مزارلة أعمالهن مدى الحياة ، ولا يروون أن يتدربن على الأعمال التي تتطلب المهارة وتستتبع التبعات ، ونستثنى من ذلك بعض المهن هنا وهناك مثل صناعة القطن في لانكشير — فضلا عن ذلك فإن أصحاب الأعمال لما رأوا عدم استقرار المرأة في عملها واحتمال تركها له بعد حين ، فإنهم لا يميلون إلى تدريب النساء ليشغلن الوظائف العليا ، ويأبون أن يستمعوا حتى إلى الفتيات اللاتي يطالبن بإفساح مجال التدريب أمامهن ليصعدن إلى تلك المراكز ؛ وإذن فمن العسير أن نحكم كم من القوة والصواب في ميلهن هذا إلى إفساح طريق الرقي أمامهن وكيف يستخدمنه لو أتيح لهن ، ويزيد الأمر تعقيداً أن قوانين نقابات العمال تحرم على النساء مزاولة صناعات بأمورها ، ولا تبيح لهن أن يستمتعن بالوظائف التي تتطلب شيئاً من المهارة في معظم الصناعات الأخرى ؛ وأما في أمريكا فإن أجور الأعمال الوضيعة عالية ، حتى كان من العسير أن تغرى الرجال أنفسهم أن يأخذوا في التدريب ليتولوا أعمال المهارة الرفيعة ، فاستدعت الحال من أجل ذلك أن تسند هذه الوظائف الرئيسية إلى عمال ماهرين من أوروبا في كثرة تلفت النظر . وأما في روسيا ، حيث تحطمت هذه الحوائل التي تعترض سير المرأة فيقال إن مائة وخمسين ألف امرأة يؤخذن بالتدريب ليتولين الوظائف الفنية الرفيعة ، ولكن لا نستطيع حتى اليوم أن نعلم إن كن سيبدن من المهارة ما يبيده الرجال ؛ نعم ، إنك قد ترى في الأمم اللاتينية بعض شواذ النساء يؤدين كل ضروب الأعمال — ولكنهن أفذاذ شواذ ؛ وإذن فليس بين دول العالم

إلا اسكندناوه التي يبدى فيها النساء — كجنس بصفة عامة — بعض الجدارة التي تتيح لهن أن يتولين فروع العمل الفني الدقيق ، فهن في ذلك القطر يقفن مع الرجال في حق الاستخدام إلى أبعد حد مستطاع من المساواة .

احتفاظ الرجال بزوجاتهم وأسرانهم

وعلاقة ذلك باستخدام النساء

إن دخول النساء في الصناعة على أساس فيه أى معنى من معانى مساواتهن بالرجال ينقض الحواجز التي أقامتها نقابات العمال في وجوههن ، ثم لا يقتصر على هذا الحد ، بل إنه كذلك ليقضى على سوق الزواج التي تتنافس مع سوق العمل الصناعى في اجتذاب المرأة ، كما يحو من أذهان الناس رأيهم في المرأة الذي لا يقوم على أساس صحيح ، والذي قر في الأذهان حينما طويلا من الدهر ؛ فلا يزال الرأى السائد هو انحطاط المرأة دون الرجل من حيث جدارتها في العمل ، ولكن انحطاطها هذا لم يقم عليه البرهان القاطع ، وذلك لأن الحوائل التي تعترض طريقها ، وإغراء الزواج الذي أشرنا إليه ، يحولان دون اختبارها على نحو صحيح ، ومع ذلك فهذا هو الرأى الراشح اليوم ، إذ العقيدة سائدة بأنه حتى لو أزلنا من وجهها الحدود والقيود لظلت أقل جدارة من الرجل ، ولعله مما دعا إلى الأخذ بهذا الرأى أن المرأة تؤجر أقل مما يؤجر الرجل ، حتى في العمل الذي تتقنه أكثر مما يتقنه الرجل ؛ وحصول المرأة على ستين في المائة مما يحصل عليه الرجل معناه في حقيقة الأمر أنها تستمتع بستين في المائة مما يستمتع به الرجل من قوت وحرية وتقدير للنفس ؛ وإن الفتيات منذ اليوم الأول الذي يزاوأن فيه العمل ليعتدن لهذا الوضع الدنىء بالنسبة إلى إخوانهن الفتيان ، دون أن يبدن شيئا من

الضجر ، ولأنهن قد قبلن على أنفسهن هذا تراهن في صنوف كثيرة من العمل قد استبدلن بالرجال ؛ والواقع أنهن لم يطردن الرجال من أعمالهم ليحلن محلهم — فقوانين النقابات تمنع حدوث ذلك بوجه العموم — ولكنهن خرجن بالصناعات المنزلية كالحياكة والطهي وغسل الملابس ، من جهة ، ومن جهة أخرى فقد تحولت بعض الصناعات الدقيقة التي كانت من نصيب الرجل ، فأصبح كل ما يطلب لها من مهارة هو في إدارة آلات تستطيع أن تديرها الفتيات ؛ ومن الجائز أن ذلك لم يكن ليحدث لولا أن أجر المرأة أدنى قدرًا من أجر الرجل وإنه ليحتمل أن تزداد مشكلة النسبة بين أجور الفريقين حدة في المستقبل ، إذ كلا الرجل العامل والمرأة العاملة يقبلان اليوم عن رضا هذه النظرية بأن من حق الرجل أن يتقاضى أكثر مما تتقاضاه المرأة ، لأنه أقدر منها ولأنه مفروض أن يكون للمرأة حامياً ؛ ولكي يحافظ الرجل على مستوى معيشته ، لا يلجأ إلى مقاومة منافسة المرأة إياه بقلة أجرها ، بل يكتفي بأن يوصد دونها هذا الميدان أو ذلك من ميادين العمل لينفرد به ، فكانت النتيجة أن استتوت المرأة على الصناعات الجديدة — كأعمال الكهرباء التي تتصل بأجهزة اللاسلكي — لا يكاد يشركها فيها الرجل ، وهذا فضلا عن أن كثيراً من الصناعات القديمة الدقيقة تسير في أطراد نحو التغير فيصبح أداؤه على النحو الجديد من نصيب المرأة ؛ ولو سار الأمر في هذا الطريق شوطاً بعيداً ، لحان يوم ترفض فيه النساء هذا التفريق في الأجور الذي نراه اليوم ، بل لعله يحين يوم يلح فيه الرجل في المطالبة بمساواة الأجر بين الجنسين ، وإن حدث هذا فقد يكون عاملاً على وقف تيار استخدام المرأة المتزايد مدى حين ، ولو أنه في النهاية سيؤدي إلى زيادة نسبة النساء في الأعمال التي تتطلب مهارة ، ممن يعتزم منهن أن تنصرف إلى عملها مدى الحياة غير راغبة في زواج .

والأساس الذى بنيت عليه الرغبة فى الخط من أجور النساء بالنسبة إلى أجور الرجال هو التقليد العتيق القائل بأن الرجل من واجباته « أن يرعى أسرته » ، وهذا هو ما تحتج به نقابات العمال حين تحول المرأة دون صنوف الأعمال ذات الأجور العالية ، ولكن الصناعة الحديثة لا تدرى شيئاً ، ولا تستطيع أن تدرى شيئاً من أمر زواج العمال ، فى تحديد الأجور ؛ فلو أن مصنعا اضطر إلى التمييز بين المتزوجين والعزاب من عماله ، فيرفع أجر العامل إذا ما بدله أن يتأهل ثم يزيد من أجره كلما أضافت إليه الزوجة ابناً إلى أبنائه ، لكان بدهيا فى هذا العالم الذى يقوم على التنافس أن يقصر المصنع أعماله على العزاب الذين لا يرجي لهم أن يتزوجوا ، وإن لم يفعل تردى فى هوة الإفلاس بعد حين قصير ؛ فالحالة على صورتها الراهنة ، إنما جاءت نتيجة ملائمة بعض الملاءمة للظروف الاجتماعية التى تضطر الرجال إلى الزواج ، ماداموا قد انساخوا من أسرهم وانخرطوا فى سلك العمل ؛ فالرجل الراشد العادى فى إحدى النقابات الصناعية مفروض أنه رب أسرة أو أنه سيكون كذلك يوماً ، ولذا تراه يسعى جهده أن تحول النقابة دون منافسة الفتاة إياه بما تؤديه من عمل أقل جودة من عمله ، كما تحول بين الفتاة وبين أن تشق لنفسها طريقاً لتقف معه على قدم المساواة فى المطالبة بأداء الأعمال الدقيقة خشية أن تسبقه فى هذا المضمار ؛ والواقع أن المرأة الآن تهدد الرجل بالخطر الأول ، ولكنها حتى اليوم لم تبد من الجهود إلا قليلاً نحو بلوغ الغاية الثانية ؛ وما يزال الرجل يسعى مطالباً أن يظل أجره عالياً ليتمكن من « رعاية زوجته » .

ولطالما أشارت الصحافة الإنجليزية إلى أن سبباً خطيراً من أسباب البطالة إنما يرجع إلى أن النساء ينافسن الرجال فيحلان محلهم فى أعمالهم ، ولكن ذلك

زعم باطل ، نعم بينما يزداد عدد المشتغلين من الرجال فإن زيادة العاملات من النساء تسير أسرع خطًى ، ولسكنها زيادة ، إن تكن ملحوظة ، فليست بعيدة المدى ، فمجموع الفرق بين عدد النساء العاملات سنة ١٩٢٣ ، وبينه سنة ١٩٣٠ يدل على زيادة مطردة فيمن استُخدمنَ في الصناعات التي يشملها قانون التأمين ضد البطالة في إنجلترا ، إذ يبلغ شيئاً يتراوح بين أقل من ثلاثة ملايين قايلاً ، وثلاثة ملايين ونصف مليون ، ولو أن نسبة الأجور فيما قبل الحرب ظلت قائمة إلى اليوم لزاد عدد المشتغلين من الرجال بما يقرب من مائة ألف عامل ، ولتقص عدد النساء العاملات بعدد كهذا ؛ هذا هو كل الفرق ، فإن شطراً عظيماً من زيادة النساء العاملات في الصناعة لا علاقة له قطعاً بتعطّل الرجال ، بل هو انتقال النساء من الحياة المنزلية إلى الحياة الصناعية ، وسببُه أن العمل الذي كانت تنجزه المرأة بين جدران دارها ، كغسل الملابس والحياكة والخَبز وإعداد الغداء وموائد الشاي ، باتت تؤديه خارج حدود الدار ، هذا إلى جانب قلة في الأطفال قلّت بسببها الحاجة إلى المربيات ، حتى نقص عدد خادِمات المنازل في إنجلترا ربع مليون سنة ١٩٢١ عما كانت عليه عام ١٩١١ ؛ وفضلاً عن هذا كله فلا يمكن أن تُعدّ المرأة مسئولة عن بطالة الرجال في الأعمال الشاقة التي لا تنافسهم فيها ، مع أن البطالة في هذا الضرب من الأعمال في إنجلترا أكثر منها في الجوانب الأخرى .

وبناء على ذلك نستطيع أن نرفض الرأي القائل بأن دخول النساء في الصناعة كان سبباً له أثره في البطالة بين الرجال . إن من تقاليد المرأة التي ورثتها منذ أجيال بعيدة أن تتطلع إلى رجل يحميها ويعولها ، والواقع أن ذلك ما لا يزال رجوه تسعة وتسعون في كل مائة من النساء ، ولا تستثن منهن أرقى طبقاتهن ؛

نعم إن المرأة العصرية تحب أن تتحرر من كل القيود ، وأن تملك بنفسها زمام نفسها ، ولكنها تتبين في معظم الحالات أن رجاءها ذلك أقرب إلى التحقيق من الوجهة العملية على حساب إنسان آخر . ولعل أهم ما ينبغي أن نتوجه إليه بالبحث في حالة النساء في الظروف الحديثة ، هو هذه الجموع الفقيرة من الرجال المتعطلين الذين يبدون اليوم في كل الأمم المتقدمة ، وليس لهم من قوة الكسب إلا قليل ، أو قد لا يكون لهم منها شيء ، وبيننا هم في كسادهم هذا ، فإن الغريزة والتقليد يتآمران على كثرتهم الغالبة ، فيتمنون أن تكون لهم زوجات يرعونهن ؛ ولكن شطراً عظيماً من هؤلاء المتعطلين قد تبين في يقين أنه عاجز كل العجز عن تربية الأبناء ، وكذلك فإن فئة تطرد في الزيادة من العمال الذكور ، عمال المصانع الآلية وعمال الصناعة اليدوية على السواء ، تضطر إلى الإقدام على الزواج بعد تعاقد الطرفين على اجتناب النسل ، وهكذا تزداد عقود الزواج الذي لا يقصد إلى إنتاج البنين زيادة مطردة ، فنشأ ضرب جديد من الزواج ونشأت دار جديدة ، يزدادان في خطى وثيدة وطيدة ، وهو زواج لا يعقب ضخيم الأبناء ، ولكنه في الوقت نفسه يستتبع وجود امرأة في حالة من الفراغ الخطر ، وما يلبث فراغها هذا أن يصبح مشكلة خطيرة من مشكلات المجتمع ، فهي تشعر بعث حياتها بالقياس إلى ذكائها ؛ ويقوم إلى جانب هذا الزواج العقيم عدد من العوانس يزداد على مر الأيام ، يعلن أنفسهن بما يكسبن من أجور ، كما ترى من جهة أخرى عدداً يتزايد من الرجال يشغلون من ضروب الأعمال وبتقاضون من الأجور ما لا يمكنهم من الإنفاق على زوجة بغير أبناء .

الطبقة التي لا جنس لها من الوجهة الاجتماعية

إن هذا اللون من الحياة الذي يتخذ العقم عن قصد ، قديم العهد . ففي فرنسا مثلا ، كانت العادة في عدد كبير من بيوت الطبقة الوسطى منذ زمن بعيد ، أن تستخدم الرجل وزوجته ، وغالبا ما يكونان في سن الشباب اليافع ، على شريطة ألا يعقبا نسلا ، وكان هذا الشرط موضع المراقبة الدقيقة ؛ أضف إلى ذلك بعض الوظائف ، كالمعاونة في متجر ، لبثت مائة عام أو يزيد ، تفرض العزوبة من الوجهة العملية على أغلب من يشتغلون بها ؛ ولكن إن كان التاريخ قد شهد تلك الضروب من الحياة الزوجية العقيمة ، إلا أنه لم يرق قبل هذا العهد المراه التي تعمل نفسها بنفسها — إذا استثنينا الشواذ — فهي عمليا وليدة هذا العصر ؛ وما هو أكثر من هذا دلالة على روح العصر هو هذه الزيادة السريعة ، والانتشار الفسيح المدى ، لهذه الأنماط من الحياة التي كانت تعد من قبل ألوانا شاذة عن العرف المألوف ، أعني أنماط الحياة التي لا تفيد المجتمع من الوجهة التناسلية ؛ ولقد كانت هنالك طبقة فقيرة من الناس في العهد الروماني لم تكن تنتج للأمة إلا أطفالا ، أما هذه الأنماط الجديدة من الحياة فتكون على نقيض تلك ، إذ لا تضيف إلى الأمة إلا قليلا من الأبناء ، أو لا تضيف إليها من الأبناء شيئا .

فهذه المدنية الآلية التي تظللنا إنما تنتج أفرادا يتزايد عددهم تدريجا ، ليس لحياتهم الجنسية خطر من الوجهة الاجتماعية على الإطلاق ؛ ولكن لا أقصد بهذا أنهم لا يتبادلون الحب أو أنهم لا يحبون حياة جنسية تامة من حيث العواطف وإشباع الحس ، فكثير من هؤلاء الأفراد يحبون هذه الحياة الجنسية ، ولكن هذا الجانب من حياتهم لا ينتج النتائج التي تهر للمجتمع أن يفرض أى لون من

ألوان الرقابة على الحياة الجنسية ، فهم من وجهة نظر بيلجية لا جنس لهم (أى) لا هم بالذكور ولا هم بالإناث) كفعلة النمل .

وسنعالج في الباب الثالث عشر^(١) أهم عناصر مشكلة السكان ، وسيوضح في جلاء بعد ذلك البحث ، الاحتمال القوي بأن هذه الطائفة الكبيرة ممن لا جنس لهم في النوع الإنساني ستزداد عما هي اليوم ؛ وربما يكون قد دنا اليوم الذى لا ينتج النسل فيه إلا نصفُ أو ثلثُ الراشدين والراشدات في أرجاء العالم . والاستغلال الاقتصادي والاجتماعي لنساء هذه الطبقة العديمة الجنس يكونون مشكلة أخطر جدا من مشكلة رجالها ، وذلك لأن جانب التناسل (وليس ذلك معناه مجرد الجانب الجنسي) من الحياة أهم جدا في فريق النساء منه في فريق الرجال ؛ ولكن فشل المرأة هذا وتعذر وجود عمل لها خارج جدران بيتها لا يبدو بكل خطره اليوم ، لأن العالم منصرف بنظره إلى ما هو أفدح من ذلك ، من المشكلات الاقتصادية والسياسية التي تسد في وجهه الطريق ، فإذا جاء يوم تنقشع عن عيني العالم هذه المشكلات طُفَّتْ على السطح مسألة المرأة وجذبت إليها الأنظار ؛ فلئن كانت نسبة الزيادة في استخدام النساء أكثر منها في استخدام الرجال ظاهرة خطيرة تهدد ببناء المجتمع في هذا العصر ، فهناك ظاهرة أشد جدا في خطرها ، وهي أن هذا العدد القليل من النساء اللاتي يعشن الآن معتمدات على أزواجهن ولو أنهن بدبرن العقم ، يجاهدن ليظفرن باستقلال اقتصادي واجتماعي .

(١) هو فصل عقده مؤلف هذا الكتاب ليحلل فيه الطوائف التي يتألف منها سكان الأرض .

٣ - الاختلاف الفطرى فى الصفات الجسمية والعقلية

بين الرجال والنساء

إن الكاتب لا يستطيع أن يتبين كم تبلغ هذه المؤلفات الكثيرة التى كتبت فى موضوع ما بين الرجل والمرأة من فوارق ، كم تبلغ هذه المؤلفات من الغموض والتفاهة والعبث ، إلا إذا أخذ نفسه على نحو جدى بتلخيص ما جاء فيها ، عندئذ يتبين له وادياً فسيحاً دفيناً مرطوباً أعتمه ما لَفَّه من ضباب ، وإنه لو ادّعى فصل بين العلم والأدب ، وقد غُصَّ بأحراش كثيفة من الدعاوى التى تنتحل لنفسها خطراً هى خلو منه ؛ فليست مهمة الكاتب هنا أن يلخص بقدر ما هى أن يظهر هذه الأعشاب ويطمس ألوف المجلدات التى تذرعت بقناع من المناقشات العامة ، وغايتها الوحيدة أن تعبر عما يدور برءوس كتابها من أوهام وآمال ، بل إن ما اصطبع منها بصبغة علمية عميقة ، ترى مادته أقرب إلى أن تكون سلسلة من الإشارات العرضية منها إلى ثبت يسجل نتائج الملاحظة الدقيقة .

إن أخذاً لم يحاول حتى اليوم محاولة جدية حقاً أن يحصر فى دائرة ضيقة هذه النزعة الشخصية القوية التى تؤثر فى التفكير عند النظر فى هذا الموضوع ، بل إن أحداً حتى اليوم لم يحاول أن يضع فى اعتباره اختلاف الباحثين فى طبيعة هذه النزعة الشخصية ومقدارها اختلافاً يتوقف على اختلاف المرحلة من الدورة الجنسية التى تكون عندها حياة الباحث عند بحثه ؛ ولقد خلطوا جميعاً فى غير دقة بين ما ورثته المرأة وما كسبته من الصفات ، ولم يقنعه منهم أحد لما بين أفراد الجنس البشرى وأنماطه من ضروب التباين ، ولم يدخل أحد منهم فى حسابه ما يؤدى إليه اختلاف السن من اختلاف فى وجهة النظر ؛ فليس إلى الشك

من سبيل في أن المرأة البنغالية ، والمرأة في بتاجونيا ، وصائدة السمك الفتاة في الترويج ، والمرأة من قبيلة الهوتنتوت ، لكل من هؤلاء ما يميزها من زميلها الغنى ، وما بينهما من فروق بعضه فطرى وبعضه مكتسب ، على أن الفوارق ، مكسوبة وموهوبة ، التي تفصل بين المرأة والرجل في بنغال ليست هي التي تفرق بين المرأة والرجل في بلاد الترويج ؛ أضف إلى هذا أن المرأة تتبدل حالها كلما قطعت شوطا من فلك حياتها — شأنها في ذلك شأن الرجل — وإن هذا التغير يختلف باختلاف جنسها بين أجناس البشر .

ولكن ما ألفت من السكتب في موضوع الجنس يكاد يجمع كله على أن هذه الفوارق ، إن لم تكن واحدة في مختلف الجهات ، فهي على أقل تقدير من طبيعة واحدة ، فترى الناس يكتبون عن صفات « الرجولة » و « الأنوثة » ، ويصفون الرجال والنساء كما هم الآن وكما سيكونون في مقبل الأيام ، غير حافلين بما بين أفراد المجموعة الواحدة من خلاف في النشأة وفي السن ، وكل ما نستطيع أن أن نستخلصه بصفة عامة من هذه « البحوث » هو أن المقصود من كلمة « رجل » ذكر من الطبقة المتوسطة وله حظ من التعليم ، وأنه فرد من مجتمع أوربي أو أمريكي ، تدور سنه حول الأربعين ؛ وأن المقصود من لفظ « امرأة » أنثى من هذه الطبقة الاجتماعية نفسها ، ولها من العمر ما بين العشرين والخامسة والثلاثين ؛ وعن هذين تحبب الأعلام في أبحاثها خطاً لا دقة فيه .

وليس واجبنا الآن أن نضيف مادة جديدة إلى هذه السكتب المؤلفة التي بلغت من السكثرة حدا فاحشا ، ولا تحوى إلا إثارة لحفيظة أو بسطا لشكاة ، ولسكناسفلترم ألا نثبت هنا إلا حقائق القضية كما هي ، في إيجاز ووضوح ما استطعنا إلى ذلك سبيلا لنتم الصورة التي قصدنا إلى رسمها ، أما ما ليس من تلك الحقائق

المادية بسبيل فليس يعيننا الآن أكثر مما تعيننا — قصائد الحب .
ونحب أن نضيف إلى هنا بعض ملاحظات على المشكلة التي أشرنا إليها فيما سبق
وهي ما بين الجنسين من فارق في تركيب الجسد ؛ فإنه فضلا عما بين جنسى البشر
من فوارق في أعضاء التناسل الفعلية ، فإننا نلاحظ أن الحوض عند المرأة أكبر
في نسبته إلى الجسم منه عند الرجل ، وأن الأجزاء العليا من الساقين تختلف
في تركيبها عند الجنسين ، وأن المرأة في تنفسها تجذب الأنفاس من أضلاع الصدر
أكثر مما تجذبها من جوفها على خلاف الرجل في ذلك ، وفوق ذلك فإن البنية
كلها أرق منها عند الرجل وأشد ليذا ولطفا ، وعلى الرغم من أن هذه الفوارق
تختلف قوة أو ضعفا باختلاف أجناس البشر ، ولكنها تشاهد دائما على هذا النحو
ولا يشاهد العكس ؛ وكذلك نرى أن الذكر الكامل النمو في الجنس البشرى ،
كما هي الحال في سائر ضروب الحيوان الأعلى ، أثقل وزنا من الأنثى الكاملة
النمو ؛ هذه مواضع اختلاف بين الجنسين لا تحتل الجدل ، ولكن خفة جسم
الأنثى ورقته بالنسبة إلى جسم الرجل تمتدان فتشملان الرأس والعنق والمخ ؛ على
أن شقة الخلاف أقل بعدا في الإنسان منها في الغوريلا ، وإن تكن هذه الفروق
كلها معرضة فيما يظهر إلى المبالغة بحكم العادة وظروف المجتمع .

إن الحياة البشرية على طبيعتها مليئة بالمفارقات كما لاحظ مِثْسْنِيكوف منذ
أمد بعيد في كتابه « طبيعة الإنسان » . فأنثى البشر صالحة للقاء الجنس وتحرُّك
الغريزة قبل أن تبلغ سنا تتيح لها أن تحمل الأجنة أوفى ما يكون الحمل ، بعشر
سنوات ، ويمكن أن يفرض عليها اللقاء الجنسي فرضا رغم إرادتها ، ولا يشاركها
في هذا الجانب إناث الحيوان إلا عدد قليل جدا ، فهي لا تستطيع المقاومة
بمعنى أن يكون للمقاومة أثر عملي من حيث الإنتاج ، وإنك تشاهد في كثير

من الجماعات المتوحشة البدائية بل من الجماعات المتحضرة ، أن نمو عدد كبير من النساء نموا كاملا يحال دونه إلى حد بعيد بإرغام النساء على هذا النحو على الوظيفة الجنسية قبل حينها الملائم ، بل إنهن في حقيقة الأمر لا ينمون في كثير ولا قليل ، إذ لا يوشكن أن يأخذن في حياتهن الجنسية حتى ينصرف مجرى النشاط الحيوى فيهن إلى الأجنة في أجوافهن ؛ فإن لم يتزوجن صغارا لا يتزوجن قطعاً فيصينهن بذلك ما نستطيع أن نعدّه ضرباً آخر من ضروب النمو الموقوف . وأما الحياة الجنسية عند الرجل فهي فيما يظهر أقوى عاطفة وأشدّ عنفاً منها عند المرأة ، ولكنها إلى جانب ذلك أسرع زوالاً وأقلّ دواماً من حياة المرأة الجنسية ، لأنه إذا ما ثارت فيه عاصفة الجنس ثم هدأت خلس من إلحاح الدافع حيناً ما ، واستأنف ما كان ماضياً فيه من عمل ، وإذن فالفرصة أمامه أفسح مجالاً ليبلغ بنفسه حد النضوج ما مكنته من ذلك قوته الذاتية وملكاتة المفطورة .

إن هذه الفروق الأساسية وهذا الحرمان الذى فرضته الطبيعة على المرأة قد أحيط بحكم العادات والتقاليد فى سائر الجماعات الإنسانية بشيء كثير من الغموض والاضطراب والمبالغة ، فلسنا ندرى فى شيء من الدقة ، قليلاً أو كثيراً عن الميل الجنسى « الطبيعى » عند الرجل أو عند المرأة فى أية مرحلة من مراحل النمو ، ولقد ظلت حقيقة الأمر خافية عن الأبصار بما أسدل حولها من ستور كشف حتى بلغ الظن بالناس فى انجلترا وأمرىكا الشمالية ، مثلاً ، أن كثرة النساء الغالبة « باردة » — كما يذهب القول فى الأفواه ، — ويقصدون بذلك أنهن خاليات من حدة الرغبات الجنسية — وأن القليلات منهن اللاتى ينشدن متعة الجنس شاذات حقّ عليهن اللوم ؛ ولبت هذا الظن قائماً حتى عهد قريب لا يعدو أعواماً قلائل ، فقد كان يسود ذلك الزعم حين كانت المرأة راسفة فى قيودها ، فلم يكن

إلا دليلاً مكبراً ينم عن اتجاه عقلى يكاد يشمل العالم أجمع ؛ ولكن ذلك رأى لم يكن يؤيده إلا أنه تقليد تواضع الناس عليه ، فلم تكدر ترتفع الحوائل على اختلافها من وجه المرأة وينكشف عن السر غطاؤه ، حتى أخذت العقول تنبذ هذا القول ببرودة المرأة ، وبدأ أن كثيراً جداً من النساء هن ما للرجل من إحساس جنسى وسهولة استثارة ، إن لم يكن أشد منه فى ذلك وأسرع ، وإنما الفرق بين شهوات الجنسين هو فى مدة دوامها لا فى نوعها .

ومع ذلك فقد لا تكون هذه الملاحظات من الصدق ، بحيث لا يتطرق إليها الفساد ، إذ قد تكون هذه الرغبة النسوية التى نشاهدها ناشئة عن رد فعل جاء بعد تحرر المرأة مما كان يفدحها من القيود ، ونتيجة لما أوتيته المرأة من فرص جديدة انفسحت أمامها ، وآراء جديدة أوحى إليها بها الموقف الجديد ؛ وبديهي أننا لن نستطيع أن نصدر فى أحكامنا فى موضوع التربية وفى بعض أسس الحياة الاجتماعية عن رأى مقطوع بصحته ، إلا إذا ظفرنا فى هذا الموضوع بعلم أكثر دقة مما حصلنا ، أقول إنه بغير هذا العلم الدقيق فى موضوع المرأة لن نستطيع أن نجزم برأى صحيح فى موضوع التربية أو فى بعض أساس الحياة الاجتماعية — مثال ذلك موقف المجتمع حيال الساقطات من النساء — وإلى أن نظفر بالعلم الصحيح عن المرأة ، ينبغى أن يظل تقديرنا للخير والشر فى سلوك الإنسان تقديراً غير مقطوع به فى كثير من نواحيه .

ولكننا إن لم نستطع الجزم بصحة القول ، فلنا أن نقرر على الأقل بأنه مما يبدو واضحاً أن النساء أكثر من الرجال روية فى الاختيار فى حياتهن الجنسية ، وأنهن أيسر من الرجال خضوعاً لضبط النفس ، إذ الحياة الجنسية فى الرجل العادى أشد مقاومة للرقابة وأعنف اندفاعاً لتحقيق غايتها ، ومع ذلك فإن

كان الرجل أميل من المرأة إعلاناً للشهوة على القيود الخلقية ، وأسرع منها انحذاراً إلى إشباع شهواته الوضيعة الخبيثة الوحشة التي يفقات بها على بناء المجتمع ، فإن دوافع المرأة اللاشعورية إلى مثل هذه الحياة قد تنقلب في آخر الأمر أعمق أثراً وأبلغ سقوطاً ، وإن تكن أبطأ ظهوراً منها عند الرجل ؛ فما يكفي لتقويم الرجل من الملاذ الساذجة لا يجدى في تقويم المرأة ؛ ومن الحقائق التي نعلمها كذلك أن أصحاب الرأي طالما ذهب بهم الظن إلى إمكان الفصل بين الأبوة والأمومة وبين الروابط الجنسية ، فصلا في الذهن لا في الحياة العملية ، ولكن هانحن أولاء نرى هذا الإمكان يمتد من الفكر إلى العمل في هذا العصر ؛ نعم إن الأخلاق التقليدية تقاوم هذا الفصل ، ولكن الآراء الحديثة جادة في تغيير هذه الوجهة من النظر ، فنرى كثيرين اليوم يزعمون — يزعمون فقط ، ولا يؤيدون الزعم بالبرهان — أن الشطر الأعظم من حياة البلوغ لا تتوفر فيه صحة العقل والبدن إلا إذا أخذت العلائق الجنسية مجراها من الإثارة والإشباع ، وأن تلك الحياة العاطفية التي لا غنى عنها لا تتضمن بالضرورة أبوة أو أمومة ، ولقد باتت للمرأة التي تكسب قوتها بنفسها تقرب جدا في حياتها الجنسية ، إذا هي أخذت في سلوكها بمثل هذا الرأي ، من الحياة الجنسية لرجل يعيش في ظروف تماثل ظروفها ؛ حقا إن المرأة تعاني اليوم صراعا مع التقاليد أعنف مما يلاقى الرجل ، وفي غير هذا الاختلاف لا تجد بين الاثنين أى وجه من وجوه التباين الهامة .

وحتى هذا اليوم لم يستطع علماء وظائف الأعضاء والنفس أن يمدانا في مثل هذه المشكلات بعلم واضح وثيق أكيد ، إذا استثنينا حالات نادرة ، مع أن ذلك ما ينبغي أن يعمل به ، وما هما راغبان في تحقيقه الآن بغير شك . ومهما يكن من الأمر فلسنا نجد اليوم بين أيدينا إلا أقوالا لا تعالج القضية إلا من حيث

قشورها الظاهرة كما تبدو للعين ، وإلا حدسا وأحكاما يشوبها الهوى ؛ فواضح أننا حينما نتناول بالبحث علائق الرجال بالنساء فإنما نعالج مادة عقلية مرنة يمكن صيغها في صور مختلف ألوانها ، باختلاف الرأي والقانون والعادة والدواعي العرضية ، ولكن ليس في مقدورنا حتى الآن أن نقرر في يقين مدى تلك المرونة وشروطها وإنه ليلوح على وجه الجملة أن الجنسين يسيران سيرا حثيثا نحو تشابه في صفاتهما وظروفهما تشابها يستوقف النظر ، فالنساء يكسبن حرياتهن ، ويوسعن مدى حياتهن ، بينما يفقد الرجال امتيازاتهم وسلطانهم وما لأشخاصهم من نفوذ ، ولكن ليس ذلك معناه أن يسير الجنسان في هذا التشابه سيرا مطلقا ، حتى يفتكس الإنسان إلى طور الرنكة فتتجلى كل الصفات الثانوية التي تميز جنسا من جنس ، إذ قد يوائم الرجال والنساء أنفسهم لمتفق وهذه الظروف المستحدثة المطردة ، مع احتفاظهم ، بل مضاعفتهم ، لبعض صفات معينة تفرق الذكورة من الأنوثة ؛ وقد تنشأ ضروب من الأعمال مختلف ألوانها تشيع في الناس بدل الذي جرى به التقليد من قسمة العمل شطرين ، لكل جنس من الجنسين شطر بعينه ، وليس من شأننا في هذا البحث أن نطرق موضوع الحياة الجنسية الخاصة ، ولكن ما يعيننا هو أن نتتبع دور المرأة في الحياة في مختلف ألوانه ، مما يؤثر في مجرى الحياتين الاجتماعية والاقتصادية بصفة عامة .

٤ - الأمومة واعتماد النساء على الرجال بسببها

إن حياة الحيوان الثديي العادي ، بما في ذلك الأنماط البشرية البدائية فنازلا ، تكاد تستنفد كلها في النمو والنوم والتشمس والبحث عن القوت والتناسل ، ففي ذلك وحده تمضي الأيام تلو الأيام ، وقد امتدت هذه الظاهرة إلى عصرنا

الذى نعيش بين ظهرائيه ، فشملت أفراد الطبقة الدنيا على النحو الذى شملت به أسلافنا الأوائل مما هو دون الإنسان فى مراتب الحياة ؛ فقد كان هؤلاء الطعام يكدحون و يتزوجون وينشئون الأبناء ، ولم يبق لهم من حياتهم شئ ، إذ لا يكادون يفرغون من إنشاء الأسرة ويهيئون لها أسباب العيش حتى تكون أعمارهم قد دنت من آجالها .

هكذا كان الرجال والنساء يندفعون بقوة العادة وضرورة الحياة اليومية إلى العمل من المهاد إلى اللجود ؛ ولما كانت مواليد الإناث مساوية على وجه الإجمال لمواليد الذكور ، فقد كانت صورة الزواج العادية هى اكتفاء الرجل بزوجة واحدة ، وإن يكن تعدد الزوجات قد فرض فى بعض الحالات فرضاً حين يحدث أن تسيطر جماعة من الرؤساء ومن إليهم فتحتمل لأنفسها عددا من النساء أكثر من نصيبها ، وقد كان يُعوَّض هذا الرجحان فى ناحية تعرَّض الذكور إلى الموت العنيف ، وضعف مقاومة الرجل لكثير من الأمراض إذا قيس بمقاومة النساء (نسبة النساء إلى الرجال فى غربى أوروبا تقرب أن تكون واحدا وعشرين امرأة إلى عشرين رجلا) .

لهذا شاعت فى أرجاء العالم كله طريقة واحدة فى تقسيم العمل أمثلتها البداهة (مع شئ من الاختلاف بين الأمم فى وجهة النظر وفى ضروب من التباين اليسير) فتعرَّض الأنثى للحمل الحين بعد الحين ، وحاجة الصغار إلى الحماية ، قد اقتضيا بطبيعة الحال وملاءمة الظروف ، أن يتولى الرجل ما يتطلب قدراً أكبر من الجهد والنشاط والمغامرة فى صيد القوت أو إنتاجه ، وأن تقبع المرأة فى الدار لترعى ولتطهى الطعام وتستقر بين صغارها ، وعلى أساس هذه الضرورات الملزمة (التي لم تعد ضرورات فى هذا العصر) قام التقليد الذى يجعل المرأة كلاً على الرجل .

ولسكن واجب رعاية الأطفال يقع على كاهل الرجل كما يقع على المرأة سواء بسواء ، فهو واجب ألقته الحياة عليهما معاً ، فالرجل الاجتماعى فى صورته الطبيعية كما يبدو فى طوائف المزارعين ، يعين الزوجة والأبناء بما يقدم لهم من خير ، ويتصدى لتبعة تسيئتهم ، ولكنه إلى جانب ذلك طاغية يختص نفسه بالسلطان فهو سيد الدار وهى قرينته . وإنك لترى صنوف الحيوان الثديى كلها ، وصنوف الطير التى جبلت على حضانة بيضها ، تضجى بكثير من حرياتنا الخاصة فى سبيل تربية صغارها وتهيئة السعادة لها ؛ ولكن الإنسان أعظم تضحية من هذه كلها وأطول أمداً فى بذلها ، لأن صغاره تحتاج مثل هذه لرعاية الطويلة ، والمرأة فى ذلك أعظم تضحية من الرجل ، ولقد رضيت على كره العصور بزعامته مضطرة ، فإن لم يكن هذا الإذعان لزعامه الرجل جزءاً من طبيعتها الموروثة ، فلقد تأصات جذوره فى نفسها بقوة العرف تأصلاً يكاد يستعصى على الزوال .

وهذا الذى تواضع عليه الناس من الإجحاف بالمرأة فى قسمة العمل المنزلى بين الزوجين ، مضافاً إلى حملها الأجنة قبل أن تعدها الطبيعة لذلك ، وما تعانیه فى تربية أبنائها ، قد أفنى السكثرة الغالبة من النساء قبل فناء أزواجهن ؛ فقد كانت المرأة فيما مضى تشيخ أسرع من الرجل ، وهى لا تزال كذلك فى البلاد التى تسود فيها صور الحياة العتيقة ؛ وكان الرجل دائماً النزوع إلى أن يُلاحق بزواجه الأول زوجات فى سن الشباب ، ما مكنته قوته وسطوته من ذلك ؛ وقد دامت هذه النزعة للملحة ألوفاً وألوفاً من السنين ، تميل بأشداء الرجال وأقربائهم إلى تعدد الزوجات ، فطوراً تستعلن هذه الرغبة وتفرض نفسها فرضاً كما هى الحال فى أفريقيا السوداء وفى كثير من أمم الشرق ، وطوراً تسعى فى خفاء متسترة من نظم المجتمع القائمة ، لتحطم تفرد الزوجة الذى يأخذ به أوساط الرجال والنساء

والذى بات عادة مُلزمة . وأما تعدد الأزواج لامرأة واحدة فهو نادر الوقوع في بلاد التبت ، ومع ذلك فهو أقرب إلى الإخاء في اقتسام النساء عما يقابله من تعدد الزوجات الذى يفرضه ذوو السلطان من الرجال ؛ ومن الحق أن نقول إن النساء حين بُسِطَ لهن في القوة وأُفسِحَ لهن في مجال الفرصة — مثل كاترين الثانية إمبراطورة روسيا — قد بدَوْنَ راغبات في هذا الزواج المتعدد ، شأنهن في ذلك شأن الرجال سواء بسواء ، ولكنها حالات نادرة ؛ وهذا يسوقنا إلى موضوع البغاء ولسكنا نرجئه إلى حين لنتناوله بالبحث فيما بعد ؛ وكل هذه الأمثلة الشاذة لا تغير كثيراً من الحقيقة بأن الأمومة كانت حائلاً منيعاً في وجه المرأة اضطرها اضطراً إلى التواكل على الرجل وإلى ضعف حيلتها في الدفاع عن نفسها ، حتى رسخت هذه الأصول في تقاليدنا الاجتماعية رسوخاً يكاد يتعذر على الزوال .

أما اليوم فإن في البلاد التى تظللها حضارة المحيط الأطلسى طائفة من الظروف تتأمر على تحوير ، بل تحطيم كل هذه الأسس التى قام التقليد على أساسها ، تحطيماً سريعاً . وأهم العوامل التى شاطرت في هذا التحطيم هي : أولاً تحديد النسل وقلة وفيات الأطفال بالوسائل الصحية ، فذلك قد جعل أمومة المرأة أمومة جثمانية لا تعدو أعواماً قلائل في حياتها النسوية ؛ وثانياً نشر التعليم وتحويل معظم المرافق المنزلية إلى خدمات عامة تقضى خارج الدار ؛ وثالثاً قيام القانون ورجال الشرطة مقام الرجل في واجب حماية المرأة . وهكذا كادت تفجأ المرأة بهذا التحرر من قيودها والتعرض لما يأتى به الدهر ، ومع ذلك فالتقليد الذى تعاقبه أجيال لا تقع تحت الحصر ، والذى يحرم المرأة ويكل أمرها إلى الرجل ، لا يزال عالقاً بأذيالها حتى اليوم .

٥ - بعض النتائج الخلقية لما يجري به العرف من انحطاط المرأة وحرمانها
إذعان المرأة ورياؤها - البغاء - تجارة الرقيق الأبيض - « الرقيق »

عاملان رئيسيان هما اللذان يحددان اليوم نوع الحياة التي تحياها المرأة في
أرجاء هذا العالم المتغير الذي نعيش فيه ، أما أولهما فآلى يقع في الرقى الاقتصادى
وما يستتبعه من زوال الأعمال المضنية ، وبخاصة ما كان منها يتطلب السكدح
العنيف ، وإخراج كثير من أهم الأعمال التي كانت فيما مضى نسوية لا تحتمل
الجلد ، من حدود الدار ، لتؤدّى في محال عامة ؛ ولقد عمل هذا الجانب الآلى
على مساواة الجنسين في شؤون الاقتصاد ، وحرر المرأة من حياة كانت تتضمن
انحطاطها دون منزلة الرجل ، ولم يعد بينهما من الفوارق الجسمية إلا قدر هو في
طريقه إلى أن يكون اختلافاً أفقياً ، أعنى وجوها من الاختلاف بين الأفراد ،
ولست هي بالفوارق الرأسية التي تقتضى أن يوضع النساء جميعاً دون الرجال
جميعاً أو العكس .

ولسكنا نرى من جهة أخرى كدساً هائلاً من التقاليد لا يزال قوى الأثر
يحفز الرجل أن يتولى أعمال السيادة ذوات التبعة ، ويعزى المرأة بالإذعان
والإفادة ما استطاعت من خضوعها القديم ، بدل الإلحاح في بلوغ النتائج المنطقية
التي تنتج من الظروف الجديدة ، إذ قد تبين أن في مقدورها أن تظفر بمعظم
المزايا التقليدية التي اكتسبتها فيما مضى بانصرافها إلى الأمومة ورعاية الدار ،
مع أنها في حقيقة الأمر قد ألقت عن كاهلها أغلب العبء الذي كانت تعانيه
بسبب انصرافها ذاك ، ووجدت أن ذلك أيسر وأقرب إلى القبول ، لأنها في
مجال العمل وحياة المهن ، سرعان ما تنزو السكبرياء في صدور الرجال الذين

تخالطهم بحكم عملها ، فتكون حرباً عليها ، وبهذا تتعقد في وجهها الأمور كلما أرادت أن تضع نفسها موضع المساواة أو التنافس إزاء الرجل ، حتى إنه ليصبح أشق على المرأة أن تتشبه بالرجال في أعمالهم من أن تكون هي الرجل وتؤدي ما يعملها الرجل (على فرص بقاء سائر الظروف كما هي) ؛ أما انسحابها من ميدان العمل لتستمتع بمزايا النساء دون أن تؤدي عمل النساء ، فيكسبها امتيازات ، كامتيازات « الفرسان » ، بغير مبرر موجب .

إن التقليد القديم يخيل للناس أن من حق الرجل بل من واجبه — حتى لو كان عاجزاً من الوجهة الاقتصادية — أن يظفر بامرأة تكون له خاصة ، وتخضع لسلطانه ، وإنه لشعور بلغ من ذيوعه بين الرجال حداً بعيداً ، وتستطيع أن تتبين فيه تحزباً جنسياً يشبه تحزب الطبقات ، يجمع الرجال جميعاً على رأى واحد ؛ وهنالك إلى جانب هذا مقاومة نفسية واسعة النطاق يبديها الرجال والنساء على السواء ، يهاجمون بها المساواة الاقتصادية التي تسير التغييرات المادية نحو إنتاجها ؛ فالمرأة التي تعمل لتكسب قوتها لا تصادف حسن المعاملة لا من الرجال ولا من النساء ؛ من ذلك أن الهيئات البلدية في إنجلترا تلجأ عادة إلى فصل الطبيبات من أعمالهن إذا تزوجن ، حتى ولو كن يدرن عيادات تتصل بوظائف الأمومة ، أما الطبيب الرجل فله أن يتزوج ، ويتزوج مرة أخرى بعد وفاة زوجته بأجل قصير ، دون أن يكون وراءه هيئة بلدية يعنيها أن تعلم من أمره شيئاً .

ولا يقتصر الأمر في منع المرأة من العمل على حسد يكره أن يرى دَخَائِن ينفدقان في أسرة واحدة ، لأن أحداً لا يعنيه كم دخلاً يكسب الرجل ، وم يرث وم يأتيه عن طريق زواجه ؛ إنما الأمر الذي لا يكاد يصادف القبول

من أحد هو أن يكون للمرأة المكتملة حق في تدبير حياتها الشخصية تدبيراً حراً كما هي الحال مع الرجل ؛ لذلك ترى الناس لا ينتظرون من المرأة إلا أن تنكشف في دائرة أضيق من مجال الرجل ، بل إنهم لا يقفون عند هذا الحد ، إنما تجاوزة فئات كثيرة من الناس فيشعرون أن من حقهم إرغام المرأة على هذه الحياة المتوارية إرغاماً ؛ مع أن تحريم العمل الخارجى على المتزوجات وحبسهن في دورهن ، مضران بالأسرة لأنهما يؤديان إلى مزيج من القلق وركود الذهن عند المرأة ، كما يسىء إلى سمعة النساء في ميدان العمل ؛ فالنساء متهومات في دوائر العمل باضطراب عواطفهن ، وبأنهن يأتين إلى أعمالهن « مزودات بمشاعرهن فيمزجنها بالعمل الذى يؤدينه » ، وبأنهن يعوزهن الطموح وشمول الفكر وعمق النظر ؛ وهذه العوامل التقليدية التى كنا نتحدث عنها قد ضاعف من قوتها أسباب مالية ؛ فرغم كل هذا الحديث الذى تجرى به الألسنة فى تحرير المرأة ، ورغم ما اجتيز من خطوات فسيحة فى سبيل تلك الحرية المشروعة ، فلا تزال كثرة النساء الساحقة فى العالم قاصرة من الوجهة الاقتصادية — فليس هن من المال شىء قط ، بل إن مئات الملايين منهن لا يجوز لهن أن يملكن مالا أو عقاراً غير ما يُزَيَّنَّ أنفسهن به من حلى ؛ فالزوج فى ما يربو على نصف العالم له حق الرقابة على ملك زوجته ، ولا يقتصر هذا على البلاد المتأخرة فى شوط الحضارة ، بل تراه كذلك فى فرنسا وسويسرا والبلجيكا وأسبانيا وولاية فلوريدا ومقاطعة كويبك ، أما فى البلاد التى تميز للزوجة ملكاً ، فإن العرف ، والعقيدة التى يؤمن بها الناس إيماناً قوياً بأن الرجل أمس حاجة إلى المال من المرأة ، يفزع جان بهذا الملك فى الوراثة فيصباها فى أيدي الابن القتى دون الفتاة ؛ وحتى إن أجيء للمرأة فى بعض الأقطار أن تحتفظ بمالها ، فالأرجح أن يظل مالا مربوطاً

بحيث لا يسمح لها أن تستثمر رأس مالها ؛ ولقد مر بنا أن التعاملات
منهن يتقاضين أجوراً أقل مما يتقاضى الرجال العاملون ولو تشابه العمل ؛
إذن فالنساء ، باعتبارهن جنساً ، فقيرات ، إذا ما نظرنا إليهن من وجهة
مالهن الخاص .

ونتأجج هذا الفقر النسبي بعيد المدى ، حتى إنه ليعتذر أن ندرك أين غايتها ؛
فمعناه من ناحية أن النساء على وجه الإجمال لم يبلغن من التعليم حداً يستطعن
معه التصرف بالمال من أى وجه من وجوهه غير الإنفاق ، دون أن يهدين بعد
النظر إلى ما يؤديه المال من شؤون الصناعة والاقتصاد ؛ وكل مجلة أو صحيفة تقع
في أيديهن ، وكل كتاب تقريباً مما يصادفن ، يغريهن بأن يعتبرن أنفسهن
منفقات ، وأن ينظرن إلى أنفسهن كائنات رشيقة جميلة ، أو على الأقل ، رقيقة
التكوين ، وأنه من حقها أن تنفق قدرأ عظيماً من المال لصيانة تلك الرشاقة وذلك
الجمال وهذه الرقة ؛ وعلى ذلك فإن المال إذا ما انصب بين يدي امرأة انصباباً
دافقاً غزيراً ، فالأرجح أن تنقلب إنساناً لا يدرى من أمر المال شيئاً إلا أنه
ينفق في ترفيه حياتها الخاصة وتجميلها — وقد تنفق إلى جانب ذلك إنفاقاً
فاتراً في وجوه الإحسان ومؤازرة الفن والموسيقى — وإن ذلك ليعود عليها من
إعجاب القوم وشكرهم ، ومن ذبوع الصيت على أسنة الصحف ، أكثر مما لو
أنفقت المال على نحو مشعر مفيد .

أما النساء اللاتي لا يملكن من المال شيئاً — أو اللاتي لهن منه أقل مما
لرجال طبقتهم — فتقوم في وجوههن الحوائل عند كل خطوة من خطوات
الطريق ؛ وإذا كنا لا نتوقع أن يكسب النساء بقدر ما يجني الرجال ، فليس
ثمة ما يغري بأن تنفق على تعليم الفتيات كما تنفق على تعليم البنين ؛ نعم إن

الأبوين العاديين في إنجلترا قد يكونان راغبين في أن يضحيا في تعليم بناتهما بقدر ما يضحيان في تعليم أبنائهما الذكور ، ولكن إذا ألزمتها الحال أن يؤثر فريقياً دون فريق ، فالتفكير السليم يقضى باستثمار المال في تربية البنين دون البنات . ودعك من هذا وانظر في مشكلة رأس المال — فالنساء لما منين به عادة من الفقر ليس في مقدورهن أن يبتعن المصانع أو يشاركن في إدارة الأعمال أو يشرين الأوراق المالية والحال التجارية ، بل قضى عليهن أن يظللن مُستخدَمتات ومساعدات وكاتمات للسر ؛ وإنك لشاهد هذا حتى في المهن التي فتحت أبوابها للنساء منذ عهد قريب ، كالطب مثلاً ، إذ ترى طوائف الأطباء تتعاقد على إدارة المؤسسات الطبية ، وتضم إليها من النساء من كملت مؤهلاتها ، على ألا تكون شريكة من الشركاء ، بل يستخدمنها مساعدة لهم وكفى ، لتؤدي من العمل ما يكرهون أدائه ؛ وإن النساء لَيَنْظُرُنَّ إليهن في مثل هذه الوظائف بصفة عامة أنهن أقل كفاءة من الرجال ، وربما عزى هذا إلى قلة أجورهن من ناحية ، وإلى ما في استخدامهن من خطر مغادرتهن العمل عند الزواج ، إن كن في سن الشباب ، من ناحية أخرى ؛ ولقد ينكر مدير العمل بينه وبين نفسه هذا الذي ينسب إلى النساء من ضعف ، ولقد يعترف بأنهن ينجزن عمله كما ينجزه الرجل سواء بسواء ، ولكن ذلك لا يمنعه أن يضع المرأة في منزلة أدنى من منزلة الرجل الذي من ضربها ، بوجه عام .

ونتيجة هذا كله أنه بينما تنهين الروابط التقليدية بين الرجال والنساء ، فإن العلائق الجديدة التي يذيعها المذيعون في قوة لتحل محل القديمة ، لا تسير الحقيقة الاقتصادية الواقعة ؛ فلا يزال الزواج واعتماد النساء على الرجال يغريان المرأة إغراء شديداً بما يقيحان لها من مزايا مالية واجتماعية ؛ فلو استثنيت من النساء

من ورث الغنى ، لوجدت التطرف وأناقة الثياب ورشاقة الحركات أقرب جدا إلى أن تحقق المرأة التوفيق في الحياة من الطموح والعلم والذكاء ، إذ النساء يشتهن أن يكن أمهات وربات للمنازل ، كما يشتهن مغازلة الرجال إياهن ، والسياسة ، وضروب اللهو ، وأسباب التزين ، والسبيل الوحيدة التي يبلغن بها هذه الأمانى هى الرجال الذين يؤثرون عادة أن يهيئوا لهن هذا ، لأسباب تتصل بأشخاصهم وعواطفهم ؛ وإذن فالأرجح أن تكون النساء المتحررات في هذا العصر على شئ من التناقض ، فهن يقدرن الحرية ويطالبن بالمساواة ، ولكن إن لم يرضجن بكل جوانب الحياة الأخرى من أجل هذه الحرية وتلك المساواة ، فما ينبغي أن يصطنعن لأنفسهن هذا التساوى إلا إذا ظفرن بما يشتهن بجدهن ، وإلا لسكان ذلك إجحافا بالرجل الذى يجمع للمرأة ما تريد ، كما كان إجحافا بالمرأة أن يقال فيها ما نسب إليها من صفات - وليس عجيبا أن يكثر الالغط حول ما يصل الجنسين من صلات ، وأن يعلن الفريقان كثيرا من المقت والعداء ؛ ولكن ذلك لم يستمتع زيادة في شقاء الحياة الجنسية ، بل إنه ليلوح على النقيض من ذلك أنه لم تنحصر دائرة الشقاء الجنسي في عصر يمثل ما انحصر فيه اليوم . ومن الجائز أن يقل انحطاط المرأة اقتصاديا عن الرجل ، ولست أريد بذلك أن يزيد مجموع ما يتقاضى النساء من أجور ، فقد لا يكون ذلك بسبب من ينقطعن عن السكسب بعد الزواج ، ولكننى أقصد أن ترتفع منزلة المرأة اقتصاديا ، وأن نفسح أمامها مجال الفرص . ولقد يكون أعسر علينا أن نبحت كيف تتخلص المرأة المتزوجة من هذا الاعتماد على الرجل اعتمادا يكاد يكون تاما ؛ فالوالدون يزدادون نفورا شيئا فشيئا من دفع المهور عن بناتهم حتى في البلاد التي تدفعهم فيها الظروف الاجتماعية دفعا إلى تقديمها ، ويقترح ذوو الرأى أن يقوم

مقام المهور علاوات في الأجور نظير الأمومة ، أو مقابل الأبناء ، وهناك سبل عدة تيسر دفع تلك الزيادة المقترحة — فقد تتعهد بها الدولة ، أو قد يفرض دفعها على المصنع الذي يعمل فيه الزوج ، ولكن الأخذ بهذا الرأي يتطلب أولاً تنظيمًا قومياً دقيقاً بالغ الدقة ؛ ومهما يكن من أمرها فهي تفيد النساء — إذ قد يتحول قدر كبير من الثروة من الرجال إلى النساء — وإن تعود الأم معتمدة في حياتها كل الاعتماد على زوجها ، وسيهون على الفتاة العاملة غير المتزوجة أن تؤيد مذهب الأجور المتساوية إن تساوى العمل ؛ ونسكاد بنحزم بأن تلك العلاوات ستستتبع قلة في أجور العزاب من الرجال ، والأرجح أن تنشر ذلك المبدأ الخطر الذي ينادى بتوزيع المال بين أفراد الشعب ، ثم يتعذر أن تفرض الرقابة على طرق إنفاقه .

غير أن معظم النساء لا يلح حتى اليوم إلخاها جادا دؤوبا في أن يظفر بحقه المشروع ، وليست تصر المرأة على منع زوجها من استثمار ماله ، اللهم إلا إن كانت من طراز هتي جرين ؛ فنساء قليلات هن اللاتي يستمتعن بحرية التصرف في أموالهن كما يتصرف الرجال بمالهن ، بغض النظر عن القانون القائم والشعور السائد ، فما أسرع ما يُذعن ، إذ ليس في مستطاعهن ، كما يقلن « أن يحتلمن الصراع » أضف إلى ذلك أنهن لا يُصررن على تنفيذ رغباتهن وميولهن بإصراراً واضحاً كما يفعل الرجال ، فما عليهن إلا أن يَقْرُبن في أذواقهن من أذواق الرجال ، تلك هي القصة التي تبسطها الرواية الحديثة والمسرحية الجديدة مرة ومرة ومرة في ألوف الصور ، قصة الرجل رغم المرأة إرغاماً ، والمرأة تطفئ على ذكائه بذكائها . ويلوح لي بصفة عامة أن الأدب المعاصر دليل على تغلب دهاء المرأة على تحكم الرجل ، ولسكننا لا نستبعد أن يكون سلطان الرجل قد ضؤل في عالم الأدب

أمام دهاء المرأة لأنه لا يوحى بقصة أو مأساة ، وأن يكون مع ذلك له الغلبة في الحياة الواقعة ؛ فالصراع قائم في كثير من حالات الزواج بين الزوجين على أيهما تكون له « اليد العليا » كما يسميها صموئيل بكتلر في كتابه : (The Way of all Flesh) ، ولعل عدد النساء اللاتي خسرن المعركة في الأزمان الماضية أكبر ممن يخسرنها في هذا العصر ؛ بل لعل هذا الصراع كان أعم نشوباً فيما مضى عنه اليوم ، وقد يزول في المستقبل كل ما يدعو إلى مثل هذا العراك القوي الأليم بفضل ما نسله من سبل أهدى في تربية أبنائنا وبناتنا لإعدادهم لحياة الرشد وما ينشأ بينهم من علائق جنسية ، وبفضل الوسائل المتزايدة التي نخفف بها من العبء الملقى على كلا الفريقين في هذه الحياة الاجتماعية التي ما تزال تزداد اتساعاً ، وبفضل الطرق السكثيرة التي تيسر بها الإفلات من الزواج .

ولكي يكون هذا الموجز لأوجه النشاط الإنساني كاملاً ، وجب أن نضيف إلى الصورة تلك الطائفة من النساء التي تستعصى على الزوال ، تلك الطائفة التي تحترف مهنة هي أقدم ما شهد التاريخ من مهن ، وأريد بها فئة العاهرات ؛ ولقد كانت المواضع العجيبة التي سادت في عصر ما قبل الحرب داعية لجماعة من الكتاب ألا يذكروا هذه الحرفة إلا في عبارات من الجزع أسرفوا فيه بعض الإسراف ، فهي مهنة ازدهرت في كل مكان ، وفي كل مكان زعم الأديباء ألا وجود لها بينهم ؛ فقد كانت حرفة منبوذة لا ينبغي أن تجري الألسنة بذكرها ، ولا يجوز أن تسمها أقلام الباحثين ، وفضلاً عن ذلك فإن الظروف الشاذة التي أحاطت بهؤلاء النسوة في كل العصور قد أخضعتهن لشيء من اغتصاب القانون ولاستغلال غير مشروع ، ولما لم يكن لهن ما للمرأة من زوج يحميها ، فقد لجأن مضطرات إلى ألوان مختلفة من حماية أنفسهن بما لا يجيزه القانون .

وهذه الضرورة التي أرغمتهم على مثل هذه الحياة قد أنشأت ضرباً من الرجل أخذ ينظمها ويفيد منها ، أما هُنَّ فقد كن أعجز عن التخلص من هذه الظروف السيئة التي أحاطت بهن ، لأنهن قد قر في عقولهن بسبب الطريقة التي أعددن وريين بها أن يُدْعَنَ للمقاييس التقليدية التي يقاس بها سلوك النساء .

ولنبحث في حقيقة العاهرة بحثاً لا تشوبه العاطفة ، فقد كان يسود حتى اليوم ظن بأن العهر لا يكون إلا في النساء ، على أن الأمر قد يكون على خلاف ذلك كما سنرى بعد برهة قصيرة ؛ أما عملها في كل العصور فهو أن تبيع زمالة الأوثى للرجال الذين تلح بهم الحاجة إليها في فترات محدودة ، ولطالما أثار هذا رجال الأخلاق الذين يميلون إلى الغلو فيما ينشأ عن وجود العاهرات من آثار فيزيقية ، وأما من هم أعرف من هؤلاء بحقائق الحياة ، فيعلمون أن ليس للعاهرة العادية حذق خاص أو سحر تنفرد به في أساليب الغزل ، وأن عنصر اللذة الجسدية التي تصيها في اتصالها المتقطع بالرجال ، لا يكاد يبلغ عندها من الأهمية مبلغه عند المرأة في حياة الزوجية الدائمة ؛ وحسبك أن تلاحظ المواطن التي يغشاها أولئك العاهرات ليتبين لك الجانب الاجتماعي في البغاء ، فهن يتكاثرن في المرافئ ، وقد عرف ذلك فيهن منذ بدء التاريخ ، ويسرن حول المحطات التي تقع في ختام الخطوط الحديدية ، ويظهرن في الأماكن التي يغشاها رجال الأعمال الذين جاءوا من الريف ليمكثوا في أحد المراكز التجارية وقتاً ما ، ويتسكنن حيث يحشد العزاب من الرجال . وإلى جانب الرغبة الجسدية التي تدعو الرجال إلى الاتصال بالعاهرات ، فقد يضطرم كذلك إلى هذه الصلة ما يصيبهم من عزلة أو ما يصادفهم من فترات متقطعة يعز فيها الصديق ، ولذلك لا يقتصر الأمر في العاهرات حين يَصْحَبْنَ هؤلاء الرجال الذين استوحش بهم

المسكان أو تخرجت فيهم الصدور ، أن يمتصين معهم وكفى ، بل تراهن يَسْتَمِعْنَ إلى أحاديثهم ، ويراثينهم ويُسرِّين عنهم أحرانهم ؛ فهن يبادلنهم صداقة صحيحة وحباً أكيدا ، ومعنى ذلك أنهن فيما يؤدينه من عمل لا يقتصرن على جانب الشهوة في الرجل ، بل إن ما يبعنه ويقدمنه فيما يبعن للرجال شيء أكثر من الجانب الشهوى ؛ إنهن إنما يبعن أنوثته ، فهن في حقيقة الأمر دليل ناهض على أن عقل الرجل مفطور على الاعتماد على المرأة ، أو قل على اعتماد كل جنس منهما على الجنس الآخر ، فالعاهرات زوجات مؤقتات .

ولسكن العالم لم يُسمح قط هذا النظام من الزوجات المؤقتات ، وكان أشد ازورا من أن يبذل مجهوداً كائنا ما كان لحايتن ، وهكذا أخضع هذا الطراز من روابط الرجال بالنساء — الذى بلغت ضرورته حدا لم يستطع معه أى بلد من بلاد الأرض أن يحويه من أرضه محوفاً كاملاً — لكل ضرب ممكن من ضروب الامتهان ؛ فهؤلاء نسوة قد احتمل وجودهن المجتمع ، ثم زعم أنهن فوق ما يطيق ؛ إنهن مُستَغَلَّات بما يجيزه من الوسائل : إنهن مضطهدات مُتَهَمَات ؛ لقد دفع هؤلاء النسوة دفعا إلى حياة مظلمة تهد نفوسهن هذا ، حيث يأوى إليهن الص والمعتدى والناهب والجبان الغليظ القلب فيجعلون حياتهن شرا مستطيراً ، وما أسرع ما يصطبغن بلون البيئة المحيطة فيقبلن مذعنات ما يقال فيهن من أنهن مجليات للعار ؛ ولما كان لا يرضيهن أن يُسَلَّكن أصدقاءهن صديقا بعد صديق ، بحيث لا يُبْقَى لهن على أحد ، فقد اضطررن إلى استمالة ضرب من أشرار الرجال ينفقن عليهم ، وكثيراً ما يُصْبَن بمس من جنون . وعلى طول هذه الحياة المضطربة التى تحياها العاهرة يمتد أمام بصرها خطر يهدد وظلام محقق مما عساه يصيبها من تلك الأوبئة المعدية التى تنفثها حياة الشهوة ؛ ألا إن ما يجلبهن من عار قد كبر

فى أعين الناس ، وعظم عندهم ما يترتب عليهن من خطر ، بحيث لا يقبل على مثل هذه الحياة مختاراً إلا قليل جداً من الفتيات والنساء ، بل يهوين فيها هوياء ، ولذلك نشأت حرفة أو تجارة لم تنقطع قط ، تجارة أبعد ما تكون التجارة عن شرعة القانون ، تجارة الرقيق الأبيض ، التى تغرى الفتيات الساذجات بالسقوط فى تلك الحياة مخدوعات بما زُين لهن من حسناتها ؛ فترى أصحاب تلك التجارة ينطلقون باحثين عن اعتدى من النساء على النظام الخلقى القائم ، بحيث يكن صالحات أن ينفخرطن فى سلك البغاء ، فيسرعون إليهن بالمعونة ثم الاستغلال ؛ وطبيعى أن تنشط تجارة الرقيق الأبيض حيث تكون سوق العمل النسوى مضطربة قليلة الأجور .

ولن نتاح لنا دراسة هذا العنصر الاجتماعى اللازم فى مختلف العصور ، وفى شتى البلدان فى هذا العصر الحاضر ، إلا إن أعددنا موسوعة ضخمة نخضعها بالحديث فى العمل والثروة ، وعندئذ نرى كيف يكون هذا الموضوع قصة متشعبة مضطربة الغايات ، تسودها بصفة عامة غباوة التفكير والتعصب والغيرة وغلظة القلب ، وسترى أن جوانبها الذميمة المعقوتة تسكاد ترجع كلها رجوعاً مباشراً إلى التقليد الذى يحتم خضوع المرأة ، وضرورة اعتماد النساء على حُماة أشداء ؛ ومن الجائز أنه إذا ما كتب فى الأيام المقبلة لمساواة الرجال والنساء أن تخرج من حيز الرغبات المجردة إلى حيز العمل القانونى ، أن يقتصد الناس من تدخلهم فى حياة النساء الجنسية الخاصة ، وأن تزول تلك الظواهر القاسية الأليمة ، ظواهر المرافقة الجنسية المتقطعة التى يضطر إليها النساء اليوم .

لقد كان البغاء فيما مضى قاصراً معظمه على الإناث ، وليس ذلك راجعاً فيما يظهر إلى اختلاف جنسى موروث بين المرأة والرجل كأثنا ما كان ، إنما هو فرق

في طبيعة العمل الذى اختص به كل فريق ، فذلك هو الذى يجعل الرجال أمس حاجة إلى رفيقات غير دائمات ، ففي الأيام السالفة كان النساء أدوم بقاء في عقر الدار من الرجال ، وكانت الرقابة على مكثهن في دورهن أشد منها على الرجال ، وإذن فقد كان الرجل ، وبخاصة المسافر والبحار والتاجر والجندي وطالب العلم ، هو الذى دفعته العزلة وضيق النفس إلى مثل هذه العاشرة المتقطعة ، وقد كان حراً في أن يسرى عن نفسه ما بها من ضيق . أما طائفة النساء فقد كن يلجأن مضطرات إلى ضروب من التسترية يكتنفها العبوس ، أو كن لا يجدن من صنوف التسلية شيئاً ، أما الآن وقد نشأت أنماط من النساء الأثرياء الأحرار ، اللاتي يستطعن الرحيل والإفلات من أعين الرقباء ومن غباء الأخلاق التي تلزمهن بها الجماعة التي يعشن فيها ، فإن تشابه الحاجة عند المرأة وعند الرجل سينتج تشابهها في وسيلة إشباعها ، فنسكاد نرى اليوم المرأة النصف الخليعة في شيوع الرجل النصف الرقيق ؛ وحسبك أن تغشى دور اللهو في أوربا وإفريقيا الشمالية لترى الزوجة أو الأرملة الأمريكية المثيرة وحيدة تبحث عن سلواها في عشير من الرجال ، وتتخير لنفسها « رفيقاً » يرافقها ويحميها ويزامن لها ويكون لها في كثير من الحالات محبباً مأجوراً ؛ لقد كثرت هذا الضرب من النساء كثرة الأمر يكيين الذين يزورون أوروبا ولا قصد لهم غير احتساء الخمر ؛ ولسكننا لا نقصر النساء المرتحلات الثريات على الأمريكيات بحال من الأحوال . ومهما يكن من الأمر « فالرفيق » هو مقابل العاهرة بكل ما في الكلمة من معان ، ولكن لاختلاف التقاليد الجنسية بين الرجال والنساء ، لم ينهض إلى اليوم من يتعقبه من « شرطة الأخلاق » ، ولم يُعزل في بيت كالذى تعزل فيه العاهرة ، ولم ينبذ من الحياة الاجتماعية ، ولم يُسنَّ من القوانين ما يقف حائلاً في وجهه ، وإذن فليس

هو بحاجة إلى أن تبسط عليه « جنيف » حمايتها ، ولا يجد فيه تاجر الرقيق الأبيض سلعة رابحة .

فإن كان مثل هذا « الرقيق » مستطيعاً أن يعنى بنفسه ، فلا ريب إذن في أن المرأة الرشيدة العادية إذا عوملت معاملة لائقة باعتبارها مواطنة كغيرها من المواطنين ، في مقدورها أن تعنى بنفسها أيضاً . إن هذا الاختلاف في نظرة العالم إلى العاهر والعاهرة موضوع ممتع جداً ، وقوى الدلالة على ما أدى إليه حرمان المرأة التقليدى على مر العصور ، كما يدل على تحول وجهة نظر العالم إلى الحياة الجنسية الخاصة ؛ ولعل عالم المستقبل الذى نتجه إليه فيما يبدو ، والذى سيفوق هذا العالم القائم حكمة وتعلماً وصراحة ، سيكون فى استطاع النساء فيه أن يحمين أنفسهن ، وسيكن أحراراً يبحثن ويذهبن ، ويفعلن هذا ويدعن ذاك كما يشأن مثل رجال هذا العصر ، عندئذ قد يُحَدُّ ما يسود أوساط العاهرات من حاجة وضيق وعار وكرب ، وقد يزول هذا البغاء باعتباره مظهراً تحتّمه الحياة الاجتماعية ، تلك الوصمة الخالدة التى تصم علاقة التراحم بين الجنسين ؛ قد يزول ليحل مكانه بديل آخر .

٦ — قوة النساء فيما يَبْذُنُّنَ من طمأنينة وإغراء

أثر النساء فى تحديد الإنفاق

لنتوجه الآن بالبحث شطروجه آخر من وجوه العلاقة بين النساء والرجال فى هذا العصر ، وهو وجه له كذلك خطر اقتصادى عظيم ؛ فقد انصرفنا بالبحث حتى الآن إلى مساوىء المرأة فى علاقتها بالرجل ، وسنبينا الآن أن ننظر فى قوتها

الحقيقة التي تؤثر بها على الرجل . إنه ليس من الدقة في شيء أن نقرر بأن الرجال والنساء تمس بكل فريق منهما حاجة إلى الفريق الآخر ، لأن الجنسين لا يفتقر أحدهما إلى الآخر في حاجة واحدة بل يفتقر إليهما في كل جوانب حياته ؛ ولقد أدلينا فيما سلف برأينا بأن الرجال لا يتعففون عن أن يأووا إلى كنف العاهرات لشيء أكبر جدا من إشباع الشهوة الجنسية المجردة ، بل تنزع بهم حاجة عنيفة لمرافقة النساء بصفه عامة ، لأن خيالهم في حاجة إلى تلك المرافقة ، أكثر فيما أظن مما ينزع خيال النساء بهن إلى عشرة الرجال ، وإنه ليحدث في حالات كثيرة أن تتبدل تلك الرغبة في النساء إلى نفور منهن ومقت لهن ، ولكفك لا تكاد تجد بين الرجال أحدا لا يأبه للمرأة فلا يحس نحوها محبة ولا كراهية ، والرجل العادي يرجو أن يصادف عند النساء حبا واستحسانا ، ويجب أن تقابل النساء بالتقدير أعماله ومنتجاته التي يخالفه التوفيق فيها ، فكأنما النساء نصبن للرجال حراسا يلزمهم احترام أنفسهم ؛ وإن النساء لشغوفات بطبعهن أن يراقبن الرجال ويصنخن إلى ما يطلبون ، وأن يفسحن لهم في قلوبهن مكانا ، وأن يبدين لهم وجوهاً باسمه ، على نحو يعجز عن أدائه من شئت من الرجال .

وإنما قلت الرجل « العادي » عامدا ، لأنني أبحث في هذه الصفحات في الكائنات البشرية العادية المتوسطة ، إذ من هؤلاء تتألف الحياة الاقتصادية قلباً وقالباً ؛ نعم إن هنالك أمثلة تشذ عن هذه القاعدة ، بل قد تجد أجناساً بأسرها تشذ ، فيقف الرجل من المرأة موقف المشاهد المؤيد لآرائها في نفسها ، وبهذه يحد أعمالها على نحو نخفت إلى أقصى الحدود ؛ وكذلك قد تصادف من الشواذ في هذا العصر نساء كثيرات يخطبن ويغازلن نساء من جنسهن ، وليكن الصورة الطبيعية هي أن المرأة تبث في مختلف ما يؤديه الرجل خصال الشجاعة

والنبوغ والذكاء والكرم ، والغباء والبلاهة ، والرشاقة أو الترهل ، والضعف والتسفل والدناءة ؛ إن المرأة تملك بين يديها صندوقاً من ألوان الأخلاق تصبغها كيفما تريد ، وعلى النساء يتوقف تقدير طائفة كبيرة جداً من الأشياء استحقاقاً واستهجاناً ، حتى الأرقاء منهن لمن مثل هذا التأثير في التقدير .

وهذا التأثير من النساء على الرجال في تقديرهم للأشياء ، وهذه القوة التي يسيطرون بها على الرجال في تقويمهم لأنفسهم ، إذا أضفتها إلى ما لمن من قدرة عملية حقيقية في امتلاك زمام الرجال فيوجههم إلى ما يرون لهم من ملاذ جسمية واجتماعية ، لوجدتهما يضيفان على المرأة خطراً اقتصادياً لا يتناسب قط مع ما تملك أيديهن امتلاكاً مشروعاً من قوة الشراء ؛ فإذا كان الشطر الأكبر من ثروة العالم لا يزال بين أيدي الذكور ، فإن جزءاً كبيراً من قوة إنفاق تلك الثروة تملك زمامه النساء ، أو قل إن حق الإنفاق في الواقع قد ينطوئ به إلى النساء ، فإذا يشتري الرجال فيما عدا حاجات أعمالهم ، وما يبتاعونه من مؤونة ومواد غزل وعقار وأوراق مالية وما إلى ذلك ؟ لقد يقول قائل إنهم يشترون السكك الحديدية وعدد الحرب ، والسفن والطواثر والعماثر ، وإنهم يشترون ثيابهم وما يتطلبونه في رياضتهم من أدوات ؛ ولكن إذا اختص الرجال بشراء السكك الحديدية والسفن ، فمن ذا الذي حفز تهيئة القطار الفاخر ، وغرفة السفينة المزدانة ، أهو الذكر أم الأنثى ؟ سندع هذا السؤال بغير جواب ، ولكل قارئ أن يفكر فيه ، ولكننا إذا ما طرقنا بالبحث جوانب العيش على حقيقتها ، بدأ تأثير المرأة واضحاً ؛ فإذا ترك للرجل أن يشتري سيارة الرياضة فإن من شأن المرأة أن تتخير السيارة العادية للترف ؛ وذوق المرأة ومطالبها هما اللذان يحددان في معظم الحالات فن العارة في بناء الدور ، بما تريده لنفسها وما تحبه لخدمها ،

وإرادتها في ذلك نافذة ، وهي أشد نفاذا في اختيار الأثاث ، وكذلك يوشك أن يكون بين يديها إعداد البيت بما تريد من معدات ومواد ، وما تشتهي من ألوان الطعام ، وما تملأ به خزائنها من ثياب ما تفتأ في ازدياد . وإذا أخذنا بإحصائية تقريبية جاءتنا من أمريكا ، فإن ثمانين في كل مائة من الشُّراة ، في مدينة كبيرة ، هم من النساء .

وذلك معناه أن النساء ، وبصفة خاصة نساء الطبقات التي لها من الشراء ما يفسح أمامها مجال الإنفاق ، لهن تأثير قوى ، بل قد يكون لهن التأثير الأقوى في توجيه الصناعة الإنتاجية ، فمن اللائى يقررن السلع السريعة في استهلاكها ، وكذلك صناعات النسيج والأثاث ومواد البناء والمؤن ، كل هذه تُعد وتباع على نحو يحقق رضاها قبل كل شيء ؛ وللنساء السيطرة على محال الشاي ، وهاهن ولاء اليوم يغزون المطاعم ويبدلن روحها ؛ ولما أوصدت نوادي الخمر في وجوههن في أمريكا بحكم العادة صَوَّتْنَ في الانتخاب بإغلاتها فأغلقنها ؛ هذا إلى المنسوجات والألوان ، وما يسود الحياة اليومية من أنغام وأذواق ، ومن يؤذن للرجال بلبقائهم خارج دور العمل والنوادي ، وما يجوز اصطناعه في الحياة الاجتماعية ، وكل هذه رهينة في مجتمعاتنا الغربية بما تراه النساء .

إلى هذا الحد البعيد قد سلط النساء تأثيرهن القوى على ألوان الحياة اليومية دون أن يكون لهن إلا قليلا من الإحساس بالتبعة التي تقع عليهن عامة ؛ فكل امرأة تسيطر بنفوذها في حدودها دون أن تدرك كم يبلغ تأثير النساء جميعاً إذا جمع بعضه إلى بعض ، وهكذا أخذ أفراد النساء في تشييد الدور وتكوين الشخصيات ، دون أن يدور برءوسهن أنهم إنما يبنين بذلك عالما بأسره ؛ وحتى في تنشئتهن لأبنائهن قد كدن ينصرفن بالعناية كلها إلى سعادة هؤلاء الأبناء

العاجلة ومصلحة أشخاصهم الموقونة ، وغضض الأبصار غضا عن تأثير الحياة الاجتماعية بصفة عامة بما سلكن من سبل في تربية أولئك الأبناء ؛ وأحسب أن لو سئل علماء التربية عن ذلك لأجابوا بأنه على الرغم من أن تقدم التربية مدين أكبر الدين لفئة معينة من النساء ، إلا أن أثر الأم العادية بصفة عامة كثيراً ما يكون حائلاً دون الرقي ، ولعلها يعين على التوجيه المنشود ، لأنها تحصر أفكارها في الجوانب المباشرة ، فترعى في أبنائها الصحة وجودة الطعام وحسن السلوك ، أما ما عدا ذلك فتذر في غير بصيرة نافذة لتصرف المدرسة .

وهي إنما تترك ذلك للمدرسة في سذاجة ، لأنها لم تجد قط من يرشدها أن تسأل عن واجب المدرسة .

وذلك إنما يعزى قبل كل شيء إلى أن الأغلبية الساحقة من نساء الطبقة الثرية التي تنفق المال ، جاهلة بالنسبة لما يرجي لها ، فأولئك النسوة لم يتعلمن أن يستفسرن علل وجود الأشياء ؛ فالفئة العادية من الطبقات الثرية ، الضخمة في ثرائها ، لم تبلغ من التعليم ما بلغه أخوها ، وليس أمامها مهنة فنية تحفزها إلى اكتساب العلم ، وشوطها في طلب العلم أسرع من شوط شقيقها انقطاعاً ؛ وأما الرجال والنساء في طبقات العمال في الدول الغربية ، فيكادون يقفون اليوم على قدم المساواة فيما حصلوا من علم .

وإنك لتجد من الرجال أكثر ممن تجد من النساء ممن تملؤه الرغبة في الخدمة العامة ، ومن يصون شرف طبقته ومهنته ؛ فالمرأة في وسطى الطبقات وعليها لا تزال في الأعم الأغلب تقع في المرحلة البدائية ؛ فإذا ما بلغت امرأة مكانة اجتماعية رفيعة وجدتها أكثر من الرجل انتكاساً إلى الأطوار النهمية الزراعية الأولى ، وهي بذلك تضع المثال لجمهرة النساء ؛ وقد لا يكون هذا ناشئاً عن فوارق جنسية

فطرية بين الرجل والمرأة ، إذ قد يكون نتيجة لاختلاف فسيح المدى فيما أورثته التقاليد لكل منهما ، ولتخلف المرأة في مضمار التربية تخلفاً بعيداً ؛ وتدلفنا تجارب الكنيسة الكاثوليكية ، فيما أظن ، أن النساء في مقدورهن أن يتعلمن حتى يبلغن من الاستعداد الفكري نحو الخدمة الاجتماعية ما بلغه الرجال سواء بسواء وتخلف التربية الذسوية الذي ترك كثرتهن الساحقة عند طور بدائي ، تراه متمثلاً في أجلى صورته عند باعة قبعات النساء وثيابهن ، وعند تجار الجواهر الكريمة والمشتغلين بفن التجميل ؛ في حين ترى الرجال وقد ألفت عليهم التقاليد واجب الخدمة الاجتماعية ، وأملت عليهم التربية السائدة في الأمم الغربية أن ينسكروا ذواتهم ، لا يتخذون من ثيابهم وسيلة للهجوم ، ويميلون ، في ظاهر الأمر على الأقل ، إلى خدمة الشعب ، وهم أكثر استعداداً لقبول الآراء اللازمة لإدارة الدولة وأعمال الصناعة والتجارة وللمقدرة على الإنشاء والإبداع ؛ وليس ذلك أمراً تحتمة الطبيعة ، ولسكنه نتيجة عوامل التربية في المدرسة وفي الحياة معاً ؛ وآية ذلك أن هؤلاء الرجال المنشئين الذين تراه اليوم في الدول الغربية ينزعون هذه النزعة الفكرية نحو خدمة الشعب ، كان أسلافهم الجاهلون أشد من معاصريهم من النساء زخرفة وزر كشة لثيابهم ، وكانوا يتجملون بالجواهر الضخمة ويصبغون الرؤوس واللاحي ، ولم يكونوا يعلمون من معاني الإخلاص إلا ما ينصرف إلى شخص أو أمير أو ملك أو ماشئت من ألوان الزعامة ، أما نساؤهم فلم يكن أمامهم ما كان لهم من فرص الظهور ، ولا كانت لديهم الوسيلة التي يقتنين بها ما يقتنى الرجال من ألوان الثياب ؛ وما يزال حتى اليوم نشاهد عدداً عظيماً من رجال الشرق يحتفظون بهذا الاتجاه العقلي ، ولا يزال معظم نساء الغرب ، في مجموعهن كجنس ، يقف عند تلك المرحلة الهمجية

عينها ، فإن رأيت منهن من تلبس ثياباً هادئة وأزياء متواضعة سمعتها تشفع هذا بالشسكة ، لأنها تعد مثل هذا اللباس ضرباً من ضروب التقشف المهيئ ؛ ومعنى ذلك أنه لو كانت أمم الغرب تتألف من رجال بغير نساء ، وكان الرجال بذلك هم وحدهم الشراة ، لسارع صائندو اللؤلؤ ومقلدوه إلى هجر أعمالهم هجراً قاطعاً ، ولعمد تجار الجواهر والأحجار الكريمة إلى إغلاق حوانيتهم ، ولاضطر صائندو حيوان الفراء وقانصوه أن يتشجوا بما يقنصون من فراء أو أن ينفذوا أيديهم مما يعملون (وإن هم فعلوا لأمنت بقية سعيدة من ذوات الفراء والريش على حياتها) ولتردت في هاوية الإفلاس صناعة وسائل التجميل على عظمها ، وسائر باعة الثياب والقبعات النسوية ؛ وكذلك يوشك أن يمتحى بيع الأثاث الفاخر الذي يُتخذ للظهور بالأبهة ، وفنُّ عمارة الأبنية التي تُعدُّ للجموع الحاشدة ؛ نعم ربما بقي قليل من رجال البلاط الملكي وكبار الضباط يطلبون الفراء وأسباب الزينة والتجميل ، وربما اشتدت رغبة الانغماس خفية في فاخر الأردية المنزلية وساطع ثياب النوم ، ولكنها رغبات ستكون من الضالة بحيث لا تستطيع أن تحتفظ بهذا الجم الغفير من العمال الذين يصنعون هذه السلع ، ولن تقف الدمار الذي يستتبعه زوال المرأة من أمم الغرب ، على فرض زوالها .

ولكن إذا كان من غير الجائز أن تزول النساء من الأمم الغربية ، فهناك احتمال شديد جداً في ارتفاع مستوى تعلمهن حتى يدرك مستوى الرجال ، وفي اضطباع العالم كله بصبغة الغرب ؛ وهذا يفسح لنا في مجال الأمل بأن يشهد العالم نساءً أرزن ثياباً وأرصنَ عملاً مما نراه اليوم ؛ وعندئذ فقط لا يحس النساء رغبة التفوق في الزينة والتجميل ، بعضهن على بعض ، إلا بمقدار ضئيل يماثل ما نراه اليوم بين الرجال ؛ وستمتحى من وجه الدهر هذه الرغبة في التحلى بالجواهر والأصباغ

وفاخر الزينة التي تسود اليوم في حياتنا الاجتماعية ، وهي وإن تكن مقصورة في بلادنا على النساء ، إلا أنها لا تزال تسيطر على حياة الرجال والنساء جميعا في حاشيات أغلب أمراء الشرق .

ومع ذلك فزوال الثياب المزخرفة زوالا تاما من حياة المجتمع أليم للنفس ، يكاد يبلغ في إيلايه أن نقبأ للأطيار الشادية بالغناء ؛ فائن اضطر الرجال اليوم بتأثير العلم ونزعة التزهّد ، وبما أوحى إليهم به المصلحة العملية ، أن يرتدوا من الثياب ألوانا متشابهة لا يمتاز فيها أحد من أحد ، كما نشاهد مثلا في أزياء الخدم والعمال ، فإن ما نراه في نوافذ صناع الملابس ، من أردية المنازل وثياب النوم ، يكشف لنا عن رغبة قوية ما زال يحسها الرجال نحو الثياب الفاخرة ، وأنها لا تزال قريبة جدا من مرحلة السذاجة الأولى ؛ ويؤيد هذه الملاحظة ما هو شائع بينهم من استحسان « الأردية المزخرفة » في حفلات الرقص والحفلات الساهرة ، ومن إقبالهم على الحفلات التي يلبس فيها « زى خاص » ؛ ودلائل آخر يؤيد هذه الظاهرة أيضا هو أزياء العلماء ، وما يموج على رؤوس الضباط من ريش ، والأوسمة التي تشخ بها « طوائف الفرسان » المختلفة في أمريكا — الفرسان المتطوعين الذين أقبلوا على الفروسية من تلقاء أنفسهم — ، وربما تكون المرأة التي تشتغل بأحد الأعمال الفنية اليوم قد دنت من الرجال في اتخاذها لثيابها ، فتراها تلبس أغلظ اللباس أثناء عملها ، حتى إذا ما تهيأت لها فرصة حفلات المساء بدت في ثوب مسائي فاخر ، ولكن هذه الأردية المزخرفة التي يلجأ إليها الرجال والنساء الجادون في أوقات فراغهم ، والتي يكادون يقصرونها على حياتهم الخاصة ، تدل على أن لبسهم لهذه الثياب المزركشة وشراءهم لها إنما يأتي في حياتهم عرضاً ، على نحو يخالف ذلك السعي الدائب الملح الذي تبديه في طلب الأناقة نساء هذا العصر

اللائي لا يختلفن في جوهرهن عن النساء الهمج في شيء .

لقد قيل إن فكرة الرجل عن نفسه وعن غيره من الناس تتوقف فيما يظهر على شيء يؤديه ، أكثر مما تتوقف على مظهر يبدو فيه ، بينما النساء على نقيض ذلك ، يرون كل القيمة لأنفسهن في المظهر أكثر منها في أداهن عملا من الأعمال ؛ وذلك حق مقطوع بصحته لو أخذنا بإحصائية من نبه ذكره في هذه الدنيا ؛ فأعلام الرجال في عصرنا هم الذين أنجزوا عملا ، أما مشهورات النساء « فشخصيات » وكفى ؛ فهن غايات في أنفسهن ، لا يقصدن إلى شيء بعد ذلك ما دمن قد عرّضن أنفسهن ، وحتى إن أدّين شيئا فإنما يؤدينه للتظاهر بما ذن من ذكاء ، ويكون هذا الذي يؤدينه قد سبقهن إليه واحد من الرجال — ولكني أعترف بأنهن يعملن في سحر فاتن ، وهؤلاء هن اللائي أوتين القدرة على شيء من قوة التعبير . وكلا المرأة والرجل في الحياة العادية مضطرا أن يتقيد في عيشه بقيود العرف الشائع ، غير أنه يقال بحق إن المشهورين والمشهورات ، فيما خلا جوانب نبوغهم ، لا يختلفون في شيء عن السوق إذا أطلق حبلاها على الغارب ، فهم بمثابة الأمثلة لما يعملهُ أكثر الرجال والنساء وما يكونون عليه لو هيئت لهم ما هي لهؤلاء المشهورين من فرص .

ولسكن هذا الفارق بين العمل والظهور ، الذي يفرق الرجال عن النساء كما يبدو اليوم ، قد لا يكون فارقا حقيقيا بين الرجال والنساء على إطلاقهما ، والأرجح أن يكون ذلك مظهرا آخر من مظاهر الخلاف بين المتعلم والهمجي من حيث الميول ؛ وإن صح هذا ، كان التفاعل بين النساء والرجال يجتاز في هذا العصر مرحلة من مراحل التغير ، إذ لو كانت المرأة صائرة إلى يوم تكون فيه إزاء الرجل شيئا أكثر من مجرد حافز تافه له ، وتزداد في موقفها نحوه من خصائص

الزميل والمعين ، فإنها على الأرجح ستؤدي رسالتها في الحياة ، رسالة النقد والمدح والتشجيع وبعث الطمأنينة ، أداء فيه من الدقة وبعد الأثر ما لم يكن له في أى عهد مضى ؛ لأنها ستبعد عن كونها مجرد منحة يظفر بها الفائز في مضمار التنافس ، لتكون أقرب إلى قاض يزن مجهودات الرجال ؛ وسيختلف تأثيرها عما هو اليوم من الإنفاق وروح الإنفاق ، ومعنى ذلك أنها ستزداد تأثيراً في تحصيل المال وطرائق تحصيله .

لقد بينا في دراستنا لتأثير النظم المالية المعاصرة ما ينجم عن أصحاب المغامرة المالية من شر جسيم ، بما ضربناه من مثل أو مثيل يصوران ما يفعلون ؛ ومعظم قرائنا يعلم علم اليقين ، مما تتناقله الآفواه على أقل تقدير ، ذلك الضرب من الناس الذى يخبط فى عالم المال خبطاً ينتهى به إلى الإفلاس ، أو يؤدي به إلى ظلمات السجن ، مخلفاً وراء ظهره علامات الخراب والدمار ، فما هو أمله المنشود الذى يبرر سعيه وتعرضه للخطر ؟ إن جوهر الغاية التى يقصد إليها هو النجاح فى عالم يقدر الظهور والوضيع ، عالم تسيطر عليه مقاييس الحياة « البدائية » ، عالم يعنى عناية كبرى باستحسان النساء للرجال وسيطرة الرجال على النساء ؛ فذلك الذى يخبط فى عالم المال إنما يشد أن يحل فى أعين النساء مكانة مقدسة ، يوزع بينهن ما يتحرقن إليه شوقاً من الوسائل التى تمكنهن من حياة الأبهة التى يشتهين ، وهذه المنزلة الإلهية التى يرفعن إليها النساء تبيح له أن يجو من ذهنه كل أسف عما انتهج من سبل التلصص والتستر والمخادعة فى التماسه طريق الثراء ؛ فهو إذا ما بلغ منزلة التقديس المنشودة فما أهون عليه أن ينسى أن الوسائل التى انتهت به إلى ذلك الأوج كانت أبعد ما تكون عن صفات التقديس . غير أن تدفق النساء تدفقاً جارفاً إلى صفوف المتعلمين سيمحو كثيراً من قيمة هذه الأبهة التى

يهيئها لمن المغامر الناجح في مغامراته ، إذ سيعرفن فيها سناء المظهر ودناءة الخبر ،
وسيدركن فيها الخطاوسائل التي أدت إلى بلوغها ؛ أمثال هؤلاء النساء
سيخلقن مجموعة جديدة من القيم الاجتماعية يَقْسِنَ بها تقديرهن لأقدار الرجال ؛
فلن يعتبر أولئك النساء ذلك الثرى البدأى في تفكيره بطلا غزا أبواب النجاح
الذهبية ، بل ينظرن إليه رجلا جشعا متطفلا على الحياة الاقتصادية تطفلا بلغ
الغاية القصوى من الإيذاء والتخريب ، وسيكشفن كسفاً جلياً واضحاً عما به ين
أواصر القرى التي تصله بعصابات اللصوص ، فإذا ما ألتقين عليه هذا الشعاع
البارد فلن يفلح مال الدنيا بأسرها في أن يجعل منه رجلا خيرا من « الشاطر
أ ك » الذي تروى عنه الأساطير عبثه بالأشياء ، وبذلك يَرْدُدُنْ إلى صدره
ما كان اتخذ مقياساً لعلو شأنه .

٧ - هل يلزمنا للمرأة ضرب خاص من التربية في طور الشباب ؟

ربما نكون قد أسرفنا ، حين رسمنا الخطة لتعليم المرأة ، في المماثلة بينها وبين
نوع التربية الذي نأخذ الرجال به ؛ فمن أيسر الأمور أن نأخذ الرجال بالتدريب
والتربية في تقدم متصل من سن الخامسة إلى سن الخامسة والعشرين وما بعدها ،
وليس يتبع هذا أن في مقدورنا أن نتناول المرأة بالتربية على هذا النحو المتصل ،
فقد يقع الحد الأقصى لقابليتهن للتعلم في مراحل من حياتهن تخالف فيها الرجل .
ولما كان هذا الرأي مستمداً بطبيعة الحال من مقارنة الرجل بالمرأة من
حيث الخصائص ومن حيث دورة الحياة في كل منهما ، فقد يجعل بنا أن نسبق
الباب الذي سنخصصه للحديث في شؤون التربية ^(١) ، لنناقش مضمون هذه

(١) خصص الكاتب آخر فصول كتابه « عمل الإنسان و ثروته وسعادته » للبحث
في التربية .

الفكرة الآتية ، وهي أنه قد يحسن بالمرأة أن تعود فتستأنف دراسة واضحة الحدود ، وأعمالاً جديدة ، وتبعات جديدة حينما يتراوح سنها بين الخامسة والثلاثين والخمسين ؛ فترَبِّ الفتاة طبعاً ، منذ بداية أمرها ، على أن تلتقي ببصرها بعيداً ، فتجاوز به المرحلة العاطفية من حياتها ، وأن تعدّها مرحلة جزئية تمتازها إلى ما بعدها ، وألا تعتبر آخريات سنها فترة موقوفة للشيوخوخة التي تبتريها عن العالم المحيط بها ، بل تنظر إليها مرحلة من عمرها تبدأ فيها مجموعة جديدة من ألوان النشاط ؛ فلا ينبغي أن يكون في فقدان المرأة لشبابها كل ما فيه اليوم من أسباب الأذى ، بل يجب ألا يكون في أسوأ حالاته أبلغ في مأساته من ضيعة الشباب عند الرجل ، وإن يكن ذبول الشباب أقل تدرجاً في المرأة منه في الرجل ، فهما يختلفان في هذا كما يختلفان في انتقالهما إلى طور المراهقة الحقيقية . ولا بد لنا أن نلّقى بالنّا إلى هذا الخلاف في شيء من الدقة والتحديد ليزداد اتّساحاً عما هو الآن .

وحتى لو فرضنا أن التقاليد لا تضطر المرأة اضطراباً إلى قبول الحياة الجنسية قبل أوانها ، فإن ظهور الغريزة الجنسية عندها يؤثر ، فيما يلوح ، في حياتها ، في مستهل المراهقة ، أثراً أشدّ خطراً مما يفعل بحياة الرجل ؛ وليس من المبالغة في شيء أن نقول إن الفتاة اليقظة الطّليعة ، التي قد تكون أشدّ رغبة في تحصيل المعرفة من الفتى في تلك السن ، تكتسب شخصية جديدة عند بلوغها ، فما يطرأ عليها من التغير عندئذ أعظم وأشدّ قلباً لحياتها مما يستتبعه بلوغ الذكر من نضوجه ، فهجمة المراهقة على الفتاة أقرب إلى السكّارثة النازلة منها على الفتى ؛ أما تلك الشخصية الجديدة الطارئة فقد تميل بها إلى الدار والأمومة والحب ، وقد تنزع بها إلى التسدين ، وقد تكون مزيجاً من بعض هذه العناصر — وهنا يتوقف

الاختيار على نوع الفتاة وظروفها — ومهما يكن من أمر هذه الشخصية الناشئة فإنه يتحتم على كل حال أن تكون شديدة الإدراك لنفسها إلى حد بعيد ، مسخرة لتمثيل ما يحركها من نوازع ، ثم لا يمتضى على هذه الشخصية الوليدة عامان أو ثلاثة حتى تتمكن من وظيفتها التي اختارت أن تؤديها ؛ ونستطيع أن نذهب في المرأة العادية إلى حد القول بأن مجموعة النوازع والعواطف التي تنشأ مع البلوغ تتحكم في حياتها مدة من الزمن تحكما تاما ، نابذة ما عداها مما يجول في نفس السكان البشرى من نزعات أوسع منها نطاقا ، بل يغلب أن تتخذ من تلك النزعات بطانة تقيم عليها دعائم هذه الحياة الشخصية الفردية العنيفة .

ولقد يكون من صالح الحياة أن تفقد النساء لفترة من الزمن صلاتهن بما يشغل البشر بصفة عامة ، ليأخذن أنفسهن أخذاً جادا عنيفا بالحياة كأشخاص فقط ، فيكن محبات وحبيبات معاً ، ويكن زوجات فأمهات ؛ نعم قد يكون من الخير المحض أن تخضع عقولهن لهذا التحول الذي يضيق من آفاقهن الفكرية ويركز كل عنايتهم في حياة أشخاصهن ؛ فنحن اليوم أحوج إلى أن تحيا المرأة هذا اللون من الحياة الخاصة من أى عهد مضى ، وستشدد حاجتنا إليه كلما صعدت المدنية في مستواها ؛ فأمهات صغار الأطفال بصفة عامة ، أو على الأقل في الأمم المتقدمة نوعا ، مدركات للتعبات الجديدة التي ألقتها عليهن خطوات التقدم في تنشئة الصغار ، وفي علم الصحة العامة ، وفي سيكولوجية الأطفال ، وفي أساليب التربية العملية ؛ وإنك لتشهد اليوم في أرجاء إنجلترا وأمريكا جمعيات من النساء تتألف من أفقر زوجات المزارعين والعمال غير الدائمين ، فصاعداً ، تدرس هذه الموضوعات وتجد في دراستها من المتعة شيئا كثيراً ، والواقع أن ذلك فيما أرى أهم ما أثمره انتشار التعليم بين النساء حتى اليوم . ومهما نقل في

هذا الباب في مقارنتهن بالرجال فيما يؤدين من أعمال فنية وعقلية ، فلسنا نشك في أن تحرر النساء تحرراً عقلياً قد انتهى بهن إلى خالق أطفال أسعد وأصح من أطفال العهود السالفة ؛ فصغار الأطفال في سنة ١٩٣١ ، إذا قيسوا بأسلافهم الأطفال ، كل طبقة بما يوازيها ، لكانوا أقوى ثناء ، وأجمل طامعة ، وأقرب إلى الأسلوب العلمي في غذائهم ولباسهم ، وأكثر حرية في نموهم العقلي ، وليكذّب من يستطيع من القراء أن يعود بذاكرته ثلاثين عاماً ، يرى المتنزّهات العامة في أية مدينة من كبرى المدائن ، فيقارن ما كان يتدفق فيها من جموع قدرة بالية الثياب حين كانت مدارس الفقراء تغلق أبوابها في أيام العطلة ، بهذه المخلوقات الصغيرة الحبيبة الذكية التي تراها اليوم في الحدائق ، إنه تحول يثير الدهشة حقاً ، وهو راجع بالطبع إلى كثير من العوامل ، ولكنه ما كان ليحدث لولا ما أقمه هؤلاء الأطفال من انصراف عناية أمهاتهم لهم .

ومهما يكن من الأمر فليس الأطفال موضوع بحثنا الآن ، بل موضوعنا الأمهات ؛ فقد أصبحت رعاية الأطفال اليوم مهنة تمطاب مستوى رفيعاً من الذكاء لم تكن لتتطلبه في العهود الماضية ، ولكنها مهنة لا تدوم ما دامت الحياة ، فتكاد الأسر كلها ترسل بناتها وبنيتها إلى المدرسة في هذا العصر ، وقبلما تزيد الأسرة على أربعة أبناء ، فما تكاد تصل الأم العصرية سنّتها الثلاثين أو الخامسة والثلاثين حتى يفرغ عملها فراغاً يوشك أن يكون تاماً ، لقد نادتها الحياة الشخصية ، فلبتها ، وهامى ذى قد أشبعت شهوتها الملحة في هذه الحياة الذاتية ، فمادعاها أن تصنع فيما بقي من عمرها ، وهو زمن يقرب من ثلاثين سنة أو أربعين ؟

إن السكثرة الغالبة من هؤلاء النسوة اللاتي بلغن الأربعين أو الخمسين ليس لها عمل تؤديه في العصر الحاضر ، فوظائفهن القديمة ، لو كنّ من العاملات قبل

الزواج ، لا تعود ترضى بهن ؛ وليس ينشأ من الأعمال الجديدة ما يكفي لاستيعابهن . فإن كان المبدعات منهن لا يلبثن حتى يخلفن لأنفسهن عملاً ، فيأخذن في أعمال البر أو التدين أو السياسة ، فليس من سبيل إلى الشك عند من يصادف عدداً كبيراً من النسوة الأنصاف ، أن مثل هاتيك الأعمال لا يمكن أن تستغرق من فيض النساء إلا فئة قليلة ؛ لقد بعثت امرأة من ذوات الفراغ منذ شهور قلائل إلى « صحيفة الدار » في إحدى جرائد المساء التي تصدر في لندن تسائل القراء ؛ « أيسطيع من جاوز الأربعين أن يجد عملاً سوى لعب الورق ؟ » فأجابها عدد زاهر من الكتّاب ، ولكنهم لم يقدموا لها من لعب الورق بديلاً غير تأنيبها بأنها جديرة أن تحجل من نفسها ، ومنهم من ارتأى لها أن تلتمس جارا ضريراً فتقرأ له شيئاً في صوت مرتفع .

ولقد يبدو هذا المثل تافهاً ، ولكن المشكلة خطيرة غاية الخطر في حياة العالم الاجتماعية التي ما تفتأ في ازدياد ؛ فهؤلاء الملايين ممن لا يجدون عملاً يملأ فراغهم ، مواطنات ولهن أصوات انتخابية ، ويمسكن في أيديهن زمام الإنفاق ، ويؤثرن أعمق الأثر في مجموعة الآراء السائدة ، فلو تركن لأنفسهن لأنهن لا يلزمن شئ في الحياة ، لو تركن لهذه الحياة الذاتية التافهة الضيقة ، فإن العالم يخلق لنفسه بذلك قوة من الجهل والتعصب الأعمى والقناعة ، ويوجد حوله جوا من الركود العقلي والأباطيل الذهنية ، يقف سداً منيعاً دون كل محاولة تبذل في تنقية الفكر وتوسيع أفقه ، وفي بناء المستقبل على استخدام محصولة المعرفة استخداماً مضبوطاً جريئاً .

إذن فأحسبنا بحاجة إلى شئ من التجديد في نظامنا التعليمي ، فهأنت ذا ترى وقتاً ضائعاً يمكن استثماره . ها أنت ذا ترى جموعاً حاشدة من المواطنين

لا يكدن يفرغن من فترة لا تجاوز العشرين عاما ينفقنها في حياة ذاتية عنيفة ، أخذت منهن بمجامع الأفئدة ، أقول إنهن لا يكدن يفرغن من تلك الأعوام العشرين ، حتى يتلفتن باحثات في شغف عن حياة جديدة شائقة ، راجيات بصفة عامة أن ينفعن الناس ، وأن يصلحن أنفسهن بشيء يعملنه ، ولسكنهن في معظم الحالات يفشلن في أن يجدن ما يحقق رجاءهن ؛ ولذلك ترى كثيرات من أولئك النسوة اللاتي فسكت عنهن الأغلال في حالة قصوى من الشقاء ، فما فسكت أغلالهن إلا لينعنن بأتفه التوافه ، وليحيين حياة الخمول ؛ وتستطيع أن تلمس حاجتهن الماسة إلى عمل يؤدينه ، تلك الحاجة التي عمت أرجاء البلاد كلها ، فيما تراه في كندا وإنجلترا من المعاهد النسوية ، وفيما تشاهده في الولايات المتحدة من أندية النساء ؛ فهذه المعاهد والأندية تخفف عن كروهن ، فهي بمثابة منصرف اجتماعي يُنفّسن فيه عن صدورهن المخرجة ، ولسكنهن مع ذلك ، ما يزان في حاجة إلى شيء أكثر من هذا ، شيء أكثر اطراداً وأقرب إلى العلم ، مع أن في مقدور المرأة النصف أن تستأنف تثقيف نفسها ، فلا تشعر بأن المجتمع غني عن وجودها ، ولا تقف موقف السخرية من الناس ، ولا تضطر إلى أن تقف في وجوه الشبان حائلاً منيعاً ؛ فقد تميل إلى استئناف ما كانت انصرفت إليه قبل زواجها من مشاغل أهملتها بسبب الحياة الزوجية ، وقد تحب أن توسع من أفقها فتزود من أحد العلوم التي تبحث في شؤون البشر ، كالسياسة أو الاقتصاد أو التربية أو علم النفس أو علم الصحة أو التاريخ ؛ أو ربما اقتصررت على أن تجعل نفسها مشغلة لسواها ، بأن تلمس غيرها ممن يشعرون شعورها فيسقينها إلى ما تملأ به فراغها ؛ وهي إن لجأت إلى ذلك فإنما تخلق لنفسها مجالاً قد ينفع لأنها بمثابة المادة الغفل ، صالحة أن تسير فيما يصلح النظام الاجتماعي ، فهي

على كل حال فرد من أفراد الوطن ، ويمكن أن تستثمر في عمل تؤديه ، وهي بحاجة إلى ما يسميه أصحاب السيارات « عمارة » لكي تستطيع أن تعود إلى طريق الحياة المزدهرة من جديد .

وسنبعث في الفصل الآتي^(١) صنف الأعمال المتميزة بطابعها النسوى التى فى مكنة النساء أن يشتغلن بها فى هذا المجتمع العصرى الذى ما يزال يزداد تعقداً واشتباكا ، حتى إذا ما بلغنا الباب الذى سنخصصه للبحث فى التربية سنبحث فيما يمكن أن نبذله من مجهود خلقى وعقلى ييسر لنا تنظيم المجتمع البشرى تنظيماً أقرب إلى القواعد العلمية ، ولقد أسلفنا فى الباب الثامن تعريفاً لما نسميه بالطبقة المتعلمة ؛ وكلما أمعنا فى هذا البحث الاستعراضى الذى نصور فيه الحياة العقلية لهذا العالم الذى نعيش فيه ، ازدادت الأسباب ظهوراً ووضوحاً ، الأسباب التى تحتم على النساء أن يعتبرن الأعوام التى تشتد فيها النزعة الجنسية والحياة الذاتية وهى التى تعقب بلوغهن سن المراهقة ، مرحلة من مراحل الحياة لا أكثر ، وأن يلتزمسن فى استئناف التثقيف والاشتغال بعمل ما لذاته ، مهرباً من هذه الحياة الميته التى يحياها كثير منهن اليوم ، فلا يكنّ بذلك إلا مادة هملاً فى جسم المجتمع .

٨ — إمكان أن يكون للنساء عمل خاص فى المجتمع الحديث

عندما اشتدت حركة تحرير النساء فى أواخر القرن الماضى ، كثير حديث الناس فيما يشهده العالم من تغيرات ومعجزات إذا ما حان الحين الذى لا تقتصر الدنيا فيه على « صنع الرجال » ، إذ ما هى إلا أن يتقدم النساء فيمتولين نصيبهن من العمل ، فتصلح الأشياء عما كانت عليه حينئذ ، والواقع أن ما منحه للمرأة

(١) يشير إلى الفصل الذى يلى هذا فى كتابه « عمل الإنسان وثروته وسعادته » فارجع

ليه من شاء .

من حق الانتخاب ، وما أفسح أمامها من المجال لكل مهنة ممكنة ، وما صدر في شأنها من التشريع مثل قانون سنة ١٩١٩ المسمى « القانون الإنجليزي لما يترتب على الجنس من عدم الكفاية » ، كل هذا إنما يدل على أن النساء لم يكن مقبلات على تولى نصيبهن من العمل ، بل كنّ في حقيقة الأمر مدبرات عن مجال اختصاصهن ، أو إن شئت فقل آبقات منه ؛ وها قد انقضى زمن يكفي لكل امرئ أن يدرك في جلاء أن النساء لم يتحررن ليستقبن نوعاً جديداً عجيباً من حياة التخصص ، بقدر ما ضاع منهن ما كن متخصصات فيه .

ولكن أنماطاً من العمل النسوى ما تزال باقية للمرأة ، إذ بقي لها من واجبات الأمومة ما يستحيل أدائه على صورة جمعية ، ومن ذلك صنوف معينة من العمل كالرضاعة ورعاية الأطفال ، حيث يتطلب الأمر شيئاً من السلطان الغير ملصكة الابتكار ؛ وما يزال باقياً لها كذلك أن تعنى بجمالها ، وأن تفيد من تلك القوة التي تستغل بها عناصر شخصيتها ، وإن هذه القوة لتبلغ أوجها في كبريات الممثلات ، فهذه ضروب من العمل ستظل نسوية إلى آخر الدهر وأما في كل ما عداها فللمرأة كامل الحرية في هذا العصر أن تؤدي منه ما تستطيع أدائه ، وأن تضع نفسها في المنزلة التي تتفق وكفايتها ؛ فهي تكتب القصص والمسرحيات ، وإذا قصرت المرأة قلمها على دقائق الأخلاق الاجتماعية والروابط المنزلية ، فإنها تنتج ما لا يستطيع رجل أن ينتجه ، وهي تقود الطائرات وتقتنص الحيوان المفترس مع شيء من المعونة اللازمة ؛ وهي تجول في ميدان العلم ، وتمارس الطب ، وترافع في ساحات القضاء ، وتملك الأملاك ، وتدير الأعمال ، وتفلح الحقول ، وما إلى ذلك ، فليس بين الأعمال ما تعجز عن محاولة أدائه إلا القليل النادر ؛ وها هي ذى امرأة قبطانة كانت تقود سفينة روسية رست بها

في ميناء لندن منذ عهد قريب ، فمستوى قدرة النساء على العمل عال في معظم الحالات ، هو أعلى من مستوى الطبقة الثانية من الرجال ، ولكن ان يزعم زاعم أن النساء مهسا بلغن قد أبدين حتى اليوم في ميادين العمل الطليق ، إذا استثنينا القصص الذي يدور حول شؤون الأسرة ، من الخصائص وقوى الإبداع ما يضعهن في منزلة واحدة مع الصف الأول من نوابغ الرجال ، في أى جانب من جوانب هذا اللون من النشاط ؛ نعم قد ينشأ من النساء نابغات ، ولكنهن لم يظهرن حتى اليوم ؛ وإن لهن في الأدب والفن والمعامل العلمية ميداناً أبدين فيه شيئاً من القدرة ، وأضفن إليه شيئاً لا بأس به من الإنتاج ، وليس أمامهن في ذلك المجال ما يعوقهن عن التقدم ، ولكن ليس منهن من أبدت حتى الآن قوة عقلية مُنْشِئَةً لها اتساع وعمق واطراد ، مما يقرب بينها وبين أنبغ الرجال ، ولم يُنْتِجْنَ شيئاً من قوانين العلم العامة التي تهدي الباحثين ، وأبعد ما بلغته المرأة من التوفيق في النقد لم يكن حتى اليوم إلا ردودا بعثتها عن عاطفة ناثرة ، أو لمعات خاطفة من التعليق الشخصي .

ونسكاد نحزم في يقين أن النساء لن يتفوقن على الرجال ، بل لن يلحقنهم في الميادين التي وفق فيها الرجال توفيقاً لا شك فيه ، فهل ما يزال أمامهن فرصة بما يجوز أن ينتجنه في تلك الجوانب التي قَصَرَ الرجال فيها حتى الآن بالنسبة إلى ما بلغوه في اختراع الآلات وإنشائها — وأعني بها نواحي الاجتماع والسياسة والإدارة والتربية ، التي ينصرف النظر فيها إلى الحياة البشرية ، ويتركز في الشخصية الإنسانية ، أكثر مما يتوجه إلى الآلات والفكر المجرد ؟ إن الإنسان لتقرر منذ النظرة الأولى بأن هذه الموضوعات التي يُرْجى أن يبدي فيها النساء ما لهن من نبوغ خاص ، فقد تكون لهن غريزة التنظيم ، وحب الاستطلاع

فيهن ينزع بطبعه ، فيما يلوح ، تجاه مشكلات الحياة العملية أكثر مما يتجه نحو الآلات وما يتصل بها ؛ فحيث يبسطن نفوذاً سياسياً — بتأثيرهن الشخصي في رجال السياسة — تجد الهيئات التشريعية نفسها مضطرة أن تنفق عناية أكبر في الموضوعات الاجتماعية ؛ وأما في هيئات الحكم فعمل النساء ذو وزن لا يتطرق إليه الإنكار — على الرغم من أن النساء لم يُمكنن من مثل هذه المناصب لجدارتهن إلا في حالات نادرة ، والأغلب أن يترعن في مناصب الحكم لأنهن زوجات أو بنات لدى النفوذ من الرجال — فإذن كان نصيبهن في حركة السلم العالمية ضئيلاً (اقرأ كتاب «الحرب للسلم» وهو كتاب ممتاز أصدره Devere Allen عام ١٩٣١) فلا يكاد يتطرق إلينا الشك في أن الدعوة لمنع الحرب (بكل نتائجها التي لا تزال تظهر شيئاً فشيئاً) جاءت نتيجة لفوزهن بحق الانتخاب كما يحىء المعلول في أثر علقته ؛ وإنه ليمدو لنا أنهم سيفعلن بالسياسة ما فعلنه بالمصنع ، فيلقين ما تنوء تحته السياسة من أعباء ليستبدان بها خلقاً سامياً صريحاً .

ومع ذلك فهنالك بلد واحد يظهر أن قد ارتفعت النساء إلى أعلى المناصب تبعه ، وهو بلد ظروفه السائدة ليست تجري على النسق المألوف ، ألا وهو روسيا ؛ فيكاد كل ما يروى من الحقائق عن روسيا يكون موضعاً لخلاف ، ولما كان يظهر أن الرأي مجمع على أن دوافع الحياة الجديدة هنالك — وإن شاء القارىء فليعدّها دوافع شاذة ممقوتة — تؤدي بالنساء أن يتخلصن من صفاتهن التي تحد من نفعهن في البلاد الأخرى ؛ ويقال إنهن في روسيا يبدن استطلاعاً عقلياً ونشاطاً ذهنيًا يوازي ما يبديه الرجال ؛ فلا يخشى أحد هنالك أن تتولى المرأة أى منصب من مناصب الدولة لئلا تدفعها أنوثتها إلى الحياء وإلى التلون بالصبغة الشخصية ، والبعد عن النزعة العملية ، وضيق النظر ؛ حتى ليروى أن لم يعد بين الشبان

والشواوب في ذلك فرق كأننا ما كان ، وللنساء من الحرية ما للرجال في انتقاء ما يؤدبه من الأعمال ، بل هن في حقيقة الأمر ، يدخلن في كل ركن من أركان الإدارة في بلادهن ؛ والنساء في القرى الروسية تسند إليهن الرئاسة ، ويساهمن في العمل في المزارع التعاونية التي أشرنا إليها فيما سلف كما يُستخدَمُن في المدن أفواجا مفتشات ، ومرافقات لمشروعات الإصلاح ، ومثمّنات وجانيات للضرائب ؛ ومنهن عدد عظيم في الجيش ، قليل منهن يعمان فيه جنديات بالمعنى الصحيح ، والكثرة الغالبة تعلم الجنود أو تعنى بصحتهم وظروف عيشهم ؛ وقد قيل في هؤلاء النساء إنهن يقمن بهذا الضرب من الأعمال ، لا كالرجال بحسب ، بل جاوزتهم جودة ، إذ برهنن في هذا الجانب من جوانب النشاط أنهن أكثر من الموظفين الرجال إحساساً بوخر الضمير وأشد منهم عطفاً وأقل تعرضاً للرشوة والفساد ؛ كل هذا يحدث في بلد كانت نسبة الأمية بين نسائه فيما قبل الحرب خمسة وستين في المائة .

ويجمل بنا أن نلاحظ أنه حتى في روسيا نفسها ، حيث لم يعد الجنس سداً في وجوه النساء يحول بينهن وبين المناصب على اختلافها ، يشاهد أن النساء أشد إقبالا من الرجال على دراسة الإدارة والتربية ، وأن الرجال أشد من النساء إقبالا على الموضوعات الفنية كالمهندسة مثلاً .

ومما يجب إثباته أنه رغم كل ما أعطى للمرأة من حقوق ، فلم يكن بين الشخصيات البارزة التي قبضت على زمام روسيا ، توجه شؤونها منذ الثورة ، امرأة واحدة ؛ ولم ينشأ بين النساء زعيمات يقاومن التيارات الرجعية التي حوّات حكومة روسيا من حكم الجماعة إلى أوتوقراطية طاحنة في يدى ستالين ، فلما نهضت أرملة لينين تعارض ستالين ، لم يتعذر سحقتها دون أن يناصرها أحدهم

النساء ، فعلى الرغم مما ظفرت به المرأة الروسية من حريات وظهور ، فلا يزال عالم السوفييت صنيعه الرجال محكوماً بالرجال .

ولقد يكون لهذا التحول الذى يقال إنه طرأ على عقلية المرأة الروسية مبالغاً فيه ، فلو فرضنا ذلك ، أو لو فرضنا أنه فى حالة صحته لا يزيد على أن يكون تشكلاً ظاهراً دعا إليه الموقف الجديد ، فلا يزال يشوقنا أن نبحت الظروف التى أنتجته .

فما هى العوامل الفعالة التى أنشأت ذلك التحول ؟

إننا نقرر قبل كل شئ هذا الحكم الذى سيكون بمثابة مفتاح لكل ما يُطلب من التعليل ، وهو أن نساء روسيا السوفيتية ملزمات أن يعملن ولو كن نافرات ، وأن أقصى ما يبلغن منهن ضيق الصدر إنما يكون فى دورهن ، فإزدحام السكان قد بلغ حداً مخيفاً ، وكل مجهود يبذل فى توفير السعادة المنزلية مصيره إلى الفشل ، ولم يعد ما يبعث الأمل ويحفز الهمة ويثير الرغبة إلا الحياة الجماعية فى إحدى صورها ، فتكون المرأة معاملة فى المدارس ، أو عاملة فى المصانع ، أو عضواً فى نوادى العمال ، أو زارعة فى المصانع الاشتراكية ، فإن لم تخرج المرأة من دارها لتخالط الناس وتقاسمهم الحياة فلا يبقى لديها إلا أن تتعفن ويصيبها العطب ؛ أما العامل الثانى فهو أننا نعيش فى زمن اشتد فيه الاضطراب العقلى ، فالجو ملئ بالآفكار الجديدة ، ولا يبعد فى كل لحظة أن تخرج بعض هذه الأفكار أو إحداها إلى حيز التنفيذ ؛ ونحن هنا فى إنجلترا فى مكنتنا أن تركز إلى ما يُطمئن نفوسنا من تلكؤ زمنى ، يختلف من خمسين عاماً إلى مائة ، يتوسط بين الإدراك العقلى لما ينبغي أن يكون وبين المحاولة الجديدة فى إخراج الفكرة إلى التنفيذ ؛ بل إن الأمريكين أنفسهم يتمهلون ليفكروا طويلاً فيما يريدون أن يدخلوه

من نظم ، أما روسيا فمضطرة أن تفكر وأن تعمل كل يوم على نحو جديد — فلا بد للمرأة إذن أن تعلم شيئاً مما يدور في الأذهان ، لأنها تتوقع في كل لحظة أن تنتقل الفكرة إلى عمل ، فتقلب لها أوضاع حياتها جميعاً ؛ ونضيف إلى ذينك العاملين عاملاً ثالثاً ، هو أن النساء في روسيا مساويات للرجال بحكم القانون ، وقد منحن الحرية فعلاً ، فلهن من الفرص ما للرجال ، ويملكن من المال قدر ما يملكون ، وهن سيدات أنفسهن ، يعاونهن ما يقوم هنالك من مؤسسات لرعاية الأطفال ومن معاهد للحضانة ، وما إلى ذلك ، بما تقوم به تلك المنشآت من مجهودات جبارة تعمل على تقصير الأمد الذي لا مناص فيه من اعتماد المرأة على غيرها بسبب ما ألقى عليها من واجب الأمومة ؛ والنساء في روسيا فوق هذا كله لا يستطعن بيع أعراضهن إذ يستحيل عليهن في تلك البلاد أن يظفرن بحياة الرغد بجمال أجسادهن ، مضافاً إليه قليل من الكذب وكثير من الرياء ، بل هن لا يظفرن بحياة الرغد بالحلب المتصل والولاء الشخصي والانصراف إلى واجبات الدار ؛ فالحياة الراغبة في حقيقة الأمر متعذرة في روسيا على أية صورة من الصور ، وكل ما يمكن للمرأة تحصيله هو قسط تسامح به في أشد الأعمال إرهاقاً ؛ ففي روسيا أمة بأمرها يعوزها التعلم ، وهنالك تسعة ملايين امرأة يحضرن في فصول خاصة « لتصفية الأمية » ، ويؤخذن بالعلاج والتنظيم ، ويُلقن الآراء الجديدة ؛ إن الحياة البدنية في روسيا مروعة إذا قيسست بمعايير البلاد الغربية ، ولكن يظهر أن حياة العقل قد بلغت حداً خارقاً للمألوف من القوة الحافزة ، أضف إلى ذلك أن عمل المرأة في هذا كله ضرورة محتومة ، وهذا وحده في كثير من النساء كافٍ لتغيير لون حياتهن .

ويخطئ من يفتزع من التجربة الروسية نتيجة كائنة ما كانت ، اللهم إلا

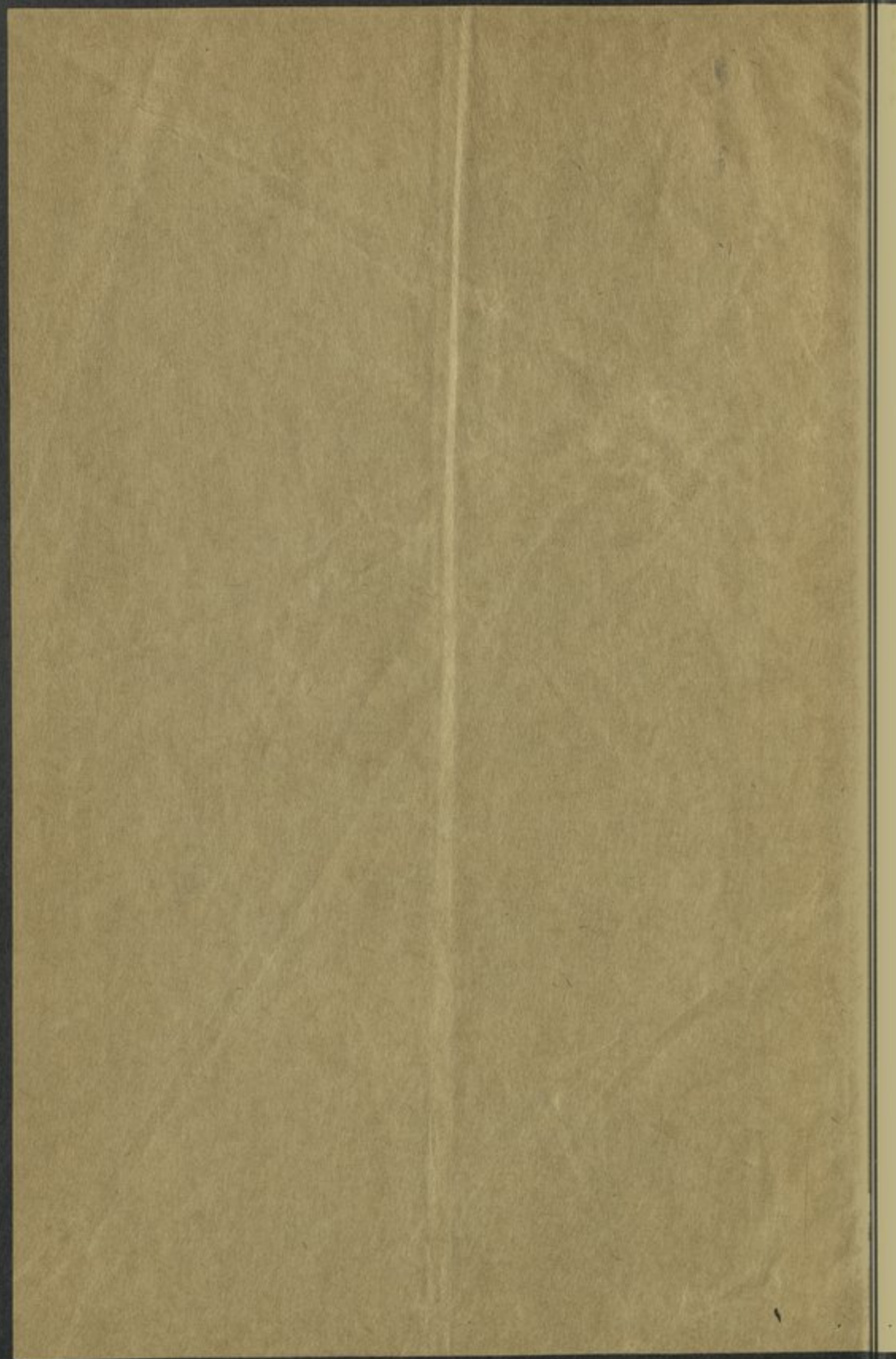
أن النساء قادرات على التشكيل بحيث يلائمن البيئة — ففي مكنتهن في ظروف معينة أن يزحن عن كواهلهن ذلك الخمول العقلي وذلك التركيز المسرف في حياتهن الذاتية، مما نراه في معظم الدول الأخرى ؛ وليس ببعيد أن يكون النساء صميمهن راغبات في النكوص إلى الحياة القديمة ، وأنهن إذا ما يَسَمَرَت لهن الدولة الاشتراكية رغداً في الحياة المادية عُدُن مغتبطات إلى قراءة القصص وتتبع « المودة » ، ومن الجائز ألا يكون الأمر كذلك ؛ ومهما يكن من الأمر فالنساء في أرجاء العالم كله ، إن لم يبلغن في سُلَم الأعمال ذروته ، فلا ريب في أنهن دائبات على تحرير أرواحهن دأباً متصلاً ، وآخذات في الصعود بمستواههن العام أخذاً لا ينقطع .

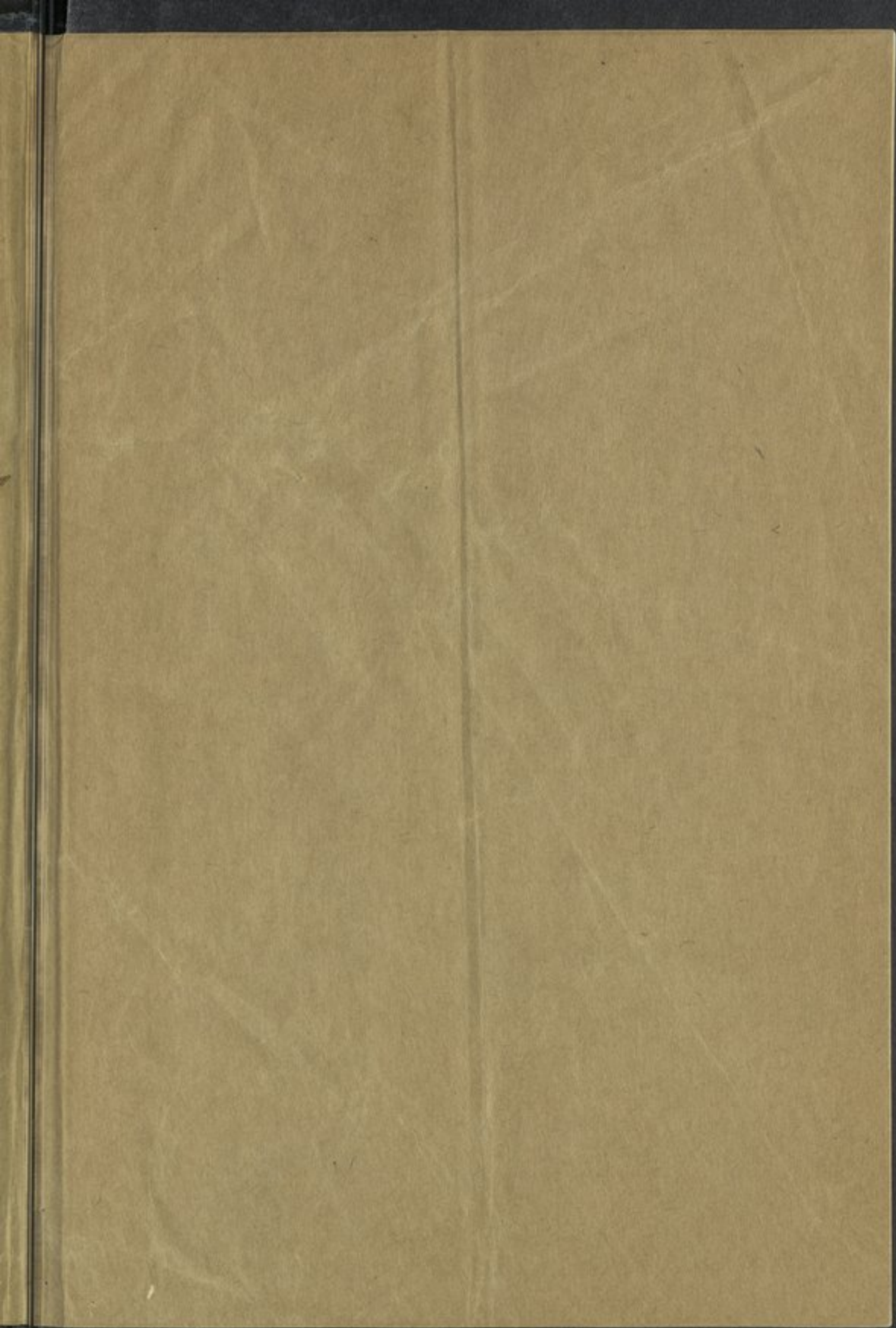
ويجوز أن يكون في فطرة النساء الثبات على التعاون ، مما لا يتوفر للرجال الذين هم بصفة عامة أقل منهن استقراراً وأقل وضوحاً في الغرض وأبعد عن تعقب الباحثين . ولقد بسطنا في الفصل السادس من هذا المبحث ما يؤديه النساء في معونة الرجال وشد أزرنهم وإغرائهم ، وسنعود هنا إلى ما أوردناه في ذلك الفصل من مقترحات ، فالمستقبل يتكشف عن واجب ستقوم به المرأة ، هو بث أسباب الثبات والاتساق والمتانة في بنيان الحياة ؛ ولقد شهد الماضي بعض الأمم وبعض صنوف الثقافة حيث دافع النساء عن بعض الآراء الدينية ، وبعض النظم ، دفاعاً صانها من الانحلال ، فقد كان عمل النساء في المجتمع بمثابة الملاط من أحجار البناء ؛ فهن فيما يبدو أسرع قبولاً للآراء الجديدة ، وأشد من الرجال سذاجة في اعتناقها . وهن أقوى من الرجال إخلاصاً في التمسك بها ، فإذا ما جاء يوم اتحد العالم فيه في مجتمع واحد ، أدق من مجتمعات اليوم خلقاً ، وأعلى تربية ، وأقرب إلى الروح العلمية في حكومته ، أقول إذا نشأ هذا المجتمع العالمي الذي هو المنقذ الوحيد

للإنسانية من كوارثها ، فإن ذلك الواجب النسوى سيكون ألزم ضرورة لحفظ
كيان الجماعة منه فيما مضى ؛ ذلك هو ما أرجح أن يتجه إليه النساء في المستقبل ،
إذ هو عندي أقرب احتمالاً لمن أن يقمن بأدوار السكواكب ، فسيظل النساء
أمهات يرعين الأطفال ، ويعاون الجنس البشرى ، ويحمينه ويسعدنه ويكافئن
من أحسن فيه ، ويمسكن أفراداً في بناء متصل .

لقد كان عمل النساء حتى اليوم وسيلة للتزين أو للخدمة ، ولا يزال يتخذ
— فيما يبدو — للزينة في شيء من التستر ، ولكنه يستخدم في معونة الرجال
عن رضا وإحساس بالشرف ؛ وإن ما كسبته المرأة من الحرية في العصور
الحديثة قد وسع من مجال اختيارها للرجل الذى تخصه بعبادتها وخدمتها ، ولكنه
لم يضيف إلى شؤون الحياة ضرباً جديداً من ضروب الابتكار — ولئن كان هذا
القول لا يرضى أشياع الحركة النسوية المتحمسين الذين يؤازرون المدرسة الفكرية
التي ظهرت في أواخر القرن الماضى ، فهو قول يصور الحق الواقع ؛ ولا ينبغي
لامرأة أن تأسف على شيء مما أثبتناه هنا ، ما دام حافز الخدمة هو الذى يسود
العالم كما يبدو .







محمود، زكي نجيب

الاغنياء والفقراء

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01011470

American University of Beirut



General Library

